الإنتظار للأبد

(جوسيان)

روايـة

((رنا محسن))

● **الكتاب : الإنتظار للأبد (جوسيان)**

● المؤلف : **رنا محسن**

Facebook page : Rana Mohsen / رنا محسن

● التصنيف : **رواية**

● يصدر عن

شعلة الإبداع للطباعة والنشر

● رقم الإيداع : ٢٦٨٢٤ / ٢٠١٩

● **978-977-6681-61-3 : L.S.B.N**

● الإخراج الفني : **أسماء أشرف عزمي**

● بالتعاون مع

اللوتس للنشر والتوزيع

● **ت / ٠١١٢٠١٣٠١٧٩ _ ٠١٠٢١١٥٦٧٥٧**

حقوق الطبع محفوظة

الإهداء

" أهدي هذه الرواية لكل من سيقراها و يتعرف علي نفسه داخل سطورها .. و بين شخوصها .. و أشكره أنه ساهم في خلق روايتي ، رواية الإنتظار للأبد "

ملاحظة : القصة من وحي خيال المؤلفة و هي غير مسئولة عن أي تشابه في الأسماء أو الصفات بين شخصيات القصة و الواقع .... خاصتا شخصيتك أنت .

الإنتظار للأبد (جوسيان)

لم يكن غريبا أبدا بالنسبة إلي أن يكتب أحدا ما قصته ، لكن الغريب حقا كان أن يقرأها .. بكل تفاصيلها .. و كأنه يحياها من جديد ، و كأن شخصا ما إخترق عقلك و قلبك ؛ لينقش دون حدود ما عنيته لسنوات سابقه ، و بدون حذر عاناه معك و هو يدونها لحظة بلحظة ، نعم هذه قصتي .. و ها أنا بعد قراءتها و كأنني أتعرف علي أحداثها لأول مرة ، كأنني لم أكتفي منها لمرة واحده ، و كأن قدر الخذلان في المرة الأولي لم يكن كافيا ، و لم يكن حزني كفيلا ليقتلني مرة واحدة ، منذ شهرا واحد فقط إستغرقت سبعة أيام كاملة لقراءة قصتي ؛ لأدرك بها و بعد كل هذه السنوات البطل الحقيقي خلف هذه القصة ، البطل خلف قصة حياتي التي عشتها و أنا أظن أني وحيده . لا أعلم لماذا فعل ذلك لكنه دون كل شئ ، كل شئ حتي مقدار تلك الدموع التي ذرفتها لله سرا ، حتي كوابيسي التي أفزعتني لسنوات ، و الأن فقط إكتشفت أنها لم تكن برأسي أنا فقط .. بل شاركني بها هو أيضا .. كوابيس إنتظار ما لا يأتي أبدا .. كوابيس الإنتظار للأبد .

قصتي التي وجدتها في غرفة مكتبه .. تلك التي لم أدخلها أبدا إلا هذه المرة ، كنت أقرا و كأني لا أعرف ما ستؤل له هذه القصة ؛ متفاجئة بكل كلمة كتبها عني و كأنني لم يسبق و عشتها ،

متعجبتا لحال ذلك الرجل الذي بداء قصتي منذ اللحظة الأولي للقاءنا ، و روها قائلا :

{ عدت لمصر بعد غياب طال سبعة عشر عام ، سافرت بها للكثير من المدن حول العالم .. و قابلت بها الكثير من النساء ، لكن لم تاثرني أي مدينة من تلك المدن .. و لم أعشق أيان من النساء ، قضيت أطول فترة لي في باريس .. ثماني أعوام هائما في شوارع باريس .. و حكايا باريس و رواياتها ، أنا ((ياسين فريد)) و قد كنت مؤلف يتمتع بشهرة أدبية واسعة و صيت هائل - كما أظن نفسي - و بإستثناء ذلك أنا مجرد رجل إشتعل رأسه شيبا ، و بهتت ملامحه من كثرت الأسفار .. التي رسمت علي مدار السنين تفاصيلها داخل تجاعيد وجهي .. و أضعفت بدون رحمة جسدي القوي .. لتحوله في النهاية لمجرد جسد ضاعت قيمته أمام قيمة الروح ، كنت مشتاق لشوارع القاهرة كل بيت .. كل حجر .. كل الطرق و الأزقة ، لكنني لم أعود لهذا السبب ؛ لقد عدت لمصر فقط حين أصبح كسر كل عظمة من عظامي جسدي أسهل من كتابة كلمة .. أو إيجاد فكره .. عدت لأن كل الأشياء بهذا العالم لا يمكن أن تقارن برعب صفحة فارغة ، عدت لشارعنا القديم حيث بدء كل شئ ، ولدت .. و تربيت .. كبرت .. و حلمت ، حيث كل شئ يشبه أمي و أبي و صديقي العزيز .. صديق طفولتي ((نجيب شاكر)) ، الذي لم تفرقنا الحياة أبدا منذ كان يسكن البيت المقابل لبيتنا في أحد الشوارع المتفرعة من ميدان طلعت حرب .. و حتي كنت أسكن أنا

أحد الشوارع المتفرعة من شارع الشنزليزيه بباريس ، عندما غادرت البلاد كانت كل البيوت و الشوارع مضاءة .. إلا بيت نجيب ؛ كان يخيم عليه الظلام ، غادرت عام ١٩٣٨ م .. حينها كنت في الثالثة و الثلاثين من عمري و كذلك نجيب ، كنا صديقين لكننا أبدا لم نكن متشابهين ؛ فنجيب كان بالنسبة للجميع الإبن البار بعائلته .. و الشاب الذي يحلم بالكثير لكن بسبب هذا البر قرر هذا الإبن الوحيد أن يكمل إرث عائلته .. و يصبح صاحب واحد من أشهر محال الحلويات بمنطقة وسط القاهرة ، أما بالنسبة لي فأنا كنت علي النقيض الإبن العاق بوالديه .. كان أبي يعمل محامي و كانت والدتي هي إمرأة تقليدية لا تملك في هذه الحياة سوي والدي و أنا ، و بسبب هذا العقوق الذي ملكته لم استطع تفضيل والداي علي أحلامي ، كنت أنظر لهذه الأحلام كالطفل الذي ينظر للسماء .. و يتمني أن يلمس نجم بعيد ، كنت أتساءل حول هذا الصوت الذي أسمعه .. و لم يسمعه غيري ، و عن تلك الأشياء التي أراها .. و لا يراها غيري ، و هنا قررت أن أصبح مؤلف ؛ كنت أود لو يستطيع الكل رؤية ما أري .. خاصتا عائلتي لكنهم لم يفعلوا ، و حاول صديقي نجيب كثيرا لكنه عجز أيضا ، لكن علي الأقل حصلت علي دعمه لي .. علي خلاف والدي الذي كان قد خطط حياتي مسبقا طبقا لرغبته و لمفهومه عن الحياة ؛ فكان قد قرر أن أصبح محامي مثله ؛ و لذا لم أحظ بتشجيعه حول رغبتي في تلك الحياة الغير نمطية التي لطالما حلمت بها ، و بذلك كان نجيب

هـو الوحيـد الـذي آمـن بمـا أراه و مـا أريـده ؛ فـأصـبح رفيـق طـريقي حتي بغربتي .. التي عـدت منها و أنـا أعلـم أنني لـن أجده في إنتظاري كمـا كان ينتظر خطابـاتي و كنـت أفعـل ، عنـدما وصلـت لشـارعنا القـديم لـم اسـتطع رفـع عيني عـن مفـرق الطريـق حيـث كان يقـع منزل نجيب ، كان نجيـب يسكن الطـابق الثـاني لمنزل يتـألف مـن طابقين ، أمـا الطـابق الأول فكان ((جوسيان)) كمـا أسـماه نجيب ،و جوســيان يعـني ((مــريم)) باللغــة الفرنســية ، و هــو محــل الحلويـات الـذي توارثتـه عائلـة نجيـب و توارثـت معـه مهنـة صـنع الحلوي ، كان هذا المحل بصغرنا حلم كل الأطفـال .. فتلك الروائح الذكية المنبعثة عنه .. و تلك الحلوي الشهية به كانتا عامل جذب كبير لأطفـال الحي ، و هنا كان يجئ دور و الـد نجيب - العم شـاكر - الرجل الكريم الـذي كان يطعم كل أطفـال الحي من حلـواه ، حينها كان المحل يحمـل إسـم عـائلـة نجيب ((محل شـاكر للحلويـات)) .. لكنه إستبدل الإسم بعدما ورث المكان بسنوات قليلة و ظل المنزل يحمل إسم العـائلة ، عندما كنا صغـارا حلم كلانا بالسفر لباريس .. رغم أنها لم تكن أكثر جمـالا من القـاهرة حينهـا ، بل إنني إكتشـفت عند سفري أن القـاهرة فـاقتها جمـالا و تطورا في الكثير من الأمور ، عندما إستقر بي الأمر في باريس أخذت أراسل نجيب و أروي لـه كل تفاصيلها .. كل شئ .. اللهـو في أروقـة بـاريس .. عشـيات العيـد .. حـاملو الهوي و بائعيه .. عـاشقين باريس .. موسيقـاها و مسـارحها .. و سـينماتها .. كل شئ حتي وحشـة المسـاء بباريس ، و بسـبب عشـق

نجيب لهذا الذي أسماه حلمه الذي حققه من خلالي ؛ حول نجيب محل شاكر للحلويات لجوسيان ، و هو كما تصورته قطعة من باريس في طلعت حرب ، كان المكان عند مغادرتي تحت إدارة نجيب .. و كان مجرد محل مشهور للحلويات و المخبوزات بأصنافها .. لكنني يوم عدت رأيته بشكل مختلف ليس فقط بسبب مظهره ؛ و إنما بسبب كل شئ .. حيث أصبح جوسيان مكان حيث يتذوق الناس كل حلو .. ليس فقط ما ياكل .. و إنما في الموسيقي التي تصدر منه .. و رائحة الخبز الفرنسي و الحلوي التي ملأته ، كان المكان يطل علي ثلاث مفارق للطرق ، وجهته مصنوعة من الخشب البني و الزجاج الشفاف ؛ حتي يستطيع من بداخله أن يشاهد الطريق .. و يتمكن من بالخارج أن يشتهي المذاق الحلو .. و يشتاق للدخول و تناول الحلوي كما كنت أنا ، حينها ترددت كثيرا حول الدخول ؛ لأنني كنت أعلم أني لن أجد نجيب و لم أكن أعلم لمن آل المكان في النهاية ، لكن و بعد تردد طويل لم استطع فعل شئ سوي دخول جوسيان ، كان الجو داخله دافئ جدا رغم أن شتاء هذا العام كان شديد القسوة .. لا يشبه أي شتاء أذكر أني قضيته في مصر .. كان المكان منظم بكلاسيكية شديدة و رقيقة في كل شئ .. حتي تلك الموسيقي الهادئة الصادرة عن الفونوغراف النحاسي في الزاوية .. و الزهور الحمراء المنتشرة في كل مكان ، و أرضيته التي تكسوها بساط عجمي ثمين .. و المفارش الوردية المطرزة باللآلئ علي كل طاولة من الطاولات الخمس في وسط

المحل .. حتي في الحوائط البيضاء مع ذلك المزيج الرائع مع اللون الذهبي المكون لتلك النقوش أسفلها .. مع عدد بسيط و متناسق من التبلوهات الجميلة المغلقة علي الجدران حيث تتحالف صور الطبيعة بالعشاق .. كنت أعلم أن مريم زوجة نجيب كانت تصنع هذه التبلوهات لكنني لم أتوقع أنها مازالت هنا بعد كل تلك السنوات ، عندما دخلت كان أول شئ رأيته إمرأة عجوز لا أعرفها .. كانت عجوز لأنها كانت في نفس عمري تقريبا .. إمرأة سمراء .. بملامح تمتلئ عصبية و حزم .. شديدة الجدية .. يمتلئ وجهها بالخطوط .. و أثار الزمن التي تشبه تلك التي أملكها .. قصيرة القامة .. بشعر أبيض قصير تلف حوله وشاح أسود شفاف .. ترتدي فستان أسود طويل .. خيل إلي أنها كانت شديدة الجمال في صغرها .. وكانت تقف هناك أمام باب المطبخ تجمع الأطباق الفارغة من الطاولات إستعدادا لنقلهم للداخل ، و هي غير منتبهه لي .. و لا لتلك الشابة التي تقف في الداخل وحيده .. تنظر من خلال الحائط الزجاجي للطريق .. كانت فتاة في مقتبل العمر .. ترتدي فستان أسود طويل و فضفاض .. ترفع شعرها البني لأعلي .. تقف مستقيمه تلمس الزجاج بكفها .. و دون أن تلاحظ دخلت المرأة العجوز للمطبخ ، فأخذت هي في التحدث لها بصوت خفيض بعد أن أصدرت تنهدة طويلة و مريره قائلتا :

" ذلك المفرق ..... دائما يجذبني لمراقبته منذ كنت صغيره ، لأراقب هؤلاء الأشخاص المنتظرين أسفل هذا العمود بالأخص ، حيث

ينتظرون أن يحين اللقاء ، ينتظرون علي أساس واه ؛ فأحيانا كان يأتي أحدهم لذلك الشخص المنتظر .. و كثيرا لا يأتي ، لكنهم كانوا يستمروا في الإنتظار مهما كانت الظروف .. حتي الأمطار لم تكن تمنع هؤلاء من إنتظار أحبتهم عند هذا المفرق ، كنت أتعجب و أتساءل دائما عن مدي تعلق عيونهم بالطريق .. و عن السر خلف إنتظار كهذا ؛ فقد كنت أظن أنهم مارسوه بلا هدف أو وعي منهم ، لكنني الآن قد أيقنت تماما .... أن إنتظار الأحبة ليس بالأمر السيئ مهما طال ، كما أن إنتظارهم لك أمرا رائع أيضا ، أتذكرين أبي و ما كان يفعل في صغري .. كنت دائما أعود من المدرسة لأجده منتظرا عند هذا المفرق تماما ، لكنه ليس هنا الآن لينتظرني ... هو أو أي شخص آخر ، إنتزعته السماء مني لتتركني لأقسي الدروس .. أننا جميعا في النهاية وحيدون ، أتعلمين شئ .. لا أود الزواج علي طريقتك ، بل أود الحصول علي من ينتظروني عند هذا المفرق في شغف و شوق ، و أنا أبدا لن أتركه ينتظر طويلا "

كنت أراقبها و أسمع صوتها دون أن أقصد أن أتلصص علي كلماتها .. أو تلك النبرات المتغيرة بها بين الحزن و الشجن و الأمل في الآتي ، فقط كان كل شئ بها يصبح مألوف شئ فشئ بالنسبة لي .. و فجاءة إلتفتت و هي تضحك و تقول :

" لماذا لا تعترضي علي ما أقول كالعادة "

وعندها لم تجد سواي ، فصدمها ما حدث و أصيبت بإرتباك تورد وجهها علي إثره خجلا ؛ لأن غريبا إستمع لأجمل

أمنياتها ، فأخذت تتلجلج و هي تسألني بعد جهد كيف يمكنها أن تخدمني ، عند إلتفاتها و من اللحظة الأولي التي نظرت به لذاك الوجه عرفت من تكون تلك الشابة الجميلة والمتلعثمة..((مريم)).

في باريس كنت أعرف أحد الشعراء وكان دائما شغوف بوصف تلك المعشوقة المثالية .. و العاشقة الصادقة .. تلك المرأة التي لم تغفل الشمس أن تشرق يوما علي خلق الله لأنها خلقت .. تلك التي تعصف أنفاسها بأمواج البحر المتدفقة كل ليلة لتحمل الأصداف للشواطئ ، و يغرد كل طيرا ليشاركها الحديث ، و يبدوا كل نورا أقل إشراق في حضرتها .. وكل نهارا يشابه الليل الطويل بسببها ، يومها فقط قابلت تلك المرأة ، كانت مريم كما يحب أن يصف الأدباء .. و يتغزل الشعراء ، كانت تشبه اللوحة الجميلة .. خالية من العيوب .. هادئة مريحة ، تملك سلام داخلي تسر به الناظرين ، يمكن أن يغرق أقوي الرجال في غرامها من كلمة .. همسة .. أو نظرة حقيقية من ذلك الوجه الملائكي .. بعيونها العسلية الواسعة و الساحرة .. و تلك البشرة الحليبية .. كانت طويلة القامة بقوام ممتلئ ممشوق .. هادئة الطباع ، تملك صوت ناعم رقيق ، تكتشف من اللحظة الأولي أن هواء هذا الكون لا يناسبها ؛ و لهذا تملك صوت أنفاس مرتفع ، مريم هي إبنة نجيب ، حين سافرت كانت في عامها الأول .. و لم أتخيل أنها ستكون بذلك الجمال بعد سبعة عشر عاما ، عندما رأيتها لم استطع أنا أيضا النطق بأي كلمة غير:

" نجيب شاكر "
صمتت مريم للحظة ثم قالت بحزن شديد :
" آسفة ، لكن والدي توفي منذ سنتين ، أفترض أنك كنت تعرفه "
حينها جلست .. بل سقطت علي أحد الكراسي ، و كأنني أعرف بموته لأول مره و أنا أقول :
" نعم ، أعلم أنه ليس هنا "

فنظرت إلي و رغم تمنع أهدابها إرتسمت داخل عيونها إلتماعة من تلك الدموع داخلها ، ثم قالت في أدب شديد :
" هل يمكن أن أسال من تكون ؟؟؟؟ "
نظرت إليها مبتسما و قلت :
" أنا ياسين فريد "

تجمدت تلك الشابة الجميلة أمامي في ذهول تام ، و هي تنظر إلي بطريقة غريبة ، تحملق بشدة و علي وجهها إرتسمت إبتسامة بسيطة و مجهولة تماما ، شعرت و كأنها تعرفني جيدا ، ثم قطعت صمتها و ذهولها بكلمات سريعة و مرتبكة و سعادة غامره و حتي ضحكات متقطعه :
" ياسين .. ياسين فريد ، حقا أنت ، تماما كما تخيلتك ، إنه أنت حقا ، لا ... لا تغادر يجب أن أستدعي مربيتي ، يجب أن تراك ، يجب أن تعرف أنك حقيقي .... و أنك هنا ، لقد عدت في النهاية ... كما كان والدي يقول "

ثم عادت لصمت مطبق بعد أن تغيرت نبرات صوتها الهادي

ليتحـول للحـزن عنـدما ذكـرت نجيـب ، و لـم أملـك أنـا أيضـا شـئ لأقوله ، حـول صـديقي الـذي إنتظرني طويلا ، و كان يثق بي ، بعد ثواني من الصمت نظرت إلي و قالت :

" لقـد تـأخرت كثيرا ، ظـل لسـنوات ينتظر رجوعـك .. لكنـك لـم تعود ، قبل موته جعلني أقرأ له كل خطاباتك ، و لم يتوقف أبدا عـن الحـديث عنـك لأي شـخص يمـر بـه ، لـم يصـدق أحـد أنـك صديقه "

ثم تنهدت برفق و عادت لتقول :

" آسفة كيف لم أنتبه .. لم أقدم لك شئ ، أعرف أنت تحب حلوي شاكر سأحضرها حالا "

بالفعل كانت تلك الشابة تعرفني جيدا . بسـرعة أحضـرت مـريم إلي طبـق مـن حلـوي شـاكر .. و هي الوصـفة السـرية لعائلـة نجيـب و التي توارثهـا مـن جيـل لجيـل ، حيـن تـذوقتها شـعرت أن نجيـب بنفســه أعـدها و قـدمها إلي .. شـعرت بـه داخـل كـل شـئ خاصتا عيون مريم ، بعد أن عرفتني مريم علي مربيتها ((السيدة تحية)) و هي ذاتها السيدة العجوز التي رأيتها عند وصولي و التي عرفت مريم طول حياتها ؛ فهي عملت كمربية لها منذ أن كانت مريم في عامها الأول بعد أن طلقها زوجها لأنها عقيم ؛ مما جعل مريم بمثابة الإبنة لها و التي لم تفارقها يوما منذ أن حملتها أول مره ، ثم دفعتني تلك الشـابة لإنتظارها علي نفس الطاولة حتي تنهي العمـل ، و بعـد مغـادرة الكل حتي مربيتهـا ، جلسـت أمـامي

صـامته تمامـا و هي تبتسـم في هـدوء .. و داخـل عينيهـا الآف مـن الأسئلة فنظرت إليها قائلا :

" يمكنك أن تسالي "

فأخـذت تضحك بصـوت عـالي كالطفلـة التي وجـدت شـئ يبهجها بعد وقت طويل ، و كنت سعيدا أني هـو هـذا الشئ ، ثم عادت لهدوءها من جديد قائلتا :

" أين كنت .... ، كان أبي دائما يتحدث عنك و عن صداقتكما ، حتي أنه أخبرني ذات يوم أنك أنت من صنعت هذا المكان "

حينهـا ظهـر علي وجهي تعبير التعجـب لما تقولـه مـريم و هي أدركت ذلك فقالت :

" نعم أنت ، كان يقـول أن هـذا المكان هـو مـا أخبرته أنت بـه ، كان دائمـا يتمني أن يسـافر و يلقـاك بباريس ، لكنـه دائمـا كـان مـريض .... ، هل يمكنك أن تخبرني كيف هي باريس ؟ "

فإبتسمت إبتسامتا إنتزعتها من حزني علي صديقي بصعوبة قائلا :

" جميلة .... مثلك "

فإبتسمت و قالت بسرعة و هي تضع يدها علي صدرها :

" مثلي .. أنا ، كيف ذلك ؟! "

فنظرت إليها و أجبت :

" نعم ، تشبهك إلي حد كبير "

إبتسمت مريم و أخذت تفكر فيما قلت طويلا ثم قالت :

" أحب رواياتك كثيرا ، جعلني أبي أقراء له كل ما كتبت منذ

صغري ، كان دائما يقول لي أنه يحب سماع رواياتك بصوتي "
تذكرت حينها نجيب و زوجته الجميلة مريم ، ثم تنهدت قائلا :
" كانت والدتك تفعل نفس الشئ ، دائما كانت تقرأ ما أكتب بصوت مرتفع .... كان نجيب يحب ذلك كثيرا ، و أنا أيضا ، كانت دائما تظن أنها أفضل من يقرا ما أكتب ، و هو كان يقول أنها عندما تقرأ رواياتي يجتمع له حينها كل ما يحب بلحظة واحده ... صديقه الوحيد و حبيبته "

إستمر حديثنا لبضع دقائق أخري ثم غادرت المكان ، لم أكن قد عدت لمنزلي بعد ؛ فلم أملك الجراءة لذلك ؛ لذا كنت نزيل أحد الفنادق القريبة ، و أخذت أتردد علي جوسيان يوما بعد اخر ، و في كل مرة كانت مريم تبدأ في الحديث عن الماضي بلا توقف .. و كأنها تعيده من جديد لتسمح لي بالإستمرار ، و في أحد المرات و وسط الكثير من الأحاديث نظرت إلي مريم و إبتسمت إبتسامة علمت بها أني ساسقط فريسة لذكاء تلك الشابة حين بدأت تسألني عن والدتها قائلتا:
" أعلم أنك كنت تعرف والدتي جيدا ، كيف بدت بالنسبة لك ؟ "
فأجبتها و صوتي يملئه شئ من الحنين و الشجن الممزوج بالحزن :
" لم تكن تشبه شئ سوي العشق "
ثم إنتبهت لحديثي و عدت لأقول :
" كانت تسكن أول بيت في شارعنا من جهة الميدان ، والدها كان صديق لوالدي و لوالد نجيب .... لذا فثلاثتنا تربي في نفس المنازل

.. و تحت وصاية نفس الأشخاص ، لكنها كانت الفتاة الوحيدة في تلك المنازل الثلاثة ، لذا كانت هي المدللة الجميلة ، كانت تشبهك كثيرا لدرجة يمكنها أن تربك أي شخص ، أظن أنها هي من صنعت هذه التبلوهات علي الحوائط .. أنا أبدا لا أخطي صنعت يدها "

ضحكت مريم و هي تقول :

" لكنك أخطأت هذه المرة ، ليس كل هذه التبلوهات من صناعة والدتي ، أنا صنعت معظمها ؛ فمعظم ما صنعت أمي قد تهالك مع كل تلك السنوات "

شردت قليلا و أنا انظر إليها ثم عدت لأقول :

" لا لم أخطئ ، ألم أخبرك أنك تشبهينها كثيرا ، كان والدك يحبها بشدة "

نظرت إلي مريم و بشكل مباغت أمسكت معصمي و هي تقول :

" و ماذا عنك ؟ "

فأجبتها في تعجب من هذه الكلمات الغريبة :

" أنا ... ماذا عني ؟! "

فقالت :

" أعني .. هل تؤمن بالحب ؟ ، و لا أقصد العلاقات الشاعريه ، بل ذلك الشعور الذي يكسبه المرء فقط عندما يعرف مكانه في الحياة "

أخذت أضحك بشدة بسبب إقتباسها لكلمات أحد رواياتي ثم أجبتها قائلا :

" ستجدين الإجابة في نفس الرواية بعد خمس صفحات "
فضحكت و هي تقول :
" نعم أعلم ، أليس حين قال البطل .... عندما كنا صغارا علمونا أن الحب جريمة و عندما كبرنا إعتنقنا الجريمة رغما عنا "
فتعالت ضحكاتي و سعادتي بتلك القارئة الجيدة قائلا :
" إجابة صحيحه ..... لكن يجب أن أخبرك بشئ أيتها الشابة ، لا الحب و لا العاشقين يشبهون أبدا تلك الروايات أو الحكايا الخرافية التي نشأتي و أنت تقرأينها و تحلمين بها "
و بعد قليلا من الصمت نظرت إلي ثم سألتني قائلتا :
" إذا كيف كان الحب بالنسبة لك ، أو من الأفضل أن أسال كيف كانت حبيبتك إذ لم تكن تشبه تلك الروايات؟! "

إبتسمت لذكاء هذه الشابة و التي كنت أشعر أنها تعرف تماما إجابتي ، و كنت أتوقع أن هذا الكلام غرضه الإيقاع بي :
" كانت رقيقة القلب .. قاسية الملامح .. يخشي الشيطان الإقتراب منها من شدة طهرها ، تفقد الحياة جاذبيتها جوارها ، تنظر لكل شئ بعيون قلبها ، و تدخر عيونها لتحاور بهما ، تري الكون بمنظورها الشخصي ، تقرر و تنفذ و تلغي وجود الكل في هدوء شديد ، مغرورتا حد الكبر ، واثقة حد القوة ، لا تخشي الحياة و لا الموت ، كانت تخيف بنظراتها البريئة قلبي حين كنت أري بهما عشقا أخر "

قلت ذلك ثم شردت في وجه مريم ، التي أخذت تنظر إلي

بترقب و صمت ثم قالت :

" كنت تحب والدتي أليس كذلك ؟ "

دهشت لسماع ذلك و كأن صاعقه ضربتني فأجبتها بسرعه و بدون تفكير :

" و لماذا تظني أنني أحببت والدتك ؟!

فنظرت إلي ثم إبتسمت و هي تقول :

" كان والدي يصف أمي بتلك الطريقة ، و لا أظن أن من الصدفة أن يصف كلاكما إمراتين بنفس الوصف و نفس الإحساس .. إلا إذا كانت كلاهما ذات المرأة "

بتلك اللحظة لم استطع منع عيني من خيانتي .. حين تسربت أمام تلك الشابة دمعة تقر بصدق ظنها ، و أنا أقول بصوت مختنق :

" نعم .. لم يكن من الممكن أن تكون هناك إمراتين بهذا العالم كمريم ، فلم يكن من العدل أن تخلق مرتين ، نعم .. أحببتها بالفعل و كذلك نجيب .. و أي عاشق لم يفعل و لم يغرم بها من اللحظة الأولي ، لكنها كانت مفتونة بوالدك بشدة .. و أنا أيضا كنت أحب صديقي و أتمني سعادته ؛ لذا لم أملك حينها إلا أن تمنيت لهما السعادة الأبدية في حبهما و لم أفعل شئ سوي مباركة ذلك الزواج ، و حينها فقط أخذت أنظر إليها و أحول حبي لها لحبي لصديقي و لكونها جزء لا يتجزأ منه ، لكنني كنت أضعف من أن أحتمل فكرت رحيلها عن هذا العالم .. و كان نجيب يدرك ذلك

جيدا فتركني أرحل ،غادرت مخلفا ورائي كل شئ حتي صديقي و طفلته الرضيعة ، كنت شديد الأنانية .. لكنني لم أكن قوي كفاية لخسارة المرأة التي أحببت مرتين ؛ فلقد كنت علي أتم إستعداد لخسارتها لصالح صديقي لكن ليس لصالح الموت .. و كذلك لم أكن أحتمل حزن صديقي الدائم ، إبتعدت و أنا أحمل داخلي ذكري لملامح كل سعادة عشناها منذ الصغر و قبل أن يلتهم الحزن ما بقي من تلك الذكريات غادرت .. غادرت لأقدس ذكراها للأبد "

و بنظرات من الحزن و الشفقة قالت مريم :

" هل كانت أمي تعلم بحبك "

نهضت للنافذة ألوز بها و أتنهد من جهلي بما يجب أن أقول فدنت مني مريم .. فقلت لها مهشما جزء من عذابي الطويل :

" كان الجهل و المعرفة نارين .. لم أكن أقوي علي الإختيار بينهما ؛ فكلاهما كان يسبب الألم ؛ لمعرفتي بحب نجيب لها و الذي بدا طاهرا للغاية .. و لذلك فضلت أن أتألم من المعرفة بقرارها علي أن أتألم من الجهل ، فأخبرتها و إنتظرت الرد "

فعادت مريم لتقول بعد تفكير و في تعجب :

" أتعلم كان أبي دائما يقول شئ مشابه لذلك ، كان دائما يخبرني أن المعرفة مهما آلمت تظل أفضل من الجهل ؛ فهي فقط ستجعلك تحب نفسك أكثر من أي شئ أخر و ليس الجهل ؛

فالجهل يصنع خيالات رائعة عن الأخرين ، و لم أفهم كلماته تلك أبدا "

حينها كنت أدرك تماما ما كان يعنيه نجيب .. فأجبتها و أنا قطعا أجهل ما ينتظرها :

" أتمني ألا تمري يوما بتلك الأمور التي ستدفعك لفهم ما كان يقصده والدك "

و بعد صمت دام للحظات عدت للحديث قائلا :

" كانت والدتك تعلم بحبي و كذلك والدك .. فهو أيضا كان قانعا بأي قرار ستتخذه هي ، لكن الرد جاء لصالحه و هنا كان دوري فقنعت أنا بذلك الرد ، كنت شديد السعادة أن صديق عمري قد حصل أخيرا علي حب عمره ، و إستطاع هو في حكمة شديدة أن يحول علاقة حبي لها لأمر لا يسعني أن أسميه بشئ .. ربما حوله لحب إنساني خالي من الرغبة و الشهوة ، و كما أخبرتك كنت قد أصبحت أحبها ليس لأنها إمرأة بل لأنها جزء من نجيب "

فنظرت إلي و قالت :

" و رغم ذلك لم تحتمل موتها "

فأجبتها :

" لا لم أفعل ، و لم أعلم أبدا ما سر الضعف الذي إعتراني حينها .. عشت عاما كاملا من الكآبة و الحزن .. كنت مرهق و مستنفز تماما ، و كان والدك أكثر تماسكا مني .. ربما من أجلك لا أعلم حقا .. لكن هذا ما حدث "

نعـم .. دفعني مـوت مـريم للهـروب بإتجـاه تحقيـق أحلامي ، و اليوم دفعني غياب تلك الأحلام للعـودة لمريم أخـري .. لـم تختلـف بشئ عن تلك المرأة التي أحببتها منذ سنوات طويلة .

كانـت نظـرات مـريم لي بتلـك اللحظـة غير مفهومـة .. نظـرات غامضة لا تخبر شئ .. و بدون أي كلمة أطالت النظر و قبل أن أهم بالرحيل قطعت صمتها لتقول :

" كنت أود في صغري أن أصبح مثلك تماما .. مؤلفة شهيره ، و لم يرفض والدي ذلك أبدا .. بل كان سعيدا جدا لهذا ، لكنني نشأت شاعرة بأن مصيري مرتبط بهذا المكان بشكل كبير فأدركت أنني أريد أن أصبح مثل والدي مجرد صانعة حلوي "

مددت يدي و أمسكت بيد مريم و رفعتها لمستوي نظري و قلت لها :

" كانت يد نجيب مميزة أيضا ، لم يكن والدك أبدا مجرد صانع حلوي ، نجيب إستطاع طوال حياته أن يفرق بين الواقع و الخيال .. بين المنطق و الوهم .. بين ما يريد و ما يحتاج ، و ربما أحبته والدتك لذلك .. فعلي عكسي تماما .. فأنا قضيت سنوات عمري أدور داخل دوائر متكررة بلا إنقطاع ، حيث ضاعت كل ملامح الواقع و المنطق ، و حيث إستهلك ما أكتبه حياتي .. فكأنني كنت أتواطأ علي نفسي "

نظرت مريم و إبتسمت قائلتا :

" لكن .. كان ذلك هو حلمك الذي حققته "

فأجبتها :

" نعم ، كان حلمي و أنا ممتن للخالق أنه أتاح لي تحقيقه ، لكن تعلمين أمرا لا أحد يعترف بالأحلام أو بكونها أكثر من مجرد أحلام ؛ و لذلك حين نري أحلامنا لا أحد يخبرنا ماذا يجب أن نخسر للحصول عليها ، و الأسواء أننا نكتشف ذلك بعد أن نصبح وحيدون تماما أمام الزمن "

فأخذت مريم تتساءل في هدوء عن تلك الأشياء التي خسرتها من أجل تحقيق أحلامي فأجبتها :

" كنت دائما أعتقد أنه والداي اللذان إعتبراني مجرد إبن عاق غادر البلاد و لم يعود حتي لموت أحدهم ، و صديقي الذي ظل ينتظر من لا يعود ، لكنني بعد كل تلك السنوات إكتشفت أن أسوء خسائري هي غربتي في كل شئ حتي في نفسي التي لا تعود "

عادت مريم للصمت و عدت أنا للتفكير في الرحيل ، و مرة أخري أثنتني عن قراري لكن ليس بسؤال تلك المرة .. بل بنظرات إمتلأت بالأسئلة حول عائلتي و رفضهم لأحلامي فقلت لها :

" الكل يقبلون الحلم إن كان بالتحليق بين السحاب .. أو لمس النجوم .. بالغوص في أعماق البحار .. أو عبور قارات .. أو أي شئ مستحيل أخر .. لكن ليس إن كان بكتابة قصة "

فقالت :

" بالنهاية ما الممتع في كتابة قصة ؟! "

نظرت إليها و أخذت أضحك بشدة ؛ فالممتع في كتابة قصة

أمـرا لا تدركـه إلا أثنـاء كتابـة قصـة ؛ لـذا فحتي أنـا لا أدرك تمامـا الأمر .. لكن أقرب إجابة كان يمكن أن أخبرها بها هي :

" لا أعلـم لكـن ربمـا ولادة قصـة .. فكـرة .. أو كلمـة .. أروع مـن أن يولد لك طفل جديد ؛ فبها أنت ذاتك تولد من جديد .. تتكون من جديـد .. تحيـا مـن جديـد .. و تعشـق مـرارا و تكـرارا لتجـد نفسـك داخل كل سطرا و كلمة إنسان جديد "

حينهـا إبتسـمت مـريم و فجـاءة تغيركـل شـئ فكأنمـا شـمس العـالم أشـرقت لـيلا ، و عنـدما لاحظـت مـريم نظراتي لهـا أخـذت تـدفعني للضحك بحركات وجههـا الغريبـة و كلماتهـا الطريفـة ، ثـم أدركت أنني كنت أحاول الرحيل منذ ساعات طويلة لكن الحديث معهـا لـم يسـمح لي بـذلك ، و حـين بـدأت هي أيضـا تشـعر بالرغبـة بالنوم بعد أن أنهكها طول حديثنا قررت الرحيل .. نهضت بسرعة قبـل أن يجـذبني الحـديث معهـا مـن جديـد و توجهـت للبـاب .. فتبعتني لتودعني ، و عند الباب و حين لمحت مفرق الطريق إلتفت إليها قائلا :

" تعلمين أنك فتاة لطيفة و مبهجة للغاية "

فأجابتني :

" غريب ظننت أنني فتاة مملة "

فسألتها عن سر هذا الظن فقالت ضاحكتا :

" الكل يظن ذلك حتي من ربتني .. السيدة تحية ، دائما تقول أنني أرتدي الأسود بإستمرار .. و أتحدث عن أمور غريبة .. و ذلك يبعد

الراغبين في الزواج "
فسألتها بهدوء :
" و هل تبحثين عن زوج ؟؟؟ "
فأجابتني بملامح هادئه و عين حالمة توجهها لمفرق الطريق و هي تقول:
" لا "
و صمتت للحظات ثم عادت لتقول :
" أبحث عن مكان أهرب إليه ، مكان أستطيع إيجاده حتي لو تهت عن نفسي ، أبحث عن الحقيقة خلف هؤلاء المنتظرون عند المفرق ، عن الحب حسب ما أظن ، ربما لا أفعل شئ لإيجاده لكنني فقط أنتظره "
إبتسمت و قلت لها :
" أعتقد أنك يجب أن تعيدي التفكير بمسألة الكتابة من جديد .. فأنت حقا جيدة في إختيار كلماتك "
ثم إبتعدت بضع خطوات خارج جوسيان و عدت للإلتفات لها قائلا :
" نعم نسيت ، ربما تكون مربيتك السيدة تحية هي المملة ، أنت أفضل من أن يحصل عليك شخص كمجرد زوجة ، أدعمك في إنتظارك بالتأكيد "
نظرت مريم إلي و إبتسمت إبتسامتا لم أنساها لسنوات تلت تلك اللحظة و هي تقول :

" شكرا "

ثم غادرت و نفسي تحدثني أنها اليوم وجدت ما تبحث عنه ، حين وجدت تلك الفتاة الشابة الجميلة بعد كل هذا العمر .. تلك الفتاة التي يصبح كل شئ أقبح عن قرب بإستثناء عينيها .. و ذلك الشئ الغريب بها و الذي يدفعني لأضيع فيها ، ذلك الذي يجعل نبضات قلبي تتسارع بقدر أنفاسي .. و يجعلني أكاد أري النور في الظلام حيث هي ، الشئ الذي دفعني لسنوات تلت ذلك اليوم أن أشعر أنني أتيت من حيث كنت لحيث أنتمي .. و أنا لا أدرك أن تلك الحسناء ستكون هي ذاتها سنيني الآتيات و لا أري كيف سيكون قدري في صحبة أحلامها ، كان هذا الشعور هو نتاج أخر لقاء لنا قبل أن تشعل تلك الشابة داخلي جراءة العودة للماضي .. حيث استطع ت أخيرا العودة بعد سنوات طويلة لنفس المكان .. الذي لم يصبح هو بعد رحيل أهله و لم أصبح أنا بعد هجري لهم .. حين دخلته علمت أنني و هذا المكان لن نلتقي من جديد فلن يعد لكلانا أثر ، و رغم أني كنت أعلم إنني سأعود في النهاية و أني حين أعود حتما سأكون وحيدا .. لكني أبدا لم أظن أنني سأعود لهذا السبب لأسكن منزلنا القديم .. منزل طفولتي و شبابي ، كل الأبواب كانت موصدة و صدئة فلم يقم أحد هناك منذ موت والدي فاحتاج المكان للكثير من العمل ليعود صالحنا للسكن ، إستخدمت غرفة والداي كغرفة نوم لي .. كنت أهدأ كثيرا حين أغفوا علي نفس الفراش الذي مات كلاهما عليه .. مات أبي و لم تحتمل أمي فراقه

ففارقة الحياة بعد اسبوع واحد ؛ و لهذا لم أعود .. حينها ظننت أن أسبابي للعودة قد إنتهت متناسيا إلحاح نجيب و إحتياجه لعودتي، كان البيت لا يزال دافئ تسكنه الذكريات .. تلك المنبعثة من الماضي .. من طفولتي و شبابي .. حين كنت أحلم إلي حد أن أعماني حلمي عن كل شئ سواه .. حتي عن أحبتي ، ظللت أحاول إسترجاع هذا الحلم في نفس الغرفة التي بداء منها .. غرفتي الصغيرة المطلة علي الطريق حولتها لغرفة مكتب حيث قررت أن أستجدي الكلمات ، و في ليلتي الأولي جافاني النوم و عجزت عن الرقاد فقررت إكمال تفريغ أغراضي بغرفة المكتب .. و أثناء محاولتي ترتيب مكتبي سقطت عيني علي النافذة أمام مكتبي لأتذكر أمرا لم يكن يعلمه سواي أنا و نجيب .. و هو أن نافذة غرفتي تطل علي غرفة نجيب و تكشفها تماما ؛ فلقد كانت أقل إرتفاعا من غرفتي و بزاوية تسهل كشف الغرفة دون أن يراني من بها .. و كذلك إستطاعت تلك النافذة كشف حائط جوسيان الزجاجي ، أدركت ذلك حينما رأيت أحد الملائكة يصلي بالغرفة ، كانت مريم و قد حصلت علي غرفة والدها و حولتها لغرفتها الخاصة ، فوضعت أمام نافذتها أريكة صغيرة معتكفة عليها كل مساء لتناجي الله بصوت هادئ يتسرب لغرفتي كبصيص ضوء يخترق ظلام ، أحببت سماعها كل ليلة قبل نومي و كأنني أسمع ترانيم ملائكية رقيقة ؛ فذلك الصوت كان يجلب الأحلام السعيدة ، فأصبح منزلي خالي من الحياة إلا تلك النافذة التي تطل عليها ؛

فلقد كانت نافذتي علي الحياة ... كانت نافذتي علي مريم ، و لثلاثة أشهر تلت ذلك الوقت لم تتركني مريم للحظة لا هي و لا السيدة تحية ، بل كانا خير عون لي علي إعادة كل شئ لأصله ؛ فقد نظمت مريم منزلي .. كل قطعة أثاث به و كل ركن بإستثناء غرفة المكتب فلم أسمح لأحد أن يدخلها و لا لمرة واحدة ، كانت السيدة تحية تعد الطعام كل يوم و تحضره بنفسها إلي ، و كثيرا من الوقت كنت أنا الضيف المستديم علي طاولة منزل صديقي المتوفي نجيب ، و بدوري أخذت أساعد مريم في إدارة جوسيان و إتمام بعض الحسابات لها ، و هنا نشأت بيننا صداقة مفعمة بالحب ، كانت مريم تري بي بقايا والدها الراحل و ذكرياته .. و شئ من شخصه داخلي ، و كنت أنا أري بها نفس الشئ و زاد عليه ذكريات من حبيبتي الراحلة ، و إستمرت تلك الصداقة الغريبة حتي ذلك اليوم .. حيث كنت أجلس لأنتظر حضور الكلمات .. أتوسل أن يمن الله علي بقصة .. أي قصة تقتل ذلك الفتور بيني و بين قلمي ، حينها طرق بابي في ساعة متأخرة من الليل و في صخب شديد .. لكنها لم تكن الكلمات بل كانت مريم ؛ التي أتت تطلب مساعدتي في إحضار طبيب للسيدة تحية ؛ فلقد أصابتها حمي شديدة ، لم أكن أعرف أي طبيب فأعطت لي مريم عنوان أحد الأطباء و الذي كان يعالج نجيب قبل موته ، و هي غير متيقنتا إن كان لايزال يسكن هذا العنوان أو لا .. لكنه كان الطبيب الوحيد الذي تعرف عنوانه ، توجهت مسرعا للعنوان لكنني إكتشفت أن الطبيب الذي كان

يسكن هذا العنوان قد إنتقل لمكان أخر بعيدا للغاية عن تلك المنطقة ، لكن الساكن الجديد قام بمساعدتي فوصف لي عنوان طبيب أخر ، و بالفعل ذهبت لإحضار ذلك الطبيب ، و برغم من الوقت المتأخر و الليلة الماطرة شديدة البرودة وافق الطبيب الشاب علي الذهاب لمنزل مريم ، كان شاب في بداية النصف الثاني من عقده الثالث .. خمري البشرة له عينين بنيتين و شعرا ناعم.. و فم كبير .. هزيلا و فارع الطول يتحدث بشكل متقطع و سريع ، ينحدر من عائلة ثرية بالإسكندرية يدعي ((رشدي الشازلي)) يعمل كمدرس في كلية الطب و أيضا كطبيب في احدي المستشفيات بالقاهرة ، و يخطط لفتح عيادته الخاصة بالقاهرة كذلك ، عند وصولنا لم يستغرق الكثير من الوقت حتي شخص حالة السيدة تحية و وصف لها الدواء ، حتي أنه قرر البقاء بتلك الليلة جوارها لملاحظة حالتها حتي الصباح و بالفعل لازمها لصباح اليوم التالي حتي إنخفضت درجة حرارة جسدها لتعود للوضع الطبيعي فبدأت في الإستجابة للمحيطين بها ، و قبل مغادرته المكان أخذ يوجه الحديث لمريم موصيا بالإعتناء بالسيدة تحية ، ثم أخبرها بأنه سيعود لمتابعة حالتها و الإطمئنان عليها مرة أخري ، كانت تلك هي المرة الأولي التي أري مريم منذ عرفتها تنظر لشخص بتلك الطريقة ، كانت عيونها مليئة بالحماس الشديد و كانت شديدة الإنتباه لحديثه .. تعلو وجهها إبتسامتا غريبة و كأنها قررت منذ اللحظة الأولي انه سيكون بطل قصة حبها الأولي ، و أنه سيكون الجسر

الذي ستعبر عليه من طفولتها للانوثة الكاملة .

لم تمر بضع أيام قليلة حتي بداء رشدي في التردد علي منزل مريم .. متابعا لحالة السيدة تحية حتي تعافت تماما ، و حينها شعرت بالراحة تسري داخلي فأخيرا و بشفاء السيدة تحية سأتخلص من ذلك الشخص ، و لم أدرك حينها سر ذلك الشعور ، لكنني كنت شديد الإرتياح لفكرة رحيله من حياة مريم بسرعة و قبل أن يصبح جزء منها ، و هنا حدث ما لم أكن أتوقعه شئ دفعه للإقتراب أكثر من حياتها بدلا عن المغادرة و هو مرضها ، فعلي الرغم من بنيان مريم القوي إلا إنها لم تكن تتمتع بمناعة قوية لذا سريعا ما إلتقط جسدها العدوي من السيدة تحية حتي أنها كانت أشد مرضا منها ؛ فأسكنها ذلك فراشها لمدة شهرا كامل ، شهرا لم استطع به منع رشدي من ملازمة مريم و الإقتراب منها أكثر فأكثر .. كل يوما كنت أراه يستحوذ علي عيونها المريضة و دون أي حوار يدور بينهما إستطاع ذلك الشاب فتح حوار بين عينيه و عينيها ، كنت أزداد إستياءا في كل يوم بسبب هذا القرب ، و أنا أتساءل عن أسبابي ، ربما كنت أشعر بالغيرة .. لكنني ظننت أنها غيرت والد علي فتاته الصغيرة من أحد الغرباء و خوفه علي قلبها البرئ ، لكن صوتا داخلي أخذ يعلو بطبيعة مغايرة لهذا الشعور .. فأخذت أكتم ذلك الصوت الصريح بداخلي و أكذبه حتي تعافت مريم ،و بذلك الوقت أخذت أشكر رشدي علي الإعتناء بها أملا بألا أراه مره أخري بالقرب من مريم ، و بتلك اللحظة بالأخص رأيت

بعينيه أمرا .. و كأنه كان يتمني ألا تشفي مريم أبدا ليظل هنا للأبد ، و هنا كرهته بشدة .. لكنني لم أكن أملك أسباب منطقية لهذا الكره و لا لدفعه للإبتعاد عنها ، و قبل أن يغادر رشدي المنزل نظرت إليه السيدة تحية قائلتا :

" لا أعلم ماذا أقول لكن نحن شديدي الامتنان لعنايتك بي و بمريم طوال هذه المدة .. و أرجو أن تقبل دعوة مريم علي العشاء غدا كدليل علي الشكر لتعبك "

حينها ضربتني الصواعق لسماع هذه الدعوة ، و عندما قبل رشدي الدعوة كدت أدفع به للخارج ، و في اليوم التالي ذهبت لمنزل مريم قبل الموعد بعدت ساعات إنتظر أن تخرج من غرفتها .. و علي غير العادة إنتظرت طويلا و لأول مرة تأخرت مريم في أعداد نفسها كأي إمرأة أخري ، و عندما أطلت من غرفتها أخذ شعورا غريب يتدفق و يتنامي داخلي فلم استطع التعرف علي مريم بسهولة ، إلا عندما تلاقت عينينا .. و لأول مرة أخذت أكتشف ملامح مريم و تفاصيل مظهرها ؛ فلم أكن أعلم أن شعر مريم بهذا الطول فمنذ رأيتها أول مرة كان ترفعه دائما ، كذلك لم أنتبه أن اللون الأحمر يناسب لون بشرتها الحليبية و إحمرار وجنتيها فيزيدها جمالا و تألق .. و كأنها وردة جورية إنعكس عليها ضوء القمر فجاءة ، راحت تلك الشابة بارعة الحسن تنظر إلي و تنتظر تعليقي علي فستانها الأحمر القصير مكشوف الذراعين و الصدر و الذي أبرز في خجل كل جميل بها ، مسببا في هدوء ذبول كل زهور العالم

حتي تلك التي وضعتها بنفسها في مزهريات المنزل ، لم أتذكر أن هذا المكان كان بهذا الشكل بالأمس ففجاءة إمتلأ بالورود و التبلوهات الجميلة و المفارش المطرزة ، و فجاءة ظهرت بعض قطع الأثاث التي لم يسبق لي و رأيتها بسبب الأغطية البيضاء التي كانت تغطي معظم أثاث المنزل منذ موت نجيب ، حتي أنني كنت أظن أن حوائط هذا المكان قد كانت مصبوغة باللون الأسود لكن في الحقيقة إكتشفت يومها أنها ليست كذلك ، حتي روائح الطعام الذي ملئت أركان المنزل كانت نفاذة و شهية ، و حتي السيدة تحية بدت مختلفة تلك الليلة .. فبدت لي و كأنها أم تحضر إبنتها الشابة لزفافها ، كنت شديد الإستياء و لا أعلم لماذا كل ذلك الإختلاف فجاءه ، و في الموعد تماما حضر رشدي و هو يحمل باقة زهور بيضاء أعطاها لمريم .. حينها لم استطع منع نفسي من إلقاء تعليق غير لائق قائلا :

"مريم أبدا لا تحب الزهور البيضاء ، إنها تفضل الزهور الجورية صاحبة اللون الأحمر القاني "

لكن و فجاءة أصبحت مريم تحب تلك البيضاء التي أهداها لها رشدي حتي أنها نزعت الزهور الحمراء من المزهرية و بدلتها بتلك البيضاء و هي شديدة السعادة ، و بعد العشاء ذهبت مريم لتحضير فنجان من القهوة لرشدي ، و بطريقة غريبة و عاجلة إستدعتني السيدة تحية لمساعدتها في نقل احدي قطع الأثاث للغرفة الأخري ، لكنني لم استطع إلا أن أقف بالخارج أراقب سرا

مـريم و هي تـدنو مـن رشـدي و تحمـل بيـدها المرتعشـتين فنجـان القهوة و الذي كادت تسقطه عشرات المرات و هي تقطع به مسافة مترا واحدا من المطبخ لغرفة الضيوف ، و عندما رأي رشدي مريم تقترب منه و هي ترتعش أسرع إليها ظنا منه أن المرض قد عاودها ، و بشكل مفاجئ مد يده ليلمس جبينها لكنها أبعدت وجهها بسرعة قبـل أن يلمسـها رشـدي ، فنظـر إليهـا مبتسـما و لـم يحـرك يـده فأخـذت مـريم تقترب بوجهـا تجـاه كفـه فلمسـت أطـراف أصـابعه جبينها .. عندها أغمضت مريم عيونها و هي ترتعد ، و بعد لحظات حرك رشدي أصابعه لتترك جبين مريم و تصل لخديها عمدا و في رفـق ، فإنتفضت تلك الشـابة لتسـقط مـن يـدها فنجـان القهـوة ، و بعدها أسرعت إلي الأرض لتجمع أجزاء الفنجان المهشم و كذلك رشدي تبعها محاولا المساعدة و أثناء ذلك لمس يديها فنظرت مريم لـه و نظر لها و لـم ينطق أيا منهما بكلمـة ، كان هـذا المشـهد بتلك الليلـة يبشـر بـأمر سيغير حياة مريم ، و كـذلك ذلـك الشـعور الـذي ملئني تجـاه تلـك الحسـناء كان ينـذر بـأمر أخـر سـيغير مـا بقـي مـن حياتي أنا ، عندما غادر رشدي بتلك الليلة لم يكن يملك أي سبب للعودة من جديد ، و كذلك غـادرت أنـا و لا أملك سـببا للغضـب .. لكنه كان غضب شـديد منعني النـوم ؛ فأخـذت أسـتجدي الكلمـات و الأفكار بأن تشفق علي رجلا في مثل عمري ، و تعـود لي لتسـاعدني علـي مغـادرة هـذا المكـان مـرة أخـري ... قبـل ان يصـبح رحيلـي مستحيل ، و أثناء ذلك كنت أراقب من نافذتي الطريق حتي أطلت

مريم من نافذتها الزجاجية ، مريم التي كانت الكلمات أقرب إليها مما كانت إلي ؛ فأخذت تكتب و تلك السعادة علي وجهها لم تغادرها .. و كم تمنيت ألا تفعل أبدا ، إستغرقت مريم في الكتابة حتي منتصف الليل .. و فقط شردت للحظات و بعدها لم أجدها في مكانها ، ظننت للحظات أنها ذهبت للنوم لكن سريعا شاهدتها تقف أمام باب جوسيان و تلقي بشئ داخل صندوق البريد عند المفرق ، بالطبع سيكون خطابا لكن كنت أتعجب من وقت إرسالها للخطاب .. ولم أكن أعلم من من الممكن أن تراسل مريم فلم يتبقي من أسرتها علي حد علمي إلا خالة والدتها وهي إمرأة عجوز تسكن دار المسنين و ترفض دائما زيارة مريم لها .. و دون ذلك لم يتبقي لها أحد في هذا العالم ، إلا أن السعادة العارمة التي كانت تعتلي وجه مريم بإرسال هذا الخطاب كانت أكثر ما يحيرني و يلفت إنتباهي ، تمنيت لو أعلم ما الأمر المهم الذي كتبت عنه و يستحق أن ترسله بكل تلك السعادة سرا في ذلك الوقت . مر هذا اليوم و قابلت مريم في الصباح لكنها أبدا لم تذكر أمر الخطاب و أنا لم أود إحراجها أو التطفل عليها فلم أسال ، لكنني لم أستطيع منع نفسي في الليالي التالية لتلك الليلة أن أراقبها متعمدا في نفس الوقت ؛ لأكتشف أنه لم يكن خطاب وحيد .. بل هو واحد من الكثير من الخطابات التي ترسلها مريم كل ليلة قبل نومها و في نفس الموعد ، و هنا أخذت أهتم أكثر بهوية ذلك الشخص الذي تراسله مريم سرا ، بعد عدة أيام كنت أتوجه لجوسيان فرأيت

رشـدي يجلـس داخلـه بصحبة مـريم ، و السـيدة تحيـة تقـدم لـه الحلـوي بنفسـها ثم غـادرت و تركته بصحبة مـريم ، أخـذت أراقـب هذا المشهد من خارج جوسيان و عبر الحائط الزجاجي و أنا شـديد الإنزعـاج ، و بعـد لحظات توقفـت مـريم عـن الحـديث حينها لمس رشـدي يـدها .. و برفـق و تناغمـا شـديد عانقت يـد مـريم يـده و هي تبتسم في خجل ، فإجتاحني طوفان من الغضب و الآسي .. و عدت لمنزلي مسـرعا .. أحـاول أن أهـدأ ضـربات قلبي المتسـارعة .. و هنـا أدركت اني اضعت قلبي فيها .. (تهانينا يا قلبي العزيز.. هـذا هـو الحـب مـن جديـد) ، سـاء شـعوري كل لحظـة أكثر و أنـا أعلـم أنـه بصحبتها فقررت الإبتعاد قليلا ، و لم أغـادر منزلي طيلة هذا اليوم ، أخذت أسال نفسي و بعد كل ذلك العمر .. هل حقا أعرف كيف يمكن أن يدرك الإنسان أنه يحب ؟! ، ظللت أفكر في إجابة لهذا السـؤال حتي إنتهي الليـل و أطل نهـار يومـا جديـد ، حينهـا فقـط أدركت أن الإنسان يكتشـف أنه يحب فقط عندما يسلبه شئ نومه طـوال الليـل و يؤرقـه ؛ ليفكـر في ذلـك العقـاب القاسـي المسـمي بالحـب ، و لا يـدرك أن الصـباح قـد حـل إلا عنـد سـماع صـوت الطيـور في السـماء .. و الباعـة المتجـولين في الشـوارع .. و زحـام الطرقات .. حينها فقط يدرك أن الحياة مازالت مستمرة رغما عنه و رغما عـن توقفـه عنـد هـذا السـؤال ، أدركت ذلـك لأنـه كان حـالي و ما شـعرت بـه ، و كمـا إعتقـد ما شـعرت مريم بـه أيضـا .. فكمـا أنـا لـم أنتبـه لصحوي الطويـل إلا في الصـباح .. كانت مـريم التي أرقهـا

ظمأ قلبها للحب فلم تغفو و لا للحظة ، و بمجرد أن رأت النور بدأت في إعداد نفسها للمغادرة ، و سريعا وصلت للمفرق حيث ظلت تنتظر كالزهرة الجميلة التي تنتظر من يقطفها ، كان ذلك غريبا لأن مريم أبدا لم تعتاد علي فعل شئ بالصباح سوي الإسراع لجوسيان لإعداد الحلوي .. لكنها اليوم لم تفعل حتي أنها لم تدخل جوسيان و لم تفتحه ، و لأول مرة منذ حضوري أري جوسيان مغلق هذا الوقت من الصباح ، ظلت مريم عند هذا المفرق لوقت طويل دون حراك ، تنتظر لساعة يدها بين لحظة و أخري .. حتي إمتدت ملامح القلق إليها ، و بعد ساعة كاملة من الإنتظار الذي لم تمله ظهر رشدي ، و بعد لحظات إختفت مريم ، و لطيلة ذلك اليوم لم أعرف شئ عنها .

عند المساء عادة مريم للمنزل في وقت متاخر .. و كانت هي المرة الأولي التي تتأخر مريم بها في العودة للمنزل .. بل أنني حتي لا أتذكر أنها سبق و غادرته إلا للعمل في جوسيان ، و كنت شديد القلق بسبب ذلك فقررت التحدث معها في صباح اليوم التالي .. لكنها سريعا ما ظهرت عند صندوق البريد لتلقي خطاب هذا اليوم ، و للمرة الأولي قررت الذهاب إليها لأكتشف ماذا يحدث ، و عندما وصلت لصندوق البريد كانت مريم قد عادة للمنزل ؛ فأصابني الغضب فركلت الصندوق بقدمي بقوة و كدت أعود لمنزلي إلا أن شئ إستوقفني و لفت إنتباهي .. شئ كشف لي السر الذي كنت أتوق إليه ، ذلك الصندوق الذي إعتادت مريم إلقاء الخطابات به

كان صندوق قديم متهالك يقف علي ثلاثة أرجل فقط .. و هو مصنوع من الصفيح الصدئ لذا لم يحتمل ركلة قدمي و سريعا ما إنفتح بابه السفلي ليسقط كم كبير من الرسائل التي علي حسب ظني لم يكن عامل البريد يستخرجها منه بالأصل ، عندما أمسكت بالرسائل إكتشفت أن المرسل هو شخص واحد و هو مريم .. إلا أن المرسل إليه كان العديد من العناوين .. استطعت من اللمحة الأولي أن أدرك أنها عناوين وهمية متناقضة في بعد الأحيان، خطابات تعود لسنوات بعيده ، حملت كل الرسائل لمنزلي لأعيدها لمريم في الصباح ، و عندما بدأت أتأمل تلك العناوين مرة أخري أدركت أن مريم ترسل تلك الخطابات لعناوين وهمية و هي تدرك ذلك ، ظللت طيلة الليل أنظر لتلك الخطابات و أنا أحاول منع نفسي من فتحها .. لكن ذلك لم يطول فلم تمر بضع ساعات حتي فتحت أول خطاب .. و هنا أدركت أن مريم ترسل مشاعرها و أحداث أيامها لغرباء يسكنون تلك العناوين الوهمية .. ترسل إليهم رسائل تعمرها بل سبب .. و ترسلها بلا مرسل إليه .. و لهذا السبب هي دائما هنا .. فلا أحد ليتسلمها ، لم أكن أعلم إن كانت مدركتا أن رسائلها لا تصل لأي مكان أم أنها تظن غير ذلك .. لكنني كنت أدرك جيدا السبب خلف رغبة شابة مثلها أن تحكي عن حال قلبها لغرباء لن تقابلهم أبدا .. غرباء لن يسمعوا منها مرة أخري .. و لن يدركوا أنها صاحبة تلك الأفكار و المشاعر حتي لو تلاقت عيونهم ، و في صباح اليوم التالي قد كنت قد إتخذت قراري بأن

أكـون أنـا هـو الغريـب الـذي يطلـع علي تلـك المشـاعر العشـوائية المليئة بالغموض .. و تلك الكوابيس المرعبة التي ترسلها مريم منذ وفاة نجيب ، أخذت أقرأ الخطابات واحد تلو الأخر بتسلسل تاريخ إرسـالهم .. و كمـا كانـت هـذه الرسـائل تحكي عـن مخـاوف مـريم و كوابيسـها إمـتلأت أيضـا بالطموحـات و الأحـلام .. و المواقـف الميلودرامية المضحكة و المبكية علي حدا سـواء .. و كـذلك ملأتها بالمصادفات و المعتقدات التي تكتبها ببراعة و تناغم و تكتم مطبق حول الأسماء ، كنت أتوق لمعرفة ماذا كتبت عني و ماذا كتبت عنه ، لكنني لـم أجـد أي خطابـا يـذكرني ، لكـن وجـدت خطابـا مـؤرخ بتاريخ الليلة السابقة لذلك اليوم كتبت به :

" و رغـم أنهـا المـرة الأولي التي أطلـب مـن أحـدهم أن ينتظرني عنـد مفرق الطريق .. إلا أنني أنا من إنتظر ، و أنا أشعر أني أعرف هـذا المفرق جيـدا .. ربمـا بسـبب إنتظار والـدي لي عنـد هـذا المفـرق في الماضي ، و رغم أنه الطلب الأول الذي أطلبه منه إلا أنه لم يلبيه و آتي إلي بحجة لتأخره علي موعدنا الأول ، كنت أنتظره في خوفا شديد من عدم حضوره ، و لم أكن أعلم ماذا كان يجب أن أفعل فلقـد كـان أول رجـلا يعـدني باللقـاء ، لكنـه لـم يكـن هنـاك حـين وصـلت كمـا وعـدني .. و تركني أنتظر طـويلا قبـل وصـوله ، لكنـه إسـتطاع أن يعـوض علي كل ذلـك الإنتظار و يجعـل مـن هـذا اليـوم واحدا من أروع أيام حياتي .. فهو اليوم المختلف الأول بالنسبة لي ، لم يكن يشبه تلك الروايات التي قرأتها طيلة عمري .. و لم يكن

حبيبي المنتظر فارسا علي جواد أبيض .. فقط كان مجرد رجلا إكتشفت أنني أحبه ، و علي أية حال أنا أيضا لم أكن أميرة فأنا مجرد فتاة تصنع الحلوي ، و مع كل ذلك كان لقاءنا أروع من كل تلك اللقاءات داخل كل الروايات العاطفية الخيالية .. و كان هو بالنسبة إلي أهم من أي فارسا ، حتي ذلك الجسر القديم الذي إختاره لنقطعه ذهابا و إيابا .. بدي لي و كأنه جسرا سيوصلني برفقته لأحد القصور ، لم تكن كلماته تشبه أي كلمة سبق سمعتها ؛ فلقد إستطاعت أن تخترق نوافذ روحي و مداخلها وصولا لقلبي ، و تلك القصص التي أخذ يرويها إلي ملأتني سعادة .. فهو مثلي يحب القصص و الروايات ، اليوم أنا سعيدة بلقاءنا الأول .. و غدا سأجعله أكثر سعادتا بلقاءنا الثاني "

شعرت بألم إمتزج بالغضب .. شعورا لم استطع تحديد سببه حقا ، هل لأنني أحبها ؟ أم لأن ذلك الوغد الأحمق لم يحقق أمنيتها ؟ و تركها تنتظر وحيدة لساعة كاملة ، و لماذا هي شديدة السعادة كونه يحب رواية القصص ، قد كنت منذ طفولتي أصنعها بنفسي كسهولة شرب كوب من الماء .

في اليوم التالي ذهبت لمقابلة مريم كالعادة في جوسيان و قبل أن أدخل لمحت مريم من خلف الحائط الزجاجي فإستوقفتني للحظات لأنظر لها ، كانت يانعة و مشرقتا للغاية تملئ ضحكاتها أرجاء المكان بهجة و سعادة .. حتي أن إلتماع ضوء هذا بدء كمجرد حزمة ضوء خافت بالمقارنة بها ، إعتقدت أن أي غزل في

تلك اللحظة سيكون عاجزا أمام وصف تلك الشابة ، أخذت أراقبها في صمت و هي تقدم الحلوي للزبائن و هنا دخلت لجوسيان فتاة صغيرة هزيلة الجسد بملابس ممزقة ، لا يبدوا عليها أنها من الممكن أن تكون أحد زبائن مكان مثل جوسيان ، عندما رأتها مريم أسرعت إليها و عانقتها ثم إصطحبتها للمطبخ و بعد دقائق قليلة خرجت مريم بصحبة الفتاة و هي ترتدي فستان جديد ، ثم أجلستها مريم علي احدي الطاولات و أخذت تدون بنفسها طلب تلك الفتاة ثم أحضرته لها و جلست تتحدث إليها و هي تأكل ، إستمرت مراقبتي لمريم من خارج زجاج جوسيان حتي إنتبهت لوجودي فأسرعت إلي و إبتسمت و أخذت تشير لي لأدخل ، و عندما دخلت و في صمت إستمر للحظات أخذت مريم ترمقني بنظرات أدركت منها أنها ستخبرني عن هذا العشق الذي غمرها و لشدة شقائي ستطلب العون ، و هذا ما حدث بالفعل .. أخذت مريم تروي لي عنه و عن تلك النظرة في عينيه ، كانت كالطفلة التي تروي لوالدها أول نجاح تحققه ، و بتلك اللحظة بالتحديد قررت أن أصمت .. أصمت للأبد ، فقط سأستمع إليها و أدعمها في أي قرار و في أي طريق ستسلكه ، بعد أن روت مريم الكثير من الأمور التي كنت قد سبق و علمت بها عبر خطابها إرتمت بشكل مفاجئ في أحضاني و لأول مرة ، كانت تضحك في سعادة و هي تقول :

" أريد أن أبقي معه للأبد "

ضممتها إلي و أنا أشعر بإحتياجها الشديد لوالد و صديق ثم

قلت لها :
" الأبد فترة طويلة للغاية .. أيتها الآنسة "
رفعت مريم رأسها من حضني و نظرت إلي قائلتا :
" الأبد ليست فترة كافية لمن نحب "
إبتسمت لها و أخذت أحذرها قائلا :
" تعلمين .. لم أطلب من أحدهم يوما أن يبقي للأبد .. فالأبد دائما كان يعني لي فترة طويلة جدا بحيث لن أستطيع أن أقضيها بصحبة شخص حتي إن كنت أحبه ، فأنا لن أقضيها فقط مع حبه .. بل مع أكاذيبه و ظنونه و عيوبه و أنانيته أيضا .. إن لم يكن يحبني بالقدر الكافي ، أتعلمين أمرا قابلت كثيرا من الأشخاص الذين كنت أود لو أمكنني أن أبقي معهم للأبد ، لكنني سريعا ما أدركت أن الأبد سيجعلني أكرههم بالتأكيد ؛ فهو كان سيضعف تلك القدرة لدي علي التغاضي عن كل شئ ؛ لذا لماذا أظل للأبد و أخسر حبي .. في حين يمكنني البقاء لفترة قصيرة و أحتفظ بهذا الحب ؟ "

نظرت مريم إلي و هي تهز رأسها و كتفها تعجبا من هذا الرأي و إنكارا له ثم أخذت تقول في براءة شديدة :
" لا أعلم .. ربما !! ، أتعلم .. أنت دائما علي حق .. لكن ليس في هذا الرأي في إعتقادي ، ربما علي أن أصبح أنا علي صواب هذه المرة "
نظرت إليها و إبتسمت قائلا :
" حسنا فلتنعمي بكونك علي صواب لهذه المرة ، لكن إحذري

و أتركي دائما مجالا للعودة من أجل تلك اللحظة التي تدركين بها أنك لم تكوني علي صواب "

لكنني إعتقد أن مريم لم تستمع لجملتي الأخيرة جيدا فهي كانت منشغلتا بالنظر لساعة يدها .. و بسرعة همت بالرحيل و هي تقول في عجلة :

" حسنا .. حسنا ، لا تخف "

حينها سألتها :

" إلي أين ؟؟؟؟ "

فأجبتني و هي تغادر جوسيان قائلتا :

" سأقابل الأبد "

ثم غادرت ، كيف لها أن تخبرني ألا أخف .. هذه المرة بالأخص كان يجب أن أخف ، لأنها كانت علي حق ، فالأبد كما قالت ليس كافيا لمن نحب .. لم يكن كافيا بالنسبة لها أو لي . لم يطل وقت رحيل مريم حتي غادرة الفتاة الصغيرة و معها علبة من الحلوي أعطتها لها السيدة تحية ، و عندما سألتها عن تلك الفتاة أخبرتني أنها فتاة ريفية فقيرة توفي والده فأرسلتها والدتها للعمل لدي أحد الأسر التي تسكن في الجوار ، و هي صديقة لمريم ، و في الواقع لم تكن صديقة لمريم و حسب بل كانت مريم ترعاها و تساعدها علي التعلم أيضا بدون علم تلك العائلة التي تعمل لديهم ، و هذه كانت مريم كما ظننتها .

عندما عدت لمكتبي أخذت أنظر لأقلامي و أوراقي في ألم

شديد .. أخذت أخاطبهم حول هذا العشق الجديد ، العشق الذي لم ياتي في أوانه ، نعم كنت أدرك أن هنالك أشياء تزدهر حتي في غير أوانها .. و الحب إن وجد يكون أهمها لكنني لم أكن أتمني حدوث ذلك ، فأنا كنت أدرك جيدا أنها إن إكتشفت أمر حبي لها سوف أخسرها و أخسر إحترامها لي للأبد ، و وسط كل ذلك التشتت لمعت بداخلي فكرة ، فأخذت أجمع كل حزني و مشاعري و مواقفي معها و أحداث حياتها حتي صغائرها .. و أمزجهم في بوتقة واحدة ، و بقرار لم أعلم و لن أعلم أبدا إن كان حكيما أو لا .. قررت إستخراج الجمال المستتر خلف قبح قصتي معها .. بكتابة رواية تحكي حياة تلك الشابة الجميلة .. حالها بذلك حال كل شئ مهم يمر في حياتي ، فلربما لن تجمعني بها تلك الحياة كما يتمني قلبي بحكم الكبر و الشباب ، و بحكم تلك المعتقدات الإجتماعية الشائعة ، و تلك النظرة التي توجهها إلي ، لكن بالتأكيد تستطيع الكلمات و الأسطر أن تجمع بيننا للأبد ، و رغم أني لم استطع طيلة حياتي أن أصبح مجرد جزء من قصص الأخرين .. إلا أنني معها أغلقت قصتي و قررت أن أحيا علي هامش قصتها ؛ فقط لتظل نصب عيني .

جمعت كل أوراقي و أقلامي و خبأتها مع كل ذكريات ماضيا .. و نسيت هويتي و أخذت أحفظ تفاصيل قصتها و أحداثها و أدونها بدقة و نهم ، فإستبدلت بذلك حياتي بحياتها و ماضيا بماضيها و أحلامي بأحلامها و مستقبلي بمستقبلها ، و إستبدلت نفسي بها

و نسيت معها من أكون و أين خبأت ذاتي ، كل ما دونته بقصتها حصلت عليه من نافذتها و خطاباتها و أحاديثها إلي ، فإستطاعت كل تلك الأمور مجتمعه أن تنسج رواية دقيقة الأحداث عنها .. لا تغفل شئ من حياتها و تفاصيلها و حتي حواراتها .

لم أكن أستطيع أن أدون عنها في تلك الفترة إلا السعادة ، و التي كنت أخشي زوالها ، فأنا كنت علي يقين أنها لن تحتمل فشل أول تجاربها .. في الوقت الذي تمنت به هي أن تكون أخرها أيضا ، كنت أراقبها كل صباح و أنا أنتظرها علي مفرق الطريق ، و كل مساء و أنا أترقب خطاباتها ، مريم .. كانت غارقتا تماما في أول قصصها بحيث عميت عن كل شئ سوي ذلك .

تنامي حب رشدي بداخل مريم ، في حين كنت أظن أنا أن هنالك شئ مفقود حتي أقنع بذلك الحب ، لكن هذا الرأي لم يعني شئ سوي لي و لذلك إحتفظت به و لم أنطق بأي كلمة .

لم تنقطع مريم عن رؤية رشدي و لا ليوم واحد .. فقد كانا رفيقا طريق متلازمين ، فكان هو رفيق روحها و شتات أفكارها كل صباح .. و كانت هي رفيقة سيره علي الجسر القديم كل مساء ، يتبادلا الحديث و الأحلام و حتي المخاوف ، حتي ضحكات مريم أصبحت مختلفة مشرقتا و جميلة ، و فجاءة أدركت أن كل شئ بمريم قد إختلف ؛ فأصبحت تأكل طعاما لا تحبه و ترتدي ألوان غير تلك المعتادة ، لا ترفع شعرها أبدا و لا تغفل وضع أحمر الشفاه ، حتي تلك الزهرة البيضاء التي كانت تعود بها كل مساء

لتدسها بين أوراق كتبها لم تكن نوعها المفضل في السابق .

بعد أقل من شهرين علي علاقة مريم برشدي أتت تحدثني عن قرار رشدي بإفتتاح عيادته التي أصبحت جاهزتا للعمل إلا أنه يحتاج للمساعدة .. و هنا قررت مريم مساعدته في إدارة و ترتيب مواعيد العيادة ، كنت أعلم أن فتاة مثل مريم عندما تتحول لإمرأة عاشقة ستخلف وراءها كل شئ .. حتي ذكري والدها و إرث عائلتها .. و تحيا فقط من أجل هذا العشق ؛ لذا لم اتفاجأ بقرارها و كنت أدرك بخبرتي ألا شئ سيثنيها عن هذا القرار.. و أخذت تفعل ذلك و كأنها قررت أن تتواطئ علي نفسها من أجل ذلك العشق ، كان صمتي مؤلما لكن البوح برفضي لأفعالها كان أشبه بالسقوط في الوحل .. فكلما نظرت لتلك الشابة كان يخيل إلي أن أخبرها بحبي و أن أبعدها عن العالم و أحميها من كل شر و إستغلال .. لكن كلمة عمي التي كانت تنطقها و نظرات الإحترام التي ترسلها إلي كفتاة صغيرة تنظر لوالدها العجوز .. كانت تمنعني من الإفصاح عن كلمة .. أي كلمة .. حتي كلمات التحذير التي كنت أدرك أنها لن تكون خالصة ، بل مبالغ فيها و ممتلئة بالإدعاء و الإفتعال لإبعادها عن رشدي ، و ذلك منعني من قول حتي الحقيقة ؛ لذا تركتها للتجربة عل ظني بهذا الطبيب الشاب يخيب .. و إكتفيت بمراقبتها و توجيه بعض الكلمات لها في هدوء قائلا :

" أرجو منك الحرس يا غاليتي .. يجب أن تدركي أنك تهي كل شئ ، و إذا ملك الإنسان كل شئ زهد و كفر بكل شئ "

فقط هذا ما استطعت إخبارها به لكنه لم يكن يفيد أمام رغبتها الشديدة في ملازمة رشدي و مساندته .. فإستمر الوضع علي ذلك لعدة أسابيع أخري .. مما أشعل غضب السيدة تحية و دفعها لتهديد مريم برحيلها إن إستمرت علي هذا الوضع و تلك الأفعال ، لكن مريم لم تدرك خطورة هذا التهديد و لا أهمية تلك الأشياء التي تخاطر بفقدها .. و إستمرت في تنفيذ قرارها فتركت كل شئ خلفها و فقط أخذت تدعم رشدي و تصنع منه طبيبا ناجحا ، ربما كان الكل يظن أنه كذلك بالفعل لكنني وحدي كنت أدرك أنه إن كان يملك النجاح الحقيقي لما إحتاج لمريم لهذا الحد ، و لما ضاع بدونها في كل شئ .. مواعيده .. أوراقه .. دراسته .. و حتي طعامه و ملابسه ، كل شئ أدارته هي بحكمة المرأة العاشقة التي نست نفسها فيمن أحبت ، كنت أحترق كلما نظرت من نافذتي و لا أجدها .. و أذكر أنها في تلك اللحظات تقف خلف أحدهم لتصنع منه رجلا عظيما .. في حين أقف أنا خلفها لاحافظ علي أن يظل جوسيان فقط علي قيد الحياة بعد أن أهملته هي .. فلقد أصبح و لأول مرة جسدا خالي من الروح فقط لأنها لم تكن به ، كل شئ فقد ذاته بغياب مريم حتي الحوائط و قطع الأثاث .. كنت أراها لأول مرة كجماد .. لا يشعر و لا ينطق و لا يخبر شئ .. حتي الحلوي داخله فقدة مذاقها .

في تلك الفترة كنت قد بدأت في التفكير بعمل لأمارسه ؛ فأنا لم أعد ذلك الكاتب المعروف بعد أن مرت أربع سنوات منذ أخر

قصة كتبتها .. و لم تحقق حتي النجاح المرجو منها ؛ لذا كان علي إيجاد عمل مصاحب للكتابة .. في بادئ الأمر أخذت أفكر بفتح مكتب للمحاماة ، لكن الفكرة لم تجد صداها داخلي بسبب أنني لم أمتهن المحاماة أبدا ؛ و لذلك إنصب تفكيري في النهاية بإتجاه الأمر الوحيد الذي لا يعرف عنه أحدا أفضل مني .. و هو الروايات .. لكن هذه المرة لم أفكر بها ككاتب بل كناشر ، فقررت البدء في دراسة أمر فتح دار للنشر ، لكن وضع مريم أخذ يشغلني بشدة حتي أقصيت الفكرة لفترة من الزمن ؛ لأستطيع البقاء بصحبتها ، و كنت أشعر أن ذلك التصرف مبالغ فيه فأخذت أقنع نفسي أنني مسئول عنها تماما بسبب صداقتي بوالدها ، لكن ذلك لم يكن السبب فعلا .. فلقد كان حبي لها .. و الذي كان قراري هو أكبر دليل عليه ؛ فأنا لم أقصي شئ من أحلامي أو أفكاري لصالح أي شخص طوال حياتي السابقة ، فكان طريقي الذي أسلكه هو الأولوية الأولي قبل كل شئ أو شخص حتي عائلتي و صديقي الوحيد .. لكن ليس مريم ، إستمرت مريم علي هذا الوضع لعدت أشهر أخري و السيدة تحية تزداد عزما علي تنفيذ تهديدها .. الذي لم يوقفه إلا رجائي لها و جعلها تصدق أن كل ما تمر به مريم أمرا طبيعي و ليس علينا إلا أن نرعاها ، لكنني لم أكن أعرف حقا إلي أي مدا يمكنني الإستمرار في هذا .. فحتي أنا كنت أعلم أن ما تفعله مريم بدء يخرج عن نطاق العقل و المنطق ، و لم أدرك أنها من ذلك النوع الذي يهدم كل منطق و عقل أمام قصة حبه ، ثم

أصبحت مريم بعد كل ذلك الوقت بصحبة رشدي لا تتحدث إلا عنه و عن أحلامه و إنجازاته العظيمة .. و هي لا تدرك أنها في حقيقة الأمر السبب الفعلي وراء كل شئ .. كل ما تروي عنه و كل ما تكتبه في خطاباتها عنه .. و للحظات شعرت أن قصتي ستتحول من قصة حياة تلك الشابة لقصة نجاح الدكتور رشدي ، و في أحد الأيام قرر رشدي زيارة مريم في جوسيان ... في ذلك اليوم ظنت السيدة تحية أن تلك الزيارة لها سبب واحد و هو طلب الزواج ، خاصتا أنه أشار لوجود أخيه في تلك الزيارة ، و هنا إنتهي غضب السيدة تحية .. و أخذت تعد كل شئ كما لو كانت متيقنتا مما سيحدث ، و عندما حان موعد وصول رشدي إنضممت أنا بدعوة من مريم للعشاء داخل جوسيان ، بدا رشدي في أول الأمر شديد التوتر بسبب وجود أخيه ((وحيد)) و تقديم مريم له ، وحيد كان شاب في الرابعة و العشرين من عمره لم يكن يختلف كثيرا عن رشدي حتي أنه كان طبيبا أيضا ، إلا أن رشدي كان يبدو أكثر إتزانا و رزانه ، أخذ شعورا غريب يتناما داخلي منذ اللحظة الأولي لوصولهما ؛ فأنا لم أكن منزعجا في حياتي من وجود أحدا كما كنت منزعجا في تلك الليلة من وجود رشدي و وحيد ، و رغم أن وحيد كان شابا لا يكثر الحديث .. و لا يمكن أن يحدد أحدا شعوره عبر تعابير وجهه .. إلا أنني استطعت ملاحظة تلك النظرة القوية التي أخذ يرمق بها مريم ، نظرة ود غريب أشبه بالحب لكنه نوع مختلف من الحب ، لم يدم بقاء رشدي و وحيد طويلا حتي بدأ

في إشعال غضبي و غضب السيدة تحية و حزن مريم ، حين أخذ رشدي يخبرنا بقرار سفره للخارج ، فلقد كان أحد المرشحين من قبل الجامعة لاحدي البعثات الخارجية لدراسة الطب في جامعة ميونخ .. و هي بعثة ستستغرق عاما كامل و سيكون السفر خلال شهر .. جمدت هذه الفكرة الدم في عروق مريم و هنا توقفت حتي عن التنفس في صمت لم يوقف رشدي عن إكمال حواره ، فأخذ يخبرها أنه أحضر أخيه وحيد من الإسكندرية ليدير عيادته الخاصة أثناء غيابه .. و هو يحتاج منها أن تساعده حتي يعتاد علي نظام العيادة التي وضعته مريم بنفسها ، لم تستطع مريم النطق بكلمة و فقط أومأت برأسها لقبول طلب رشدي و مساعدة وحيد ، و بعد عدة دقائق قتلها الصمت ببطئ شديد ، كان غضب السيدة تحية قد وصل لأوجه فغادرت الطاولة مسرعتا و ذهبت للمطبخ ، و أخذت أنا أنظر لمريم و هي لا تفعل شئ سوي النظر لرشدي و الذي أسرع هو أيضا في المغادرة بصحبة أخيه ، ظلت مريم بعد رحيل رشدي جالستا علي كرسيها للحظات قليلة و سريعا إنتقلت لتجلس علي ذلك الكرسي الذي كان يجلس عليه رشدي و هي مازالت متجمدتا تماما ، حتي أنها لم تجب علي ثورة الغضب العارمة التي إجتاحت السيدة تحية .. فلم ترد علي صراخها ، في تلك اللحظة وجدت أن من الأفضل أن أترك لكليهما مجالا للحديث فغادرت مسرعا لمنزلي ، و أجبر صمت مريم السيدة تحية علي التوقف عن الصراخ و المغادرة هي أيضا ؛ فهي لم تكن تنتبه

لما تواجهه من تعنيف ، و حينئذ بدأت أراقب مريم و هي تجلس في جوسيان وحيدة و قد إمتلأ عقلها الرقيق بالتوجس يتنازعها توجهان .. أحدهما الحزن لغيابه و الأخر السعادة من أجل تحقيق أحلامه .. كانت تلمس الكرسي بيدها و تحاول الإستغراق في الجلوس عليه .. لم استطع فهم ما تفعله مريم .. لكن جلوسها وحيدة لمدة طويلة قد دفعني للعودة إليها مرة أخري ، عندما دخلت لجوسيان هوي الباب بقوة محدثا صوت قوي لم تلتفت له مريم التي كانت شاردة الذهن بحيث إستغرقت بضع دقائق حتي إنتبهت لعودتي لكنها لاحظت بسرعة تعجبي من فعلها فنظرت إلي بعيونها التعسة و راحت تقول :

" عندما يغادر أحبابنا لا يغادر أثرهم من الأماكن بنفس السرعة ، بل تظل محتفظة بدفئ من دفئ أجسادهم لبعض الوقت ، كنت أظن في السابق أن ذلك يخص أبي وحده لكني الأن أعلم أنه أمرا يخص من نحب بشكل عام "

ثم أخذت تتحدث و تشتكي من الخوف ، فصغيرتي الحبيبة كانت تخشي الفراق و تخشي الألم و الحزن في بعاده ، كانت تخشي أن يمر العمر بدونه .. و كأنما خيل لها أن نظام الكون و نواميسه ستختل .. و ربما سينتهي الكون نهائيا إن إنتهت قصتهما ؛ و ربما كانت تظن حينها أن كل شئ خلق فقط ليدعم قصة حبها له .. و لم تدرك أنه عاجلا أم أجلا هنالك نهاية حتمية و نهائية لكل شئ .. دون أن يتأثر الكون و دون أن تختل موازينه ، فكل صباح

ستشرق الشمس حتي إن أغلقت جميلتي نافذتها .. و كل مساء سيطل القمر بصحبة النجوم حتي لو توقفت عن عدها ، و سيغرد كل فجرا طيرا في السماء حتي لو أصمت جميلة المحيا اذانها عن الكون .. و حتي لو عميت عيونها عن كل جميل سيستمر هذا الكون بالدوران في مساره دون أن يتأثر بوحدتها أو وحشتها التي ستحكم بها علي نفسها في بعاده ، لكنني لم أكن بالقسوة الكافية لإخبارها بكل ذلك و لم استطع إلا أن أقول لها مواسيا :

" أتعلمين .. أقوي شئ في الوقت أنه يمر و معه كل شئ أخر "

نظرت إلي مريم و هي تتنهد قائلتا :

" نعم أعلم .. و لكن لا شئ أخر يشبه غيابه "

(لا شئ أخر يشبه غيابه) .. أخذت أتعجب من تلك الكلمات و أنا أتساءل و هل يشبه غيابها شئ أخر ؟! ، لا شئ بتلك اللحظات كان سيتمكن من إقناعي بأن رشدي قد أحب مريم ، فإن فعل لم يكن ليستطيع البعاد بإختياره ، فإن قابل أحدا فتاة في مثل براءتها لما تركها للحظات تواجه تلك الحياة وحيدة بعد أن أحبته ، كان سر خوفي عليها في بعادها عنه ، يكمن في معرفتي أن مريم لم تكن تملك أحلام بقلبها إلا عن الحب .. و من بين كل الأسلحة بالعالم يظل الحب أخطر سلاح و ذلك مرعب للغاية .

في تلك الفترة كنت قد بدأت البحث عن موقع مناسب لدار النشر فكنت أتغيب يوميا لساعات طويلة ، و في أحد الأيام عدت لأجد السيدة تحية تبحث عن مريم و التي إختفت منذ الصباح

دون إخبار أحدا بمكان تواجدها ، أخذت أبحث عنها في كل مكان كان يمكن أن أجدها به حتي وصلت للجسر القديم و هناك كانت تقف مريم وحيدة بعد أن ودعت رشدي في المطار ، كانت تشبه ضوء الشمس المتكسر علي سطح نهر جاري .. هادي و رصين .. يخطف الأنظار ببريقه .. ترتدي ثوب أبيض فضفاض و وشاح حريري أحمر اللون يداعبه الرياح فيزعجها لكن ليس أكثر من الحزن ، إقتربت منها في حذر حتي لا تنزعج و وقفت جوارها هادئا دون النطق بأي كلمة ، و خلال لحظات أخذت عيونها تدمع و هي حتي لا تنظر إلي ثم قالت :

" اليوم فقط أدركت ألا يمكن لأحدهم إيلامنا مثل أحبتنا و فراقهم ، اليوم شعرت أني حمقاء فأنا لم أملك أي كلمات للوداع "

بسطت يدي ليدها المرهقة و أنا أقاوم رغبتي في ضمها ظلت صامته للحظات ثم عادت لتقول :

" كيف لم استطع قول شئ في أخر لقاء لنا ؟!! "

بعد تلك الكلمات صمتت مريم حتي عدنا للمنزل .. و حتي بعد عودتنا لم تنطق بشئ و أسرعت لغرفتها ، و أوقفت أنا السيدة تحية عن التحدث معها .. و طلبت منها أن تتركها وحيدة هذا اليوم ، في منتصف الليل و كعادة مريم أرسلت خطابها و حظيت أنا به كعادتي ، لم يكن به الكثير إلا أنه كان الخطاب الأول الذي تستخدم به تلك اللهجة الحزينة و التي ستلازمها لسنوات بعد هذه الليلة ، قالت به :

" أرجو ألا يجعل ما بيننا مسافات من العجز أقطعها وحدي ... يكفي هذا الكم من البعد الذي سيكون بيننا "

كانت تعتريني سعادة جلية و حتمية لرحيل رشدي و بعده لكنني كنت أخشي فكرة إنتظارها له ، و بالفعل إنتظرته طويلا .. إنتظرت أن يعود و يعيد إليها روحها التي إنتزعها معه يوم رحل ، كنت أخشي عودته بسبب حبي لها .. لكنني ترفقت بحالها و أشفقت علي تلك الجميلة التي أثرها البعد ، كنت أخشي ألا ترد إليها الروح أبدا ، و أكثر أن تظل بهذا المظهر الذابل و المتلاشي ؛ فلم يخلق الله إمرأة مثلها لتموت بتلك الطريقة أو لتحيا بها ، مريم التي تبدل حالها و إنطفأ ذلك النور بعينيها ، كنت أعلم أنه إن إنتظره الكل للأبد فلن يشبه ذلك إنتظارها له : فالكل حي حتي يعود و هي ميته حتي يحييها بعودته ، و ينقذها من ذلك النوي و هذه الغربة التي تمادت بها دون حذر؛ فهو من غادر البلاد و هي من عاش بالغربة .

و في أحد الليالي و حين كنت أستخرج خطاب مريم من صندوق البريد .. إكتشفت وجود خطابين لتلك الليلة .. لكن هذه المرة كان أحدهم لعنوان حقيقي و لمرسل إليه معلوم .. و هو رشدي فكرت كثيرا حول فتحي لهذا الخطاب لكنني لم أقوي علي فعل ذلك بها ، و في صباح اليوم التالي توجهت لمكتب البريد و قمت بإرسال خطابها إليه بنفسي.. و لم أعلم ما دافعي خلف ذلك حتي اليوم الذي رأيت به وجهها حين تسلمت الرد علي خطابها ؛ فكانت

كميت أعيدت له الحياة توا لمرة أخري .. حينها قررت أنني أبدا لن أقف عائق في طريق تلك الحياة .. و عملت علي إغراق هذا الحب بقلبي لحد الضياع ، أما عنها فقد أخذت تخفي أبواب قلبها و تتأكد من إغلاقها حتي لا يطرقها غيره ، و هي تعلم أنه يملك مفاتيحها إن لم يفقدها بإرادته ، و ظلت تنتظر يوم عودته ليسكن داره من جديد ، و مر الوقت و بدأت الليالي تصبح أكثر طولا و إرهاقا ؛ فصارت كالسنين في إنتظارها له ، هذا الإنتظار العبثي الخالي من الأمل لرجل كانت مريم قد قايضت إبتسامتها بإبتسامته فرحل فلم تعد تبتسم في غيابه أبدا ، و إستمر الأمر علي ذلك لشهورا طوال تغير بها شعور مريم تجاه الحياة .. رغم ذلك لم يكن أيان مما يحدث عائق في طريق مريم لتظل نفس الشخص الذي يسعد المحيطين به و يساعدهم ؛ فقبل أن أبدأ في الإحتياج إليها كانت مريم بجواري تساعدني علي إفتتاح دار النشر خاصتي .. و التي لسبب أدعي أني أجهله جعلت مقرها هو الطابق السفلي من منزلي ، فكانت في مقابل جوسيان تماما و صنعت واجهتها من الزجاج الشفاف فكنت أستطيع في كل لحظة أن أري مريم من حيث أنا ، و في يوم الإفتتاح كان كل شئ علي أكمل وجه فقط بسبب مريم و عونها لي إلا أنها إختفت بمجرد أن بدأت الحشود في التدفق ، و استطع فعل شئ سوي الإنسحاب للبحث عنها ؛ فلم تكن لسعادتي أن تكتمل أبدا بدونها ، حين وجدتها كانت غارقتا تماما في التطلع للسماء عبر نافذة غرفتها هائمتا في أفكارها فأخذت

أراقبها للحظات متعجبا من تلك الوحدة التي إختارتها تلك الشابة لتحي بها ثم قلت لها بهدوء :

" بماذا تفكرين حين تكونين وحيده ؟؟؟ "

فأجابتني و هي ممتلئة بالسلام الداخلي و قالت :

" لا أفكر أنما أنصت "

فإندهشت لردها فعدت لأسالها قائلا :

" و لأي شئ تنصتين ؟؟؟ "

فأجابتني و هي تتجنب الإلتفات إلي :

" لكل شئ الرياح .. الطيور .. السيارات .. الطريق .. البشر .. و حتي السماء "

فقلت لها مبتسما :

" و هل للسماء صوت ؟!! "

فأجابتني قائلتا :

" نعم صوتا قوي لا تسمعه الاذان لكن قلوبنا تفعل ؛ لذا أحرص علي الإنصات جيدا فسمع قلوبنا ضعيف وسط ضوضاء الحياة "

إبتسمت لها مرة أخري و إقتربت لأمسك بيدها قائلا :

" و ماذا تخبرك السماء يا غاليتي ؟؟؟ "

إبتسمت مريم و جففت دموعها المنهمرة بتكتما و عادت للنظر للسماء قائلتا و هي تتنهد بشده :

" لا يهم ماذا تخبرني السماء حقا "

ثم عادت للنظر إلي و قالت :

" آسفة علي تركك وحيدا في الحفل ، هذا اليوم هو لك لكنني إحتجت للقليل من الهدوء فقط ..و الأن يمكننا العودة لضيوفك "
عدنا للدار و كانت هناك السيدة تحية تهتم بالحضور فإنضممنا
إليها و قد لازمتني مريم لباقي الحفل ، ثم أتي إثنين من الصحفيين و أخذ أحدهم يسألني عن القصص و الروايات الرومانسية .. و الأحداث الغريبة بها و المبالغ فيها .. و هل من الممكن أن تكون قد إستندت علي أحداث واقعية فأجبتهم قائلا :
" ليس هناك رواية أشد غرابة أو إثارة أو رعبا من تلك الحياة الواقعية الطبيعية الأكثر مللا لأحدنا "
فسألني الصحفي الأخر قائلا :
" و هل تليق قصص الحب الواقعية بالكتابة ليقرأها الجميع ، و كيف يمكن سردها بطريقة ناجحة ؟؟؟؟ "
ضحكت بآسي بالغ و عيوني تسقط علي مريم و أنا أقول :
" الحب يليق فقط بالأوراق ، لتسرد قصة حب تحتاج للكثير من الأوراق لتمزقها .. و أقلام الحبر السوداء لتفرغها داخل الأوراق الممزقة ، و بلاد مترامية الأطراف .. ليلا و قمر .. قهرا و قدر .. و لتتحسن قصتك تحتاج لشابة في مقتبل العمر تمزقها تماما كالورق .. تذبل في هدوء و تبرد كالقهوة التي تستهلكها في كتابة قصة حب علي الورق ، ادفعها للبكاء .. للصراخ .. في صمت ادفعها للدجر ، إتركها تحتضر وحيدتا ندما علي رجلا غادرها

و رحل ، و الأفضل أن تجعل قصة حبها وحيدة الطرف ، و لتحصل علي قصتك المثالية أنهها نهاية أليمة .. بأن تفني عمرها هدر ، لتعانق في النهاية الموت في سلام بسعادة كبيرة ؛ فهي تحمل أملا فيما بعد رحلت القبر ، أنشر قصتك .. أحصل علي المال .. إشتهر .. و اتركها وحيدة تموت بقرار من مؤلف مضطرب "

كنت أعلم أن ذلك هو حال مريم منذ فارقت ، يغرقها المصير القاسي و يحرق أيامها طوفان من النئي ، عندما إنتهت الحفل غادر الجميع حتي مريم فجلست وحيدا أفكر بها ، و لا أدري ما نهاية قصتي معها ، وكانت تلك هي المرة الأولي التي أقف بها عاجزا أمام نهاية قصة ، لا يسعني أن أنهيها بأي طريقة .. فإن أنهيتها بمأساة لن يحتمل قلبي ، و إن ظننت أن نهايتها هي .. سأكون و بعد كل ذلك العمر رجلا واهما ، فقط كنت أدرك أن كل كلمة أكتبها عنها بمثابة عمرا أخر أحياه ، و لست قلقا إن كنت سأحياه في سعادة أو شقاء .. إن كنت سأقضيه معها لأدعمها و أرعاها و أحبها في صمت ، و بعد قليلا و بينما كنت شارد الذهن دوي صوت أمام جوسيان .. فهرعت للباب لأتأكد منه وجدت تلك الفتاة الصغيرة أمينة التي سبق و رأيتها مع مريم ، كانت تقف هناك أمام جوسيان تتجمد عند بابه و هي تنتظر لداخله عبر زجاجه .. و عندما أدركت أنه خالي جلست علي الأرض بجوار الباب تنتظر و هي ترتعد من البرد .. و ترتجف خوفا من هذا العراء المظلم ، لم أعلم ماذا يمكن أن أقدم لها إلا أن أجعلها تبيت بمنزلي حتي

الصباح و بالفعل قمت بذلك ، عندما إستيقظت باليوم التالي لم أجدها ، فتوجهت للتحدث لمريم و هناك كانت تلك الصغيرة بصحبتها ، تبكي طلبا لمساعدة مريم لتنقذها من أصحاب المنزل الذي تعمل به : فالمعاملة السيئة التي يعاملون بها تلك الصغيرة خرجت تماما عن حدود الإنسانية ، حيث إستبد الغضب بصاحب ذلك المنزل ليفرغه علي جسد تلك الصغيرة دون وعي منه و ذنب منها ، و هنا قررت مريم إعادة الطفلة لعائلتها و قررت أنا مرافقتها ، و بالفعل توجهنا لأحد القري الصغيرة و النائية التي تبعد عن القاهرة قرابة الساعتين ، كانت قرية يحيا أهلها في فقرا مدقع .. أغلب سكانها من الشيوخ ؛ فكل شباب القرية و أطفالها من ذكور و إناث يعملون في منازل الأثرياء في المدن المجاورة .. إلا قليلا ممن يعمل في فلاحة الأرض ، كان منزل تلك الصغيرة هو عش صغير من الخوص البالي تسكنه أم مريضة أشقاها الدهر .. و ثلاث أطفال صغار جميعهم تحت سن العاشرة كانت أمينة هي أكبرهم ، كل ذلك بالإضافة لوالد متوفي ، عندما وصلنا لم أكن أعلم ما تنوي مريم فعله إلا أنني كنت أكيدا من أمر تلك الشابة و العظة الأخلاقية خلف أفعالها ، و بالفعل ما إن جلسنا حتي مالت مريم برفق علي والدة الصغيرة و أخبرتها أنها سترسل لها شهريا مبلغ مضاعف لذلك المبلغ الذي كانت تتقاضاه الصغيرة فقط مقابل أن تحتفظ الأم بإبنتها و تدعها تكرس وقتها لتتعلم كما تشاء ، كما أنها ستتكفل بمصاريف دراستها هي و كل من يرد التعلم من

أبناءها ، بالطبع وافقت الأم علي ذلك العرض المغري أمل أن تنقذ أبناءها ، و غادرنا القرية و أنا شديد التعجب لأمر تلك الشابة المحسنة و التي لم أكن أدرك أنها تملك كل هذا القدر من المال ، و للحظة خشيت ألا تكون مريم علي قدر وعدها فسألتها عن مدي قدرتها علي الإلتزام بذلك الوعد لتلك الأم فأجابتني بأمر لم يكن له إلا أن يزيد حبي لها حبا قائلتا :

" اليتم .. الفقر .. المرض .. و مظاهر البؤس و الآسي الواضحة علي ملامحهم و في عيونهم .. هذا ما تملكه تلك الأسرة ، مصدرا للمال .. المستقبل .. و الصحة هذا ما أملكه أنا ، و كلا الحالتين وهبهما الله لنا فكيف أبخل بما وهبني الله علي عباده ، أبي ترك لي الكثير .. و ترك لي جوسيان أيضا لذا أظن أنني يمكنني أن أفي بوعدي طالما كنت حيه "

أخذت أفكر في تلك الحكمة و الإحسان في شخص مريم .. و أتعجب من أمر تلك السذاجة التي تملكها في الحب ، مريم التي كانت تظن أن والدها ترك لها مال كثير و جوسيان أيضا لكنني أدركت الأن أنه قد ترك لها أكثر من المال .. ترك لها قلبا عامرا بالرحمة و نفسا طيبه محبه و هذا ما يحتاج المرء أن يرثه حقا ، مرت أسابيع قليله ثم تلقت مريم إتصال هاتفي من وحيد أخو رشدي يطلب فيه مساعدتها بشأن بعض التفاصيل في عيادة أخيه ، و هنا بدأت مريم في التردد علي العيادة من وقت لأخر عملا بوصية رشدي بخصوص مساعدة أخيه ، لم أشعر بالإطمئنان

لذلك الأمر إلا أنني لم أشأ أن أثقل عليها ؛ فمساعدة أحد أفراد أسرة الرجل الذي تحب كان لها بمثابة السلوي و الذكري ، فأصبح حالها أفضل بقليل لكن ذلك لم يدم طويلا بسبب أفعال وحيد الذي أخذ ينتهز كل فرصة ليتقرب لمريم و لحياتها .. و كأنه أراد أن يحل محل أخيه في كل شئ عيادته .. عمله .. و حتي قلب مريم ، في بادئ الأمر ظنت مريم و كذلك السيدة تحية أن ذلك القرب بسبب توصية من رشدي ، أما عني فلم أكن أبدا غافلا عن تلك الرغبة داخل وحيد في الإستيلاء علي كل شئ و تأكد ظني في تلك الليلة التي صارح فيها وحيد مريم بإعجابه الشديد لها ، و هنا لم تستطع مريم أن تنطق بكلمه و قررت مغادرة العيادة لكن وحيد كان جادا حول رغبته بعلاقة تجمعه بمريم فظن أن رفضه ليس نهائيا و لذلك أسرع بالإمساك بيدها محاولا التقرب إليها و هو يخبرها بحبه الشديد .. لكنه لم يدرك أن أي قوة جسدية لأي رجل مهما كانت لم تكن لها أن تقارن بقوة إمرأة عاشقة .. لم تحتاج للكثير من المقاومة حتي إستطاعت الإفلات منه و الرحيل بعد أن صفعته صفعة أشعلت بها نارا من الحقد و الكراهية داخله عارا و غضبا ، عندما عادت مريم بتلك الليلة لم تكن راغبة في العودة لمنزلها أو حتي لجوسيان فطرقت بابي ، كان مظهرها لا يبشر بشئ جيد ؛ فحالتها المتدهورة الواهنة و تجمد الدموع في عيونها عجبا لما كان من موقف لم تلقه سابقا في حياتها ، روت لي مريم ما حدث و كنت أدرك تماما أن وحيد لم يكن ينظر لمريم كحبيبة لأخيه أو كصديقة

حتي ، بل كان يرها بعين حب مريب .. حبا دون إحترام رأيته في عينيه يوم إلتقيته أول مرة و لم أعلم حينها هل رأته هي الأخري أم أن عينيها كانت معلقتا في مكان أخر ، كما لم أكن أعلم سر تلك النظرة و من أين حصل عليها و تخيلت حينها أنه ربما يكون رشدي هو مصدر ذلك ، و خفت من أن تكون هذه هي الحقيقة فذلك أمرا كفيل أن يدمرها و يهدمها للأبد إن كان حقيقي ، و بدافع من شفقتها علي حالها أخذت مريم تتساءل عن سر ما فعل وحيد و تشكك في نفسها و تصرفاتها معه ، فأخبرتها أنها ليست مسئولة بالمرة عن أفعل ذلك الشخص و أنني أثق تماما في فضيلتها ، هكذا عادة مريم لمنزلها و لم تنم بتلك الليلة و كذلك أنا فعلت الشئ ذاته فأخذت أذرع الغرفة جيئة و ذهابا و أنا أراقبها في خوف و هي تشخص بعيونها للسماء و تضيعني بتلك الأصوات الحزينة التي أخذت تتعالي لتتسرب من غرفتها إلي و كأن ملك كان ينتحب ، رغم كل شئ لم ترغب مريم في إخبار رشدي بما حدث و قررت الإنتظار حتي عودته ، إستمر الحال لشهرين كاملين علي وضعه و في أحد الأيام حيث كنت بصحبة مريم بجوسيان مر عامل البريد أمام الباب فقفزت مريم تجاهه مسرعتا و هي تصرخ البريد ثم أوقفت عامل البريد لكنها عادت بعد لحظات خالية الوفاض حزينة صامته فنظرت لها السيدة تحية و هي نافذ الصبر تتأفف لحال مريم ثم قالت :

" لا خطابات اليوم أيضا "

حينها أومأت مريم برأسها و هي تنظر للأرض في إنكسار ثم غادرت للمطبخ ، و هنا أخذت أسأل السيدة تحيه عما يحدث ، فأخبرتني أن مريم لم تتلقي من رشدي أي خطابات منذ أكثر من شهر ، أخذت أفكر للحظات ثم أصبحت أكيدا من أنني أعدت إرسال كل خطاب له بنفسي ، و عندما لحقت بمريم للمطبخ كانت تعد الحلوي فوقفت للحظات جوارها صامتا ثم أخذت أصدم يدها عن قصد محاولا مداعبتها فنظرت إلي مبتسمتا فقلت لها :

" تبحثين عن خطاب لكنني أملك لك رواية كاملة جديدة ستكون من أوائل إصدارات دار النشر خاصتي و هي لكاتب شاب ؛ لذا فأنا أحتاج لرأيك في تقييم عمله "

إبتسمت مريم ثم عادت للخبز مرة أخري في صمت دام للحظات ثم قالت :

" بالطبع يسرني مساعدتك "

فأجبتها :

" لا أشعر بأي سرور في تلك الكلمات "

فقالت لي بشكل متقطع :

" أنا فقط ... أتعلم ... ما أبحث عنه شئ ليس له مثيل ... ما أبحث عنه ليس خطاب أو رواية ، أنا أبحث عن .... مكتوب ... مكتوبا رامي يريح النفس و يسكن قلبي حبا .. مثل الموت هادئ و مريح "

لم استطع فهم تلك الشابة و كيف تشبه الحب بالموت ، ما الذي يدفع شابة في مثل عمرها لذلك ، لم تتلقي مريم أي رد تلي

تلك الليلة إلا أنها لم تتوقف عن إرسال الخطابات و إنتظار الرد ، أما عن رسائلها للمجهول فلم ترسل شئ منذ فتره لعلها لم تكن تملك شئ لتقوله حتي تلك الليلة التي أرسلت بها خطابا تقول به :

" مثل الطفل الصغير قلبي في بحثه عنه .. و أنا أجيبه بكذب الأمهات (والدك سافر و سيعود بعد عام) لتمر الأشهر و مازال قلبي ينتظر إنقضاء العام ليعود ، و هو لا يبصر أنه كالميت لا يمكن أن يعود ، فكل تلك القصص التي رواها لي قبل مغادرته عالمي روي بها أن أحدهم يقف خلف الباب يلمس زجاجه و هو يذرف الدموع و في الجهة الأخري مغادر لا يلتفت خلفه ، و ظللت أتساءل دائما لماذا لا يروي أبدا عن شخصين كلاهما يقف بالباب يلمس يد الأخر .. فيتلاشي الوقت .. و يذوب الزجاج .. و يختفي الباب حتي رأيت قصته معي فعلمت أخيرا سر ذلك المغادر في الطرف الأخر من الباب "

كنت أراها تطل من نافذتها كل ليلة تراقب القمر وسط نجوم السماء بشغف شديد ، و ألمح في البعد بريق يملئ عينيها للحظات .. فأدرك أنها تذكرته و أن طيفه علي البعد داعب خيالها الحزين .. و أنها سامحته رغم كل الألم الذي خلفه حين رحل ليتركها وحيده .. و دون أن ينظر خلفه .. و دون أن يكترث لمن تركه سجين خلف الباب ؛ ليشعل بذلك السجن نارا بخافقها لن تطفئها كل أمطار شتاءها الطويل ، تجلس كل ليلة ترجو السماء أن ترسل شهابا ملتهبا للأرض لتخبره أمنيتها بأن يعود ، و لم أكن أستطيع

حينها أن أخبرها أن دعوات الشر لا تستجاب فكيف ستستجيب السماء لدعاءها بالسوء لنفسها الطاهرة الرقيقة ، وكنت كلما زادت دعواتها إزدادت أمنيتي أن يهجره النوم مثلما هجرها ليعلم لوعة ذلك القلب الذي تركه يتعذب وحيدا بنار الإنتظار ، و بعد دهورا إنقضي العام ، لم تكن مريم تعرف بأمر موعد عودة رشدي لكنها كانت أكيده من عدم عودته ؛ فهي دائما ما كانت تمر علي حارس العقار الذي كانت به العيادة و تتأكد أنه لم يعد ، و في ليلة رأس السنة الميلادية للعام ١٩٥٨م تلقت مريم خطاب من رشدي يخبرها فيه بموعد عودته و كان ذلك بعد أسبوع واحد من تسلمها للخطاب ، أشعل ذلك السعادة داخل مريم حتي أخذت تقفز و تصرخ فأخذت ضحكاتها تتعالي لتملئ كل مكان و قررت أن تذهب ذلك اليوم للمطار لتكون في إستقبال حبيبها العائد كما كانت في وداعه ، و بذلك الخطاب لم تستقبل مريم عامها الجديد و هي حزينه فكانت في تلك الليلة كما أتذكرها تماما عند لقائي بها أول مرة ، مر الاسبوع بالنسبة إلي كبضع دقائق أكره مرورهم .. أما بالنسبة لمريم فمر كعمر أخر من الإنتظار ، ثم حان موعد رجوعه في ذلك اليوم أتت مريم إلي و ظلت صامتتا للحظات و أنا أشعر أنها تود أن تطلب شئ و بالفعل و علي الرغم من أن مريم لم يسبق لها و أن طلبت مني مرافقتها لأي مكان يخص رشدي إلا إنها فعلت ، ظننت أنها كانت تشعر بالخوف فلم أرفض ، و إصطحبتها لمطار القاهرة لنكون في إنتظار رشدي ، لم تكن مريم أكيدة من موعد

الرحلة أو رقمها ؛ لذا إنتظرنا طويلا و مرت رحلة تلو أخري حتي أخذ الشك يتسرب إلي نفسي بأنه لن يعود في هذا اليوم ، أما هي فكانت تنتظره بأمل كبير أمل دون يأس و دون أن تفقد حماستها بلقائه و لو للحظة ، لكن أحدا لم يعود بذلك اليوم أبدا لا هو و لا هي ، و بعد إنتظار طويل قررت الإتصال بعيادته لكن لم تحظي بجواب ، و بعد كثيرا من التردد طلبت منها أن تخبرني برقم منزل عائلته و بالفعل كان توقعي في محله فلقد عاد الطبيب العظيم للبلاد منذ ثلاث أيام ، و قد قام بتقديم موعد رحلته دون أن يخبر مريم ، و في برود شديد أجاب علي الإتصال ، فأعطيتها الهاتف لتتحدث إليه فأخبرها بفتور تام أنه سيأتي للقاهرة بعد يومين للقاءها و التحدث معها في أمرا هام ، عندما عدنا للمنزل كانت مريم لم تزل صامتتا و في حالة صدمه و حيره .. يصدمها برود حبيبها العائد و يحيرها أمر اللقاء المنتظر ، و ظلت عيونها معلقتا بالباب ليومين متتاليين فقط تنتظر حضوره دون جدوي و دون أن تظن به الظنون ، كان حبها له أقوي من كل فكر يحوم في رأسها أو ظن و كنت أعلم أن تجربتها الأولي في الحب ستعني لها الكثير حتي لو لم يكن هذا حبها الأول حقا ، و كنت أدرك أن تقديم موعد وصول رشدي دون إخبارها له دلالة أعمق و أبعد من مجرد هذا الحدث .. لكنني لم أكن أعلم حينها أن المعني الكامن خلف فعله هو إشعال النيران في صدر غاليتي المحبوبة .. و رغم ذلك كنت أتمني للمرة الآلف أن يخلف رشدي ظني به .. رغم أني كنت أكيدا

أن ظني ما هو إلا يقين بنهاية تلك العلاقة و ذلك الحب ، أما بالنسبة لرشدي فذلك الشاب العائد من الخارج لم يكن يملك مقدار الحب البسيط و السطحي الذي كان يحمله ذلك المسافر منذ عام ، وكذلك لم تسلم من أذي وحيد و رغبته في الإنتقام من تلك الصفعة و ذلك الرفض الذي وجهته له ، فأسرع بنسج مكيدته التي تمثلت في إثارة نقاشا حول مريم و علاقة رشدي بها ، و تلك الفروق الهائلة بينهما مما جعل والديه يرفضا تماما أي محاولة لرشدي لإقناعهما بمريم أو إيجاد أي حل ، و دون أي رحمة بها أخذ وحيد يقنع أخيه أنه نظر للمرأة الغير مناسبه .. بل أنه برع آنذاك بألفاظ خادعة أن يقنعه أنه كان في علاقة بالمرأة التي لا يجب أن تتجاوز علاقته بها و وجودها في حياته كونها مجرد ممرضة في عيادته أو خبازة تعد الحلوي التي يشتريها هو و يدفع ثمنها ، و بالطبع لم تكن عند رشدي أي فكرة عن سبب ما يفعل وحيد فأرجي ذلك لخوف أخيه علي مصلحته ، و دون أي مقاومة و بسهولة شديدة سقط رشدي في شرك الفوارق الإجتماعية بين عائلته و بين مريم .. و بين درجته العلمية و درجتها .. و عمله و عملها .. فسقط فريسة كل فرق ليس حقيقي و ليس يهم حيث يكون الحب ، في حين سقطت مريم في العقاب القاسي للعرف ، و هنا لم يستطيع رشدي رفض قرار عائلته بزواجه من احدي بنات كبار عائلات الإسكندرية و التي كانت طالبة في كلية الطب و قريبة لعروس أخيه ، و لهذا السبب لم يحضر رشدي كما وعد مريم بعد

يومين بل طال اليومين لاسبوع كامل مما دفع مريم في النهاية للذهاب و السؤال عن رشدي في عيادته فقط لتتأكد أنه لم يصل للقاهرة ، فأخبرها حارس العقار أنه عاد لمصر لكنه لم يحضر للعيادة بعد ، و هنا كررت مريم محاولات الإتصال برشدي دون جدوي ، لم تكن مريم تبحث في كل هذه الإتصالات عن رشدي بل عن السبب .. كانت تريد أن تحصل علي كلمات تشرح لها كل ما حدث .. فقط لتستطيع أن تحصل علي القليل من السلام الداخلي الذي إفتقدته ، في ذلك الوقت قرر رشدي مقابلة مريم لينهي كل شئ ليستطيع أن يبدأ حياة جديدة ، أتي رشدي لمقابلة مريم و عندما رأته أسرعت إليه كإسراع اليوم للغد .. إلا أن رشدي لم يكن كما إعتادته فلم يستطيع نطق كلمة و لا حتي النظر بوجهها .. كانت مريم تدرك جيدا أن الصمت كالكلام تماما يملك ما يخبره ، لذا فلم يكن عليه النطق بشئ لتدرك ما أتي لقوله .. لكنها أيضا لم تستطع منع نفسها من النظر إليه و دفعه للنظر إليها بدوره قائلتا :

" رشدي ... لماذا ... أعلم أنك لا تملك شئ لقوله ... لكن لماذا لا تنظر لوجهي هل أصبح النظر إلي الأن خطيئة "

ثم رفعت مريم بأصابعها وجه رشدي لوجهها فأخذ يكتم لمسة من تأنيب الضمير لديه لينظر إليها نظرات باردة مملة .. نظرات مميته تسبق إعصارا من التصريحات القاتلة لها ، تلك التي أخبرها بها أنه سيتزوج أخري .. أخري مناسبتا لعائلته و لمركزه

الإجتماعي و علمه أكثر منها .. فبمقابل فتاة مثلها لم تكمل دراستها فحتي ذكائها لن يكون كافيا أمام إبنة العائلة الثرية ذات المكانة الإجتماعية و الشهادة الجامعية .. و تلك الثقافة الطبية التي صنعت منها شريك مناسبا لطبيب مرموق كرشدي .. و التي تضمن لهما العديد من العوامل المشتركة و الأحاديث المتبادلة ، في حين لن تملك مريم القدرة علي التحدث إلا عن نار الموقد و قوالب الحلوي التي لن تجعلها ترتقي لأكثر من ممرضة في حياة طبيب ينظر إليه بوصفه ذائع الصيت و بمثل علمه و وسط عائلة مرموقة كعائلته ، حينها نظرت مريم إلي رشدي و هي في صدمت شديدة و قالت:

" الأن أصبحت المسافة بيننا حقيقية ؛ فالبعد بهذه اللحظة يحول بيننا رغم أننا نقف متقابلين و هذا أمرا يجب أن أشكرك عليه أخيرا"

نفس منكسرة و خاطرا منفطر هكذا رحل رشدي و ترك مريم ليغادر هو و وحيد الذي كان ينتظره خارج جوسيان ، عادت مريم لتكمل عملها و هي تحبس أنفاسا و دموعا تروي الكثير عن الإنهزام ، ثم توقفت للحظات تنظر لكل شئ يحيط بها بنظرات كره و حقد حتي لتلك الأشياء التي تحبها .. و غاصت بنوبة من الغضب فأخذت تقذف كل شئ الأواني .. الأكواب .. و حتي حلواها الرقيقة لم تسلم من غضبها ، كانت ترمي بكل شئ دون أن يكبحها أي شئ و كأنها تصفع بتلك الأغراض جوسيان الذي مثل بتلك اللحظة لها

عـبء لا ينتهي ، و سـريعا تهـاوت مـريم تجـاه أرضـه تمسـح في ألـم شـديد عنها و عـن الحـوائط الملطخة أثار ما ألقت .. تجمع في رفـق شـظايا الأواني المتنـاثرة في كـل مكـان و كأنهـا تحـاول مسـح حزنهـا و جمع أجزاءها المبعثرة : لتعتذر لجوسيان عما بدر منها ، و سريعا مـا عجـزت عـن الإسـتمرار و لـم تسـتطع إلا أن تجـرح يـدها بتلـك الشظايا فألقتها بسرعة من يدها و جلست تبكي في ألم هذا الحكم الظالم .. و بصوت مرتفع أخذت تئن بمرارة شديدة أشك أنها بكت بحياتهـا السـابقة أمـرا كمـا بكـت بـذلك اليوم ، لمح أحـد العـاملين لـدي بدار النشر وضع مريم فـإقترب لجـوسيان فسمع صـوت بكائهـا و هنـا أسـرع إلي ، ركضـت نحوهـا مسـرعا لأجـدها علي ذلـك الحـال فضـممتها لـتجهش ببكـاء أكبر ممـا سـبق ، كنـت أخشـي أن تمتزج دموعي بدموعها فتدرك أنني أيضا بكيت حالها .

لـم تكـن تلـك اللحظـات تشـبه أي وقـت مضـي حتي أنهـا لـم يكـن مـن الممكـن أن تقـاس بمقـاييس الـزمن المعتـادة ، فبالنسـبة لمريم قد شابهت تلك اللحظات السنين في طولها .. و الليل في حلكة إظلامـه .. و البرد في قسـوته .. لـم أكـن أعلـم إن كانـت مـريم قـد أدركت تلك اللحظات بهذه الطريقـة أم لا لكن ذلـك مـا شـعرت بـه و هي ترتجـف في حضـني ، كانـت أشـد عيـوب مـريم أنهـا تقـف عنـد المنتصف تماما لا تميل و لو قليلا للطبيعة الشيطانية و لا للطبيعة الملائكيـة و هـذا جعـل منهـا بشـرية تمامـا .. هشـة و ضـعيفة رغـم عيوبها و ذنوبها لم تكن فاسقة ، و رغم طيبتها و صلاحها لم تصبح

قديسة فقط مجرد فتاة شابة فقدت الكثير ممن أحبت ، لكنها لم تفقد مثل ما فقدت بتلك الليلة فقد كان فقيدها هذه المرة أكثر من مجرد بشر أو شئ أحبته بل كان الأمل .. الأمل في غدها المجهول و في حقيقة تلك الذكريات التي تسكن عقلها و كيف عاشتها ، حين فقدت مريم الأمل أخذت تشك في كل لحظة مضت و كل لحظت آتيه لكنها لم تشك في أمرا واحد و هو علاقتي بها ، و هذا ما دفعها بتلك اللحظات للغفو بين أحضاني بعد ان أرهقها البكاء .. و بعد أن خبأت داخل أحضاني عيونها عن العالم ، و كأنها كانت تظن أنها حين لن تراه لن يراها هو أيضا ، فأخذت أجنب حبي و أقصيه و أستحضر للحظات حنان الأب الذي تحتاجه مريم .. لأضمها كما تريد و ليس كما أريد ، بقيت علي وضعي لعدت ساعات بلا أي حركة حتي لا أوقظها .. و هي تهمهم بنومها و تدمع فأحضنها أكثر ، حتي أتت السيدة تحية فأشرت لها بالصمت فأخذت تنظف الأرض حولنا بهدوء شديد و ظل الحال هكذا حتي إستفاقت مريم في الصباح لتجدني أضمها و السيدة تحيا تجلس جوارها و قد غلبها النوم .. فأخذت توقظها لتذهب لغرفتها ثم نظرت إلي و أخذت تتأسف علي تلك الليلة التي جعلتني أقضيها علي أرض جوسيان ، فنظرت إليها و أخذت أسالها عما حدث فنظرت إلي قائلتا:

" عندما ظننت أن الحب لا يموت .. مات الحب علي أعتاب الفوارق الإجتماعية ، كأنه لم يكن هناك حب من الأساس "

فأجبتها :

" مريم يا غاليتي .. الحب الذي قد يخذلنا ليس حبا "
فقالت لي و هي تملئ ضحكاتها الساخرة بالدموع :
" كان يعلم أني أعاني حين يغيب فرحل ؛ كي لا أعاني مجددا أليس هذا هو الحال ؟؟!! "

إلا انه لم يكن هذا هو الحال أبدا ، يقولون أن القلوب فقط ما ينكسر فينا حين نفقد الحب .. لكنهم مخطئون .. فكل شئ بنا حين ينكسر القلب ينكسر .. و لا يصل صوت ذلك الإنكسار لمكان سوي السماء ؛ فكل الذنوب ترفع لها و تغفر .. لكن كسر القلوب حين يصل لها لا شئ يغفره أبدا ، و هذا ما كان حين إنكسر قلب مريم ، في تلك الليلة كان خطابها ملئ بمذاق المرار و الآسي حين قالت :
" لم أشعل نيران حبه لكنها أحرقت قلبي .. و بدلا من أن يطفئها بعودته أشعلها أكثر ؛ ليقي نفسه برد الحرمان ، و بعد أن عاد ربيع أحلامه إليه رحل ليخلفني وراءه .. بقلب يصبو إليه و يحترق دون أمل بالإرتياح ، و عندما أحرق كبدي الحنين إليه قرر أن ينهي حبي .. و لعلمه أن لا شئ سيثنيني عن ذلك الحب بداخلي قرر أن يتولي هو الأمر بنفسه "

بعد ذلك اليوم عاشت مريم في ألم مذل قتل فيها كل الحياة ، فأضحت لا تبتسم .. و لا تتحدث تقضي كل أوقاتها في العمل بلا جدوي .. هائمتا و واهنة بحزين شديد ترتدي الأسود و تبعثه في كل أمر يحيط بها .. فحتي الزهور باتت سوداء حين رأتها عيون مريم

كـذلك ، خشـيت عليهـا و علـي قـوة ذلـك الوعـاء الـذي أصـبح لا يسـتوعب كـل تلـك الأحـداث المتـدهورة ، فلـم أنشـغل عنهـا بشـي و حتي إنشغالي بالدار لم يكن كافيا ليشغلني عن مريم .. مريم التي كنـت أراقبهـا في حـرص شـديد حتي بغفوهـا ، كانـت السـيدة تحيـة شديدة الغضب مما حدث متألمتا علي حال تلك الشابة الجميلة .. تـود لـو تخبرهـا في كـل لحظـة أننـا سـبق و قـد حـذرنها لكنهـا كانـت شـديدة الإشـفاق علي حـال قلبهـا المنكسـر فلـم تقـول أي شـئ مـن الممكن أن يؤذيها ، و بينما هي في هذا الوضع كنت أنا أفكر في أمرا يمكنه لو يريحها و لا أعلم ما هو .. حتي تلك الليلة التي أتت بها إلي السيدة تحيـة تطلـب مني مرافقـة مـريم لتقابـل محـامي ((السـيدة زينـب)) خالـة والـدة مريم فعلي مريم أن تتسلم أموال والـدتها من السـيدة زينـب بعـد أن باعـت أخـر أمـلاك العائلـة ، كانـت السـيدة زينب هي كل ما تبقي من عائلة مريم رغم ذلك لم تكن تراها أبدا خاصتا بعد أن أوكلت رعايتها في صغرها للسيدة تحية ، أنا أيضا لـم أري السـيدة زينـب إلا مـرة واحـدة في صـغري ، و قـد كانـت في شـبابها إمـرأة بارعـة الحسـن قويـة الشخصـية رغـم أنهـا لـم تحظي سـوي بقدر بسيط من التعليم في المنزل لكنها كانت شـديدة الدراية و الإطلاع علي أمـور الحيـاة ، و كانـت السـيدة زينـب تمتهـن تفصـيل الملابـس رغـم عـدم إحتياجهـا للمـال ، فكانـت تعشـق تلـك المهنـة و تؤديهـا ببراعـة و إبـداع ، و معهـا ربـت مـع ذلـك سـت أبنـاء .. و رغـم أن منهم مـن البنـات ثـلاث فـلا أحـد يشـبهها كمـريم في كـل شـئ قلبـا

و قالبـا .. تلـك الملامـح القويـة الجميلـة .. و العيـون السـاحرة المتحدثـة .. و طـول القامـة و الجسـد الممتلئ .. حتي أصـابع يـديها كانت تشبه أصابع يد مريم طويلة رشيقة و ناعمة .. بأظافر طويلة و محدده ، أذكر أنها أيضا كان الجمود يرتسم علي تفاصيل وجهها ، فكانت ترتدي الحزم رغم طباعها الرقيقة التي كانت تظهر جليتا في نظرت عيونها و حنوها المليئة بالقوة رغم عنها .. في حين تشتهي الألفة و تمتلئ بالحب و تنكره ، كانت معلقتا بمريم كثيرا منذ تلقتها عند الـولادة لتضمها في أحضانها بدلا عـن والـدتها .. لكـن السـنين كما الحال دوما تباعد بين المحبين ، فحتي إمرأة مثل السيدة زينب كان من الممكن أن تسقط فريسة للمرض و الحزن و الآسي و حتي الإكتئاب ، و الـذي دفعهـا لـرفض مـرات لا حصـر لهـا مـن محاولـة الإتصال بها أو زيارتها و ذلك بعد أن إنتقلت لتعيش في دار للمسنين ، فكانت ترفض بشكل خاص مقابلة مريم .. تلك التي أهملتها فهي رأت أنهـا كان مـن المفترض أن تكـون ضـمن مسـئولياتها التي أثناهـا الضعف و المرض عنها ، و زاد هذا شعورها بالذنب تجاه مريم بعد ان إستعدت كل تلك الـذكريات و الأفكار عن السـيدة زينب قـررت أن أذهـب للقاءهـا شخصـيا قبـل مقابلـة مـريم لمحاميهـا ؛ لمحاولـة إقناعها بمقابلة مريم ، و بالفعل قابلتها بعد عناء شديد و إصرار علي الـرفض ، حين قـابلتها رأيت إمرأة خفت أن تصبح مريم عليها في كبرهـا ، لـم تكـن خطـوط و جهـا و تجاعيـده هي السـبب بل تلك الوحدة و ذلك الألم الذي ترويها تلك الخطوط الغارقة في الحزن ،

أخذت أشرح لها وضع مريم و أروي لها عن قدر إحتياجها إليها بهذا الوقت ، كنت أتوقع قبول سريع لمقابلة مريم إلا أن الأمر كان أكثر تعقيدا مما ظننت ؛ فأنا لم أتلقي أي رد .. غادرت بعد أن طلبت إليها إعادة التفكير بالإمر ، عندما وصلت لجوسيان شاهدة وحيد يغادره فأسرعت للدخول .. فوجدت السيدة تحية تقف جوار مريم تنظر إليها بحزن و هي تجلس صامتتا علي كرسي تتكي برأسها علي ذراعه و تلقي بيديها لأسفله و هي تمسك بدعوي لزفاف رشدي ، لم ترفع مريم وجهها إلي إلا عندما إقتربت منها و مددت يدي لأرفع و جهها إلي .. فإنتابتها رعشة شديد تخثر لها دمي .. ظلت مغمضة العين لدقائق عده و أنا أحاول دفعها لفتحهما إلا إنها كانت ترفض و بشدة .. و كم كرهت تلك الطريقة التي تغلق بها عيونها بسبب الألم و لتمنع دموعها من السقوط ، بعد إلحاح متزايد فتحت مريم عيونها في النهاية لتسقط تلك الدمعة التي كانت تغلقهما عليها .. فقط لتمنع ما بقي من روحها من التساقط ، لم استطع نطق كلمة أنا أيضا ، لكن عندما إصطدمت عيونها بعيوني قالت لي :

" كنت أتمني ألا يدعوني لحفل زفافه فأنا لا استطيع أن أرفض طلبه لكنني لن أقوي أيضا علي شماتة الشامتين "

غادرت مريم مريم جوسيان لتسجن نفسها بغرفتها لليوم التالي .. و ظل هذا الوضع حتي تلقيت إتصال من دار المسنين يخبرني أن السيدة زينب تتوقع زيارتنا قريبا ، كنت شديد السعادة

لقرارها أمل أن يحدث هذا اللقاء فرق ينقذ مريم من الغرق في حزن محتم ، عندما أخبرت مريم بأمر هذه الزيارة لم تبدي أي رد فعل فقط سألتني عن الموعد المحدد للزيارة فأخبرتها أنه قرارها ؛ فحددت موعد للقاء في نهاية هذا الاسبوع ، مر هذا الاسبوع بالنسبة لنا جميعا ككابوس مؤلم ؛ فمريم لم تنطق بأي كلمة و لم تصدر قرارا بخصوص الذهاب لزفاف رشدي من عدمه ، كانت السيدة تحية ترفض أمر ذهابها للزفاف بشدة .. و أنا كنت أنتظر قرارها الخاص ، بعد مرور اسبوع ذهبنا علي الموعد للقاء السيدة زينب ، عندما دخلت مريم لغرفة السيدة ظلت تنظر إليها بتعجب و هي تحاول تذكر ملامحها كما كانت في السابق .. إلا أن الزمن أبدا لم يترك لأحد تلك الرفاهية .. فلم تجد مريم إلا السنين داخل وجه مرهق يملئه التعب .. لم يستمر الصمت طويلا حتي مدت السيدة يدها لمريم فعانقتها و أخذت في البكاء ، كنت أشعر بدفئ مريم داخل أحضان السيدة زينب و لا أظن أنها شعرت بذلك الدفئ سابقا ، جلست أراقبهم و أنا سعيدا لفكرت إرتياح مريم و بعد قليل بداء يتبادلا أطراف الحديث ، فأخذت كلا منهما تروي السنين للأخري .. فتارة تتعالي ضحكاتهما و تارة يغلب الصمت علي الكلام ، كنت سعيدا إني أري مريم تبتسم من جديد و أنا موقنا أن تلك الإبتسامة سوف تضيع في طريق عودتنا لجوسيان ، إنتهي اللقاء و قبل مغادرتنا جذبت السيدة زينب يد مريم إليها و أخذت تربت عليها برفق و هي تقول :

" صـغيرتي .. يجـب أن تـأتي تلـك اللحظـة التي تتجـاوزي بهـا مـا تشعرين به لتصلين لما تحيينه لذا فعليك أن تقرري إما أن تعودي للحيـاة أو أن تنتهي منهـا كأنـك لـم تكـوني .. عزيزتي أملـك نفسـك و اشـفها ، أخبرك بذلك و أسـتمع إليـه أنـا أيضـا ، عليـك أن تكـوني قويـة فأنـت تملكـين الكثير ممـن يحبونـك و ذلـك كفيـل بـدعمك و اعلمي أني أدعـو الله لـك و سـأظل أفعـل لأني أحبك .. و أنصحك ألا تهدري دعواتك علي ما لا يستحق ، أتمني أن يفرج الله كربك يا غاليتي "

عندما غادرنا كانت مريم شاردتا بهذه الدعوة التي لم تطلبها لكنها كانت في أشد الإحتياج إليها و فجاءة طلبت مني مريم أن أسير معها علي ضفاف النيل فوافقت بسعادة شديدة كانت تسير بهدوء تام ثم إقتربت إلي ببطئ و رفق لتأخذ ذراعي و تلف ذراعها حوله .. و بعـد دقـائق أسـندت رأسـها علي كتفي لنسـير كمـا العاشـقين في الطرقـات ، كنت أشـعر بسـعادة غـامرة ملأتني و تمنيت لـو أمكن أن تسجننا تلك اللحظة بها للأبد ، و لم يكن لشئ أن يفسـد سـعادتي تلك إلا معرفتي بأن مريم لم تملك نفس القدر من السعادة ، و بعد قليلا تنهدت مريم بقوة ثم قالت :

" تبا للأحلام المؤلمة .. الكوابيس المخيفة أفضل منها و أكثر رحمة "

صمت للحظات و أنا أفكر بردا مناسب ثم قلت لها :

"أتعلمين يا مريم..أفضل ما في الألم إنه يذكرنا بأننا مازلنا أحياء "

ثم صمت للحظات أخري و عدت لأقول :

" مريم كل شئ يمر "

فأجابتني :

" نعم كل شئ يمر .. لكن هناك أشياء تدمر قلوبنا حين تمر "

فربت علي يدها و أنا أقول :

" و لكنها في النهاية رغم ذلك تمر .. و حينها يستطيع الإنسان البدء من جديد .. ليعيد بناء نفسه و حياته ، أعلم أنك تظني أن ذكرياتك معه مهمه لكن يجب أن تعلم أنك إذا بدأتي بعد ذكرياتك سوف تتلاشي قيمتها "

لم ينطق أحدا منا بكلمة بعد تلك حتي عدنا للمنزل و قبل أن نفترق أخبرتني مريم بقرارها حول الذهاب لزفاف رشدي و طلبت مني إيصالها لحيث هو ، مرت عدت أيام و مازال قرار مريم قائما رغم رفض السيدة تحية ، حتي حان الموعد .. إرتدت مريم أفضل فساتينها ذلك الذي إرتدته في أول لقاء لها مع رشدي .. و رفعت خصلات شعرها إلا قليلا منها إنسدلت علي وجهها بنعومة و هدوء كالليل حين يسدل ستائره علي قمرا في ليلة إكتماله ، ظننت حينها أنني لم أشهد بحياتي جمالا مثل ذلك الجمال الحزين بتلك الليلة .. و كذلك لم أشهد إنكسار يقترب لذلك القدر ، فوق كل ما إرتدته مريم بتلك الليلة فقد قررت أن تتوشح بالقوة لتكمل زينتها .. القوة التي لم تكن تفيد أو تثني عن فكرت الغدر بعد إنتظار طويل لرجلا عاد لإمرأة أخري ، عاد ليسعد من لم ينتظر متناسيا ألم تلك التي إنتظرته طويلا ، و بحسرات و قهر لم تملك

غير مباركة زواجه الذي كاد يقطع أخر أنفاسها و هي تبكي يومه ، و برفق شديد تكرمت بخلق عال و منعت السيدة تحية من أن تدعو عليه بإنتقام الله ، و في صبر شديد أخبرتها ألا شئ في هذه الحياة يستحق الدعاء بإنتقام الله فهو إنتقام عزيز مقتدر .. و مهما كان أمر البشر فأخطائهم كضعفهم تماما خلق معهم .. ليسير جوارهم حتي القبر ، كانت تبكي بتلك الليلة و كأنها تقطر دما من عيونها و هي شديدة الإشفاق علي حالها مما أصابها ، و زاد ألمها رغبتها في أن تحتفظ بخلقها لأخر لحظة ، حاولت السيدة تحية اثنائها عن قرار ذهابها للزفاف فرفضت و هممنا بالرحيل ، عندما وصلنا لمنزل رشدي .. أخذت أنظر لمريم و هي تسير تجاه الباب ببطئ و تردد فتبعتها و مددت يدي لألمس كتفها لتلتفت إلي فهمست لها قائلا :

" هل أنت أكيده ؟؟؟ "

فأجابتني :

" لا لكنني سأفعل ، فقط إنتظرني أعلم أني سأعود سريعا "

و إبتعدت بضع خطوات ثم عادت إلي بسرعة و تنهدت لتهمس قائلتا :

" لست أكيده .. لكن أعتقد أنه من الأفضل أن أكون "

إبتعدت مريم عن ناظري لتختفي ببطئ بين الأضواء و المدعوين و انا اشيعها بعيوني و أفكر بتلك القصة التي جمعت

مريم برشدي .. و كونها لم تكن القصة التي وجدت لتحياها مريم .. و إنما لتتعلم منها أول قوانين تلك الحياة .

لفتت مريم إنتباه الكل بجمالها الأخاذ فظل الكل فاغري الأفواه فراحوا يحدقون بتلك الشابة المجهولة من قبل الكل بإستثناء رشدي و وحيد .. و الذي إستقبلها ليصطحبها للمباركة لرشدي و بالفعل قامت مريم بذلك ، ثم إنسحبت مريم لتجلس في أحد الزوايا وحيدة ، إقترب منها وحيد بعد لحظات ليطلب منها الرقص معه فلم ترفض مريم ، مد وحيد ذراعه ليلفه حول خصر مريم ليعصره كالأفعي التي تعصر جسد ضحيتها بحقد و غل مدقع ثم أخذ ينظر لعيونها قائلا :

" أنا و أنت من جديد مريم "

فتنهدت مريم برفق ثم عاد ليقول :

" أعترف .. فاجأتني شجاعتك فلم أتوقع حضورك .. و لم استطع تخيلك إلا تبكين خسارتك لترتاحي "

فأجابته مريم و قد إزدانت بكبرياء مؤلم :

" و من قال لك أن كل خسارة تستحق البكاء .. و أن كل بكاء يريح ، هناك نوع من الخسائر تعد مكسبا .. و نوع من الدموع لا يسقط حتي لا تسقط كرامة المراء و يجرح قلبه ، و هذا هو حالي .. و لكن ماذا عنك ؟؟؟ "

فأجابها :

" ماذا عني ؟!!! "

فقالت له و هي تبتسم :

" أما زال أثر تلك الصفعة يؤلم "

ثم نزعت مريم يد وحيد عنها و كأنها تنزع الأشواك من جسدها و غادرت الحفل مسرعتا ، عندما أتت إلي كانت باردة الأطراف ذابلة الوجه و العينين فأسرعت لضمها بقوة و أنا أردد :

" لم تخلق الزهور لتذبل و كذلك أنت ؛ فأنت هي زهرتي "

إبتسمت مريم للحظات ثم أخذت تتكسر بين يدي قهرا و تصف لي ألما وددت لو أستطيع نزعه من بين ضلوعها ، حكت عن غصة بمحل الروح .. و كأن طوق من الحديد المحمي إلتف حول عنقها .. و أن أحدهم خلف وراءه بالقلب غصن شوك .. و كأن كل رحمة في الكون إنتزعت و أن كل قسوة صاغتها كلمات هذه الشابة ، شعرت برغبتها في الصراخ .. لكنه كان صراخ أبكم بلا صوت عاجز عن إخبار ما بها ضممتها بقوة أكبر و أنا أقول لها :

" إبكي "

فقالت لي في ألم :

" و لماذا أفعل ؟؟!! "

فأجبتها :

" يقولون لولا الدموع لذابت الضلوع "

فرفعت عينيها إلي قائلتا :

" نعم و لكن لولا الدموع أيضا ما إنفضحت القلوب التي بين الضلوع"

أعـدت مـريم للمنزل بسـرعة و أنـا أعلـم أن اليـوم لـن يكـون هناك خطابا للمجهول ، إلا أن تلك المعرفة لم تمنعني من مراقبة صندوق البريد لعدت دقائق ، و قبل أن أغادر جاء صوت أوقفني .. كانت السيدة تحية و التي أخذت تسألني عما حدث مع مريم لكنني لـم اسـتطع أن أخبرهـا بشئ فأنـا بالفعـل لـم أكـن أعلـم مـا حـدث داخل الحفل ، فأشـرت إليها بيدي إشـارتا أفاضت بجهلي بما كان فنظرت إلي و عادت لتقول :

" ما الذي تراه بخصوصها "

فأجبتها :

" لا شئ سـوف ينتهي كل شئ عنـدما يحـين الوقـت ، مـريم فقـط تملك قلب ملئ بالحب لكن ليس لديها من يشاركها به .. و أنا أكيد أن ذلك سينتهي مع الوقت "

فأخذت السيدة تحية تنظر إلي بشكل غريب للحظات ثم قالت :

" و لماذا لا تفعل أنت ذلك إن كنت تحبها "

فتلعثمت في الرد و أنا أقول لها :

" ماذا .. لا .. لا أقصد ذلك النوع من الحب الأبوي ، أنا أعني حب الشباب والغرام ،و شابة مثل مريم بالتأكيد ستجده في المستقبل "

لكن السيدة تحية كانت تعني ما قالته حقا فهي كانت تعرف عن الخطابات التي أحصل عليها كل ليلة .. و عن إنتظاري لها عند مفرق الطريق ، و الذي عني بالنسبة لها الحب الذي أخفيته أنـا ظنـا مني ألا أحـد سيدركه ، لكنهـا أدركتـه .. أدركـت حـالي .. فكانـت

تعلم جيدا أني مبتلي بذلك العشق ، إلا إنني لم استطع أن أنكره أكثر حين قالت لي:

" أرجوك لا تنكر ذلك الحب .. لا تتخلي عنها أنت أيضا ، أنا لا أعتقد أبدا أن فارق العمر سيكون مشكلتا ضخمه .. حين تستطيع حمايتها من العالم ، أنا أبدا لم أتخيل أن أطلب ذلك منك .. لكنني لا أطمئن علي مريم إلا في وجودك لأني أعلم أنك تحبها بالفعل و هي كذلك "

نمت تلك الفكرة لدي السيدة تحية نتيجة خوف و قلق بشأن مريم لا أكثر ، لكنني لم أكن أفكر بالأمر بنفس وجهة النظر لذا أجبتها قائلا :

" نعم .. أحبها كراهب يسقط في الحب لأول مرة ، و نعم .. قبل أن أبدا كنت قد وصلت للمنتصف .. دون أن أدرك ، أحببتها .. ليس كما أحببت والدتها و إنما كما لم أحب إمرأة قط ، كنت أنتظرها كل ليلة و قد إتخذت قرار بأن أخبرها بحبي .. حتي أراها علي مفرق الطريق .. فتنظر إلي كما تنظر الطفلة لوالدها في حبا و إحتياج فأصمت من جديد .. و أكتفي بمشاهدتها تنظر لمفرق الطريق و هي تحترق ألما بوحدتها ، و أتساءل كيف ضعت بدموعها .. و كيف هو خوفي من ضياع أحلامها .. كيف إنتظرها كل مساء لأراقبها تبعث خطابات لغرباء لن يقرؤونها و عناوين لن تصل إليهم .. و كيف أشاهد في حزن حزنها القاتل يسلبها شبابها و يعذب شيخوختي ، و أتساءل كيف أحببتها رغم الوقت و رغم الفرق ، و في حين

إنشغلت هي بحب الشباب الخادع أخلصت شبيبتي إليها "
فنظرت إلي قائلتا :
" كنت سعيدة عندما رأيتك تحصل علي تلك الخطابات ليلة بعد أخري "

إنتبهت بقلق لما تقول السيدة تحية فصمتت للحظات ثم عادت لتقول بسرعة و قبل أن أنطق أنا بكلمة :
" لا تقلق أعتقد أن ذلك أفضل من ألا يقرأها أي شخص ، و أعتقد أن حقيقة أنك تحبها هي ما جعلتني أكثر سعادة أنك تشاركها هذه الأفكار "

و هنا طلبت من السيدة تحية أن تظل حقيقة حبي لمريم سرا لا تبوح به ما حيت ، كي لا أخسر حبها و إحترامها لي .. و لا تخسر هي شريك أفكارها المجهول ، مر الوقت و لم تستطع مريم تخطي الأمها بسهولة ، فكانت تدعي في كل لحظة إنها علي قيد الحياة .. لكنه كان مجرد إدعاء يخلوا من الحقيقة و ظهر ذلك جليا في كل شئ ، فمريم لم تكن تلك الكاذبة الجيدة التي تستطيع أن تعتنق أكاذيبها لتسير حقيقة ، بعد فترة ليست طويلة تم نشر خبر في احد المجلات عن مسابقة لصنع الحلوي و كانت الجائزة مبلغ مغري جدا .. و علمت من اللحظة الأولي أن مريم إن قررت الإشتراك بتلك المسابقة ستفوز بالمركز الأول و رجحت ذلك السيدة تحية أيضا ، إلا أن الأمر لم يجد صداه لدي مريم ، و بعد حوار طويل لإقناع مريم بالإشتراك لم يستطع أيان منا إقناعها بالمسابقة ؛ لذا

طلبت من السيدة تحية التوقف عن مناقشتها بالأمر و فعلت ذلك أنا أيضا ، غادرت السيدة تحية و هي غاضبة و بعد صمت طال للحظات نظرت إلي مريم و قالت:

" لماذا يجب أن أشارك بتلك المسابقة ؟! أنا لست في حاجة لمال إضافي"

فإبتسمت لها ثم قلت :

" ليس المال ، مريم .. أود إخبارك بأمر "

فأجابتني :

" ما هو ؟؟؟ "

فقلت لها :

" يجب أن تعلمي أنك أبدا لن تستطيعي أن تسبقي من تتبعي خطاه .. و كذلك لن تستطيعي تجاوز من تظلي عالقة في ذكراه "

فنظرت إلي بتعجب و هي تقول :

" ماذا يجب أن يعني ذلك ؟!!! و ما علاقته بالمسابقة ؟؟! "

فأجبتها :

" يعني أن تتجاوزيه بأن تتجاوزي مكانك ، أنت صانعة ماهره و تعلمين ذلك .. ليس ذلك فقط بل أنك تعشقين ما تقومين به .. لذا لماذا لا تقومين به أمام العالم ؟!! أم أنك نسيتي نجيب ؟!! "

لم تتوقف مريم بتلك الليلة عن البكاء .. و لم أتوقف أنا عن مراقبة نافذتها المضيئة و هي تطل منها و تدعو الله في ألما و إختناق سببه دموعها التي أغرقت أنفاسها تماما .. أخذت تهمس للسماء

قائلتا :

" ليتك يا إلهي أقررت بجرم الحب و حرمته فأرتكبه .. و أنا أكرهه ، و أحياه .. و أنا أحاول أن أتوب عنه ، و أتضرع لك لتغفره لي .. لا لتأتيني به "

ربما كانت مريم تهرب إلي عندما يكون هذا ممكن ، و تهرب إلي اليأس عند عجزها ، و إلي الخطابات عند ألمها ، إلا أنها لم تملك سوي الله حين فقدت كل مكان تهرب إليه و كل صبرا تحتاجه ، فظلت تبكي وحيدتا في جانب غرفتها المظلمة و تسرع في إسقاط دموعها ؛ لتسارع بالخروج للعالم بوجه قوي و تقرر بعد يومين أنها ستشارك في المسابقة ، و بالطبع كما توقعت حصلت مريم بسهولة علي المركز الأول عن قالب حلوي صنعته ليروي بمذاق مميز عن تفاصيل الحب و الحرمان و كذلك عن الأمل و الغد القادم ، لم تستطع مريم الحصول علي إسم مناسب لوصفتها الجديدة فسمتها بإسمي و كان ذلك أمرا مميزا بالنسبة إلي و إلي لجنة الحكم التي لفت إنتباهها إسم الكاتب المعروف علي قالب حلوي ، بعد هذه المسابقة أصبحت مريم أكثر سعادة حتي إنها إبتكرت العديد من الوصفات الجديدة و التي أضافتها لقائمة جوسيان ، و شجع ذلك السيدة تحية علي فتح باب الحوار في مسألة كانت قد أجلتها عدة مرات .. و هي زواج مريم ، فمريم قد تلقت عرض زواج من أكثر من شخص ، لكن مريم لم تصبح أكثر سعادة بهذا الحديث .. بل أعاد إليها ذلك حزنها القديم فظلت صامتتا و قد خيم الألم

علي ملامحها .. فنظرت إليها السيدة تحية قائلتا :
" يجب أن تقبلي هذا العرض ذلك الشاب فرصة لأي فتاة "
فتنهدت مريم فعادت السيدة تحية لتقول :
" كما توقعت أنت عنيده و لن تفكري بالأمر حتي ، هل يمكن أن أعرف سبب ذلك .. و لأي وقت ستظلي بهذا الوضع و لماذا هذا الوضع من الأساس "
فأجابتها مريم بكلمات متقطعه قائلتا :
" لا .. لا يهم .. لمتي ، و لماذا .. لا يهم ، كان أبي دائما يقول لي أن بعد سنوات من الحزن عادتا يضحك الإنسان علي ألمه ؛ و لذا فكل ذلك لا يهم "
نظرت السيدة تحية لمريم و قالت في غضب :
" نعم ستضحكين .. لكن بعد سنوات تقضيها وحيده .. و بعد أن يفوت الوقت و تنتهي فرصك "
غادرت مريم جوسيان و أتت إلي ، في ذلك الوقت كنت أعلم بأمر عرض الزواج و كنت أدعو الله ألا تقبله ؛ فمريم تستحق الحب و تستحق أن يكون زواجها نتاج هذا الحب ، فكنت أحمل لها عرضا أخر بدوري لكن كان يجب أولا أن أنتظر قرارها حول أمر الزواج ، عندما رأيتها إبتسمت لها قائلا :
" تماما كما الملائكة حين أفكر بك تحضرين إلي و تطوفين حولي .. بالأساس كنت سأبحث عنك فهناك ما أود التحدث بشأنه "
ظننت مريم حينها أني سأحاول إقناعها بأمر الزواج لكنني

سريعا ما أوضحت أني بصدد التحدث بأمر أخر فأخذت أقول لها :
" عزيزتي .. النهايات السعيدة أبدا لا تكمن في الأمراء .. بل تكمن حقا في تحقيق الأحلام "

فنظرت إلي و هي تبتسم مهمهمة :

"نعم أعلم .. فقط ظننت أن ذلك الحب سيجلب لي الأحلام السعيدة"

ثم أخذت تتنهد قائلة :

" ألا يوجد طريقة لمقاومة الحب و الرجوع عنه ؟؟!! "

إبتسمت لها بدوري و أنا أقول :

" الحب ليس المكان الذي يمكنك العودة منه أو الإنتصار عليه ، مريم إستمع جيدا لما سأقوله .. عزيزتي لا يجب أن يكون الحب غايتا ندركها بذاتها و إلا إستنفذ أعمارنا هباء ، ليحظي الحب بقيمته الحقيقية يجب أن يكون وسيلة لإدراك ما هو أكبر و أشمل من مجرد الحب ، و ليصبح وسيلة للوصول للغاية الحقيقية من وجودنا بتلك الحياة و بتلك الأسماء و الشخصيات و المواهب و العقليات ، و ليس للغاية أن تحظي بنهاية بل الأصل فيها هو البقاء و الإستمرار و النمو و الإرتقاء من منزلة لأخري أعلي منها و أشمل كلما مر الوقت ، و الحب يفتقر لهذه الصفات لكنه يحمل صفات الوسيلة التي يجب أن تكون نبيلة بقدر الغاية ، فكلما سمة الوسيلة و إرتقت كلما زاد سمو الغاية و إزدادت رقي و نقاء ، و أنت أحسنت الوسيلة فعليك الأن أن تدرك الغاية بسمو و نقاء

و رقي ، و تلك الغاية النقية و الراقية في نظري هي التعلم .. فمنذ اللحظة الأولي التي رأيتك بها و أنا كنت أتمني لو أمكنك إكمال ما ينقص منك و هو العلم ، مريم إن الإفتقار للعلم هو أشد أنواع الفقر ضراوة و شراسة و عليك أن تقهريه "

لاقت كلماتي صدي لدي مريم فلم تكن تلك الفكرة ببعيدة عن ذهنها ، و بعد عدة أسابيع إصطحبتها ليتم تسجيلها بجامعة القاهرة كطالبة في السنة الأولي في كلية الآداب .. و إختارت أن تدرس اللغة الفرنسية ، و لم يمر إلا بضع أسابيع أخري حتي بدأت الدراسة .. و في اليوم الدراسي الأول لم استطع منع نفسي من مرافقتها للجامعة فأنا كنت شديد القلق تجاه تلك الحياة الجديدة التي ستحظي بها مريم .. و علي قدر حماسي بفكرة إكمال دراستها كان خوفي من هؤلاء الذين ستقابلهم مريم في طريقها لذلك ، كانت مريم شديدة السعادة بما تتعلم و كانت طالبة مميزة و ملتزمه و كنت أنا أساعدها في إستذكار دروسها و تقوية لغتها الفرنسية ، وسبب ذلك لي سعادة جمة كونه أتاح لي المزيد من الوقت بصحبتها.

و في أحد الأيام إستوقفت مريم احدي زميلاتها في الكلية و أخذت تذكرها بنفسها .. ملاك .. ((ملاك أريال)) ، فتاة من أسرة يهودية كانت تسكن علي بعد شارع واحد من جوسيان قبل أن تنتقل و أسرتها للسكن بمنطقة المعادي ، و كانت زميلة لمريم في مراحل تعليمها الأولي فهما في نفس العمر تقريبا ، كانت ملاك فتاة

جميلة بشعر أشقر قصير .. بقوام ممشوق طويل .. و بشرة بيضاء مضيئة .. تحب إرتداء الملابس القصيرة مكشوفة الصدر .. تملك نظرات مغرية متلاعبة .. بتقاسيم وجه بارزة و حادة .. و ضحكات عالية .. تعمل كعارضة للرسم في كلية الفنون الجميلة و كذلك كعارضة للملابس باحدي دور الأزياء الشهيرة ، كان من المفترض أن تنهي ملاك دراستها الجامعية منذ ثلاث سنوات .. لكنها لم تكن مهتمة بالدراسة بالقدر الذي إهتمت به بما توفره الدراسة الجامعية لها من معارف و فرص ؛ و لذا فهي دائما ما ترسب في إختباراتها مما زاد عدد سنوات الدراسة ، أحضرت مريم ملاك لجوسيان لتتعرف علي ، لكنني لم أستحسن صحبة فتاة في براءة مريم لفتاة مثل ملاك .. إلا أن ذلك كان بالنسبة إلي في النهاية أفضل من أن تظل عالقتا بين صحبة في مثل عمري و عمر السيدة تحية و السيدة زينب ؛ فبقاء مريم مع ملاك ضمن لها التواصل مع من في مثل عمرها ، و بالفعل و بعد فترة قصيرة بدأت ملاك تصطحب مريم للحفلات و عروض الأزياء و السينما و المسارح و تساعدها علي إختيار ملابس تناسب عمرها ، و وسط كل ذلك التغيير كان ثمة شئ ينتهي بمريم ربما كان ذلك هو حبها لرشدي ، كنت سعيدا لأنها سعيدة و كنت أكثر سعادة عندما قرأت في أحد خطاباتها أن ذلك الحب أخذ يندثر حين قالت :

" و أخذت أكرهه في بطئ شديد .. لا يمكن أن يلاحظ وسط كل هذا الكم من الحب الذي كنت أحمله له ، كان صادقا حين أخبرني

أنه يستطيع دفعي لأكرهه و لكنني لم أظن أبدا أنني سأكرهه بهذا القدر من الملل و البرود ، فكما أحببته بشغف .. كنت أظن أنني سأكرهه بشغف ، و بنفس قدر الإثارة داخل مغامرة حبي له .. ظننت أنني سأحصل علي قدر من المغامرة في طريق نسيانه ، لكنه كما أنفق لحظات حبي ببرود ممل دفع بي لنسيانه ببرود ممل ، فهو ليس رجلا يمكن لإمرأة أن تحيا معه مغامرة في حبه أو كرهه ، و كما جلست لسنوات أنتظر أول قصة حبا أحياها لأفاجئ بعد فوات الوقت أنني و لكل تلك السنوات كنت أنتظر أول قصة خذلان و غدر .. لأتعلم أن الحب لا ينتظر فهو الضيف الذي إذا إنتظرته لن يأتي أبدا كما توقعت و لن يأتي أبدا علي قدر إشتياقك له ، و ها أنا أنتظر من جديد بنفس الطريق بطل قصة حبي الجديدة ليعوضني عن تلك القصة التي مزقتها هو"

أن تنتظر مريم بطل جديد لم تكن فكرة أتمني تخيلها لكنها كانت الأفضل بالنسبة لوضعها ؛ فأي وضع جديد هو أفضل لها من وضعها الحالي ؛ لذا فكنت أتمني لها أن تقابل شاب في مثل عمرها لتحب من جديد ، مرت الأيام و الأسابيع و كذلك الشهور و حتي السنين مضت .. و وصلت مريم لعامها الأخير في الجامعة عام ١٩٦٠م ، و مازال قلبي عامرا بحبها .. و مازالت تقصي نفسها عن الحزن بإستماتة ، و تشغل نفسها بالتظاهر بأن قلبها أصبح حجر ، حتي طلبت ملاك من مريم بعد مرور شهر علي بدء العام الدراسي مرافقتها لكلية الفنون الجميلة لحضور أحدي المعارض

التي كانت هي موضوعها الرئيسي ، و بالفعل رافقت مريم ملاك و بعد وصولهما ببضع دقائق إلتفت مجموعة من الأصحاب حول ملاك فأخذت تتلقي القبلات و العناق و التهاني فإنشغلت عن مريم ، التي أخذت تتأمل وحيدة لوحات المعرض و تتيه في تفاصيل الخطوط و الألوان و معانيها .. حتي إصطدمت بأحد الحوامل الخشبية فكادت تسقط لكن شخص ما أسرع و أمسك بها قائلا :

" هل كان السقوط من السماء مؤلم "

إعتدلت مريم في وقفتها ثم نظرت إليه قائلتا :

" ماذا ؟!!! "

فعاد ليقول :

" ألست ملاك سقط لتوه من السماء ؟؟؟ و كنت أنا هو سعيد الحظ الذي إلتقطه بين يديه "

حينها علا صوت يقول :

" لا ليست ملاك .. بل مريم صديقتي ، و لعلمك لا يوجد ملائكة غيري بهذا المكان أستاذ طاهر "

ثم أخذت ملاك تعرف مريم علي الأستاذ ((طاهر كُرأيم)) و هو أستاذ مادة التصوير الزيتي بكلية الفنون الجميلة ، كان طاهر شاب في نهاية الثلاثينيات من عمره .. حلبي البشرة .. يملك عيون رصاصية اللون .. و هو إبن وحيد لعائلة ثرية من أب مصري و أم إيطالية يسكن حي الزمالك .. قضي معظم حياته في السفر لأوروبا للدراسة و العمل في مجال الفن التشكيلي و كان هذا هو معرضه

الخاص ، لم يكن من الصعب أن تسقط أي إمرأة فريستا لوسامة طاهر و جاذبيته .. و تلك الهالة المضيئة حول فنه و تاريخه النسائي .. و ثقافته و جذوره المختلطة .. و حتي اسلوب حديثه و لكنته المميزة ، كان يملك كل شئ يمكن أن يصبح مصدر إلهاء و جذب لأي إمرأة قضت مريم بذلك اليوم وقتا مفعما بالمتعة وسط نوع جديد من البشر كان أكثرهم جاذبية لها هو طاهر ، الذي أخذ يرجو مريم أن تصبح موضوع معرضه الجديد .. فهي علي حد وصفه مختلفة عن أي عارضة تحضر للكلية أو لمرسمه الخاص ، و بالطبع لم يعني فقط ملامح وجهها بل براءتها و روحها ، حينها أصبحت ملاك شديدة الغيرة من مريم رغم أنها لا تقل عنها جمالا .. إلا أن ذلك السحر الساكن في عيون مريم .. و تلك الأنفاس الهادئة لديها جعلت منها إمرأة مختلفة في نظر الكثيرون ، إمرأة تلغي بهدوء و بساطة جمال كل شئ يحيط بها حين تمر غير مبالية ، في صمت تقتل غرور كل إمرأة أخري .. و تشعل غيرتها بنظرات الإعجاب من المحيطين بها ، كانت مريم مترددة حول مسألة جعلها محور معرض بأكمله فعرض طاهر عليها البدء بتجربة رسم لوحة واحدة و أصر أنها بعد تلك التجربة من سيطلب المزيد من اللوحات ، إستطاع طاهر إقناع مريم بالفكرة فأخذت بالسر تتردد علي كلية الفنون الجميلة للقاء طاهر ، و كانت هذه هي المرة الأولي التي تخفي بها مريم عنا أمرا و بعد عدة أسابيع قررت مريم و لأول مرة الذهاب بصحبة الجامعة في رحلة لمدينة

الإسكندرية ، لم أكن أشك في أمر وجوده بتلك الرحلة ؛ فأنا كنت أكيدا من سبب إقبال مريم علي تلك الرحلة .. حتي إنها تركت جوسيان لخمس أيام كاملة و ذلك أمرا لم يكن واردا إلا إذا إرتبط غيابها بامرا أكثر أهمية ، و ليس لدي شابة مثل مريم ما يفوق الحب أهمية ، فكانت هذه الرحلة فقط هي نقطة بداية ذلك الحب ، و من اللحظة الأولي التي بدأت بها الرحلة إعتري مريم شعورا بأنها لن تستطيع الإنخراط وسط باقي الطلاب فلم تكن تري منهم سوي قشور ذهنية فيها من اللامبالاة و اللهو و الضياع ما لا يتناسب و طبيعتها ؛ و لذا لم تستطع سوي التنحي بشخصها عن تلك الجلبة التي بدأت سريعا عبر أغاني لم تكن تشبه تلك التي تسمعها مريم و نشاطات لم تكن تمارسها أيضا حتي أحاديثهم لم تفهمها أبدا ، مر اليوم الأول و مريم تغرق في الوحدة حتي جاء المساء و هنا إلتقي طاهر بمريم علي شاطئ البحر و لا أدري إن كانت تلك صدفة أم أنه كان يراقبها ، إقترب طاهر من مريم بهدوء و حذر فلم تتبين وجوده و أخذ يراقبها و هي تراقب القمر في تلك الليلة الصافية ، و برفق بدء حديثه مع مريم قائلا :

" إن كنت أنت هنا فما هذا الذي بالسماء ينيرها ؟!! "

إلتفتت مريم لطاهر و لم تنطق بكلمة فقط إبتسمت بهدوء و خجل فعاد ليقول :

" مريم عليك فعل شئ لي "

فنظرت إليه و هي تسأل قائلتا :

" ماذا علي أن أفعل لك ؟؟؟ "
فقال و هو متجهم الوجه ليمازحها :
" أعيدي لي الشئ الذي سرق مني ، أعيدي .. ما سرقته "
تفاجأت مريم بتلك الكلمات و إضطربت فأخذت تقول :
" أنا ... سرقت ، أنا لم أسرق شئ بحياتي "
فأخذ يهمس لها و هو يمد يده ليمسك يدها قائلا :
" بل فعلتي ، الأن أعيدي لي ما سرقته ... أعيدي إلي قلبي "

إبتسمت مريم و هي تكاد لا تصدق تلك الطريقة الغريبة التي يتحدث بها طاهر .. فيحبس أنفاس كل إمرأة تحيط به و هو في قمة هدوءه ، لم تميز مريم حينها ببراءتها و قلة خبرتها أن تلك الطريقة هي أحد العلامات التي يملكها كل كاذب جيد ، في تلك الليلة سأل طاهر مريم أن تصبح حبيبته .. لكن مريم لم تجيب سؤاله و غادرت مسرعتا لغرفتها ، و ظلت طوال الليل مستيقظتا تفكر بسؤال طاهر .. و تغوص في خوفها من الدخول بالحب مرة أخري ، و في صباح اليوم التالي كانت مريم بصحبة ملاك يسيرا علي أحد الممرات الصخرية داخل البحر .. فدفعت ملاك مريم للماء ممازحتا و هي لا تعلم أن مريم لا تستطيع السباحة ، و هنا تقدم طاهر بسرعة ليلقي بنفسه داخل مياه البحر لإنقاذ مريم ، و حين أمسك بها و أصبحت بين أحضانه كانت قد أصيبت بنوبة خوف شديدة ، فأخذ يضمها طاهر حتي هدأت تماما ثم نظر إليها و قال :
" خائفة من الغرق .. أم من الإجابة علي سؤالي ؟؟؟ "

فأجابته مريم و هي تتمسك به بشدة قائلتا :

" كلاهما غرق .. لكنني أفضل أولا أن أخرج من الماء "

و بالفعل أخرجها طاهر من الماء و أجلسها علي الشاطئ و جلس جوارها .. كل ذلك و ملاك تراقب من بعيد .. ظلت مريم تنظر لطاهر مطولا في صمت ثم قالت :

"و لماذا أنا .. يحيط بك الكثير من الفتيات الجميلات .. فلماذا أنا ؟؟!!"

فأجابها طاهر:

" و لماذا لست أنت ؟!! مريم .. من الطبيعي أن يبحث الرجل في المرأة عن الجمال .. لكن ليس من الطبيعي أن يتوقف عنده ، و بك لا يمكن أن يتوقف أحدهم عند الجمال ، أما بالنسبة إلي فأنا لم أختار أن أحبك .. فالمرء لا يدخل للحب برغبته بل يهوي فيه مرغما "

نعم كانت تلك الكلمات هي حقيقة مطلقة ، فلا يمكن أن يختار الإنسان متي أو من يحب .. و بسبب ذلك هوت مريم بالحب مرة أخري بعد كل تلك السنوات ، بعد عودة مريم من تلك الرحلة و بمجرد أن أقبلت تجاهي ادركت أمر ذلك الحب الجديد ..

و تيقنت من عيونها مما لم تخبرني به ،عيونها التي عادت لتمتلئ بالسعادة التي حرمت منها لسنوات طويلة من اللاشئ ، فأخذت كل جراحها تندمل شئ فشئ في وجوده .. حتي خيل إلي أنها لن تكون حزينة بعد ذلك أبدا ، في تلك الأيام كنت أعد أنا

و السيدة تحية لحفل ميلاد مريم الخامس و العشرين و كان موافقا ليوم الواحد و الثلاثين من شهر يناير ، كان طاهر هو أول شخص دعته مريم للحفل ، و الذي ذهبت مريم قبل أيام منه لزيارة السيدة زينب .. و عندما عادت ألقت بخطابها تلك الليلة و هي تكاد ترقص فرحا .. في حين كاد قلبي أن يتوقف قلقا عندما قرأته أنا و به قالت :

" اليوم أخبرتني جدتي أنها تري الحياة تعود لعيوني بعد وقت طويل ، جدتي تلك المرأة التي أنظر إليها فلا أري سوي تجاعيد وجهها المخيفة .. التي تحكي في حزن أفعال الزمان ، و اللمس يدها فأشعر بالعجز الممتد لأطرافها الهامدة و قوتها التي أهدرها الدهر في خدمة أبنائها .. و تلك اللعثمة في كلماتها القليلة .. و عودها الجاف الذي أحرقه التعب ، و تلك النظرات الهائمة في عينيها .. تبحث في زمن غير زمنها دون جدوي عن شئ فقدته منذ سنين ، دون أن تدرك تنادي كل مساء بإسم الرجل الوحيد الذي أحبته .. و هي تكاد لا تذكر أنها لم تمضي معه عمرها أبدا ، و فجأة تطل علي إبتسامتها الهادئة كبريق ليلة طويلة من الوحدة و الإشتياق لحبيب غائب .. و كالطفلة الصغيرة لا تملك أسنان لكنها مازالت تبدو جميلة و دافئة رغم أنها ترتعش بردا .. أنظر إليها و كأنني أنظر في المرآة لأري نفسي و لكن بشكل أفضل ، و لأدرك في النهاية أنني لا يمكن أن أكره الحب أو أن أعتزل السقوط به مرة تلو أخري ؛ أملا أنتظر ليأتي لي بالحقيقة في يوما ما "

كنت أخشي عليها من الحب بقدر ما أدعو لها بأن تحظي به رغم الألم الذي ستخلفه لقلبي .. إلا أنني سأكون سعيدا فقط حين تكون هي .

جاء يوم ميلادها وكانت أشد تألقا من نجم السماء بالليلة الظلماء منير وهادئ رغم وحدته ، بذلك اليوم أهديت مريم اقة زهور بصحبة أول رواية تصدرها الدار.. وهي رواية لي كتبتها في الماضي لكنني لم أنشرها ؛ بسبب نجيب .. فبتلك الرواية كنت أعشق مريم .. لكن ليس مريم نجيب .. وإنما مريم التي نشأت بصحبتها .. فكانت هي حب طفولتي وشبابي ، ورغم ظني أن تلك الرواية يمكن أن تكون هدية مناسبة لمريم لعلاقتها بوالدتها التي لم تراها أبدا إلا أن ذلك لم يكن صحيح ، فهديتي لم تعني لمريم شئ حتي أنها لم تنتبه إليها أو لأي شئ أخر فلقد كانت شديدة الإضطراب بسبب تأخر طاهر ، وحتي إنقضي نصف الحفل ظلت مريم علي هذه الحالة حتي لمحته يقترب من جوسيان فوثبت في لهفة لتهرع إليه في شغف وحماس شديد حتي كادت تلقي بنفسها علي صدره ، أما أنا فقد كنت أكثر توترا من أن أحظى بالراحة فلقد فقدت طمأنينة قلبي منذ رأيته ، كانت سعيدة بلقياه لدرجة أنها ظلت ترقص معه طيلة الليل ولم يكن ذلك يرضي السيدة تحية وكذلك ملاك .. التي إشتعلت غيرة وغضب ، أما بالنسبة إلي فشغلني ذلك الأمر المميز بطبيعتي كوني مؤلف .. وهو أني دائما أعلم أن للقصة شق أخر يملكه الطرف الثاني من القصة وذلك

ما يغفله العامة عادتنا .. و هنا أخذت أتساءل ما الشق الخاص بهذا الشخص و الذي تغفله مريم ، عندما إنتصف الليل تركت مريم الحفل لتهرع إلي غرفتها و منها لصندوق البريد لتعود سريعا لطاهر ، و كحالي الدائم تبعتها بخطي مضطربة لأحصل علي خطابها الذي كتبت به جملة واحدة تعني الكثير:

" يشبه أبطال الروايات المثاليين .. ملئ بالقصص و الأحلام "

و خطر إلي أن علي تحذيرها فالبطل المثالي الكامل ليس لديه قصص ليرويها ، فحروبه جميعها مع عدو واحد و هو من يكرهه من البشر ، أما ذلك الإنسان الناقص صاحب العيوب و الأخطاء فيملك الكثير من القصص التي يصنعها أعدائه المتعددين ، فحين يحارب من يكرهه يملك قصه .. و حين يحارب من يكرههم يملك أخري .. و هكذا بكل عيب يملك حرب تخبر قصة مختلفة ؛ و لذلك فإن كان طاهر يملك العديد من القصص فهو بالتأكيد ليس شخص مثالي كما تعتقد مريم .

قبل أن أعود للحفل إستوقفتني السيدة تحية و هي تخبرني أنها لا تطمئن لذلك الشخص و تود لو أمكنني إنهاء الأمر قبل بدايته ؛لاحافظ علي مريم من أن تسقط فريسة للحزن من جديد، و بالفعل قررت أن أتدخل هذه المرة ؛ فأنا لن أحتمل أن أتركها تسقط من جديد ، عدنا للحفل و قبل أن تنتهي قرر طاهر المغادرة و قبل رحيله همس باذان مريم قائلا :

" لم أحضر لك هدية فهديتك أحفظها في مرسمي الخاص ..

و يجب أن تحضري لتحصلي عليها ... متي سنتقابل ؟؟؟ "
إبتسمت مريم قائلتا :
" غدا عند الظهيرة "
فأمسك طاهر يدها و قبلها قائلا :
" ليس هذا قريبا كفاية .. لكنني سأنتظر "

ظننت أن الوقت غير مناسب للتحدث لمريم لذا قررت التحدث إليها باليوم التالي .. و أقنعت السيدة تحية بذلك أيضا ، عدت لمنزلي و قد قررت يومها أن أنام نوما دافئ هادئ أشبه للموت منه للنوم .. و أحلم أحلام أشبه للحساب عنها لأدغاس الأحلام ، عندما إستيقظت في اليوم التالي لم تكن مريم بالمنزل أو بجوسيان ،

و أقلق هذا السيدة تحية و التي لم تشاهدها تغادر .. فأخذت أطمئنها و أعدها أني سأتحدث مع مريم عند عودتها بخصوص طاهر ، و في ذلك الوقت كانت مريم في كليتها و بعد أن إنتهي اليوم الدراسي توجهت مريم لمرسم طاهر الخاص طبقا للموعد ، إستقبلها طاهر إستقبالا حافلا و مبهج أدخل لروحها السعادة .. و أخذ يطلعها علي مرسمه حتي وصلت لهديته لها .. و التي كانت لوحة شديدة الدقة و الإبداع لمريم و التي أسعدتها أكثر من أي شئ .. فلقد نظرت إليها علي أنها الدليل القاطع علي حب طاهر لها و تفكيره المستمر بها ، أخذ طاهر يشرح لمريم كل معني لكل عمل بمرسمه حتي تلك التماثيل الحجرية الصماء ثم

نظر إليها مبتسما و هو يقول :

" كنت دائما أجهل لماذا تخلو عيون التماثيل من الحياة رغم بديع صنعها حتي هذه اللحظة "

فإبتسمت مريم قائلتا :

" لماذا ؟؟؟ "

فأجابها و هو يمد يده لوجهها ليلمسه برفق و هو يقول :

" لأن الروح أبدع جمالا من الجسد .. و لقد أدركت ذلك فقط عندما قابلتك "

نعم كانت روح مريم أبدع من أي جمال لأجمل جسد .. لكن بالنسبة لرجل مثل طاهر لم يكن إدراكه لتلك الحقيقة كافي ليتوقف عند جمال روح مريم ، بعد لحظات قرر طاهر تقديم مشروب لمريم فتركها وحيده أمام لوحاته ، و هنا لطخة مريم بالخطئ لوحته الرائعة ببصمات يدها الهادئة فأصبحت شديدة الحرج و الإضطراب ، وعندما عاد إليها نظر للوحة بتساهل و إبتسم غير مبال و قد مد يده و أمسك بيد مريم قائلا :

" أتدرين .. خطوط اليد تحكي قصة حياتنا .. و لذلك لا تتشابه بصماتنا أبدا ، و أنت تملكين بصمات يد مميزه تروي شئ مختلف عن أي إمرأة عرفتها بالسابق "

ثم أخذ طاهر يقترب لمريم محاول تقبيلها بهدوء .. فإنسحبت مسرعتا في لطف و هي تدعي التماسك و وسط تشتت إنتباهها و دهشت طاهر راحت تنظر حولها فسقطت عينها علي أحد

الحوائط التي ملئها طاهر بالكثير من الأوراق المرسومة بأقلام الرصاص لأجزاء من أجسام النساء .. عيون .. أنوف .. و شفاه .. أقدام .. أيدي .. و حتي خصلات شعر فقالت مريم له مبتسمتا :

" ما أكثر شئ يجذبك بالنساء ؟؟؟ "

فأجابها مسرعا :

" عينيك "

و في خجلا شديد تلعثمة شفتا مريم بالحديث و إحمرت وجنتيها و أخذت تحرك قدميها بتوتر بعد أن أسقطت عينيها إليهما و هي تقول :

" لا .. أنا أقصد كل النساء "

فمد طاهر يده ليرفع وجهها إليه و هو يقول بنفاق جميل :

" عينيك .. فأنت هي كل النساء "

ثم نظرت مريم لبعض لوحات طاهر و هي تود لو تبوح بما أشعل ذهنها من الأسئلة حول طبيعة علاقته بهن و بنظرة توحي بأنها تتحرق شوقا لمعرفة حقيقتهن قال لها طاهر :

" خبري "

فقالت له :

" بماذا أخبر ؟؟!! "

ألقي طاهر عدت ضحكات متتالية ثم قال لمريم :

" إذا سأخبرك أنا .. الإرتباط العاطفي بهؤلاء .. أمرا مستحيل ؛ فلم تسرق أيا منهن قلبي .. بل أنا سرقت من جمالهن لوحاتي ، رغم

ذلك لم أجبر أيا منهن علي شئ .. فهن عهدن بأنفسهن إلي ، و لم تفطن أيا منهن الإختلاف بين الحب و العلاقات الغرامية ؛ فلم يكن علي إستعداد للتخلي عن صلتهن بي و عن مغريات هذا العالم الذي أملكه ، أما أنا .. فلم يكن ذلك أبدا ما كنت أبحث عنه "

كان طاهر يعرف جيدا كيف يحدث إمرأة كمريم .. و كيف يدفع بها إليه .. و كذلك كيف يتحين الفرص و الوقت المناسب لكل حدث و قول ؛ و لذا لم يحاول طاهر تقبيل مريم مرة أخري ، و ذلك ما دفعها لعدم تمييز أفكاره الغير تقية و مواهبه الشيطانية ، عندما عادت مريم للمنزل كانت شديدة السعادة بتلك اللوحة لدرجة أنها إستبدلتها بأحد البراويز التي صنعتها والدتها ، و هنا أسرعت السيدة تحية لتخبرني بعودتها .. فذهبت إليها و أنا لا أعلم ما علي قوله تحديدا .. لكنني كنت شديد الإصرار أن أمنعها من إيذاء نفسها هذ المرة أو حتي الإقتراب من ذلك ، و رغم أنني لم أشأ أن يصبح حديثي إليها مدفوعا بحبي و غيرتي من ذلك الحب الذي كان تجسيدا لأسوء كوابيسي و أكثرها إيلاما .. إلا أنني لم استطع أن أقصي دوافعي الشخصية .. فتلك كانت أحدها رغم محاولتي ، بدء حوارنا بهدوء لكنه سريعا ما إحتدم ، لأظهر أنا رغبة ضارية لإمتثال مريم لرغبتي بالبعد عن طاهر .. و تظهر هي غضب شديد لمجرد فكرة محاولتي التحدث بالأمر .. فمريم كانت تري طاهر و كأنه منفذها الوحيد علي الحياة و المسكن الأقوي لألامها السابقة ، بذلك اليوم قابلت بمريم أكثر شخصيات قصصي غضبا و ضلال

قابلت الشخص الوحيد الذي لم أتمني يوما أن تصبح عليه مريم .. التي لم تترك لي أي مجال لإكمال حديثي فأصبت بالغضب الشديد بدوري و لم استطع إلا أن أقول لها :

" مريم طاهر رجلا يملك لكل لحظة وجه .. سبق و قابلت الكثير من أمثاله بحياتي لذا أستطيع تميز نوعه عندما أراه ، و في الواقع كانت أسوء مخاوفي أن تقابلي أنت أيضا شخص مثله في حياتك و لا تدركي حقيقته "

هنا نظرت إلي مريم و لأول مرة منذ لقاءنا أخبرتني أنها إمرأة حرة لا أملك عليها سلطان أو وصاية .. و هي لن تسمح لأي متطفل أن يتدخل في شأنها الخاص ، و لذا فعلي ألا أتدخل في إختيارها و أن أحترم خصوصيتها و إلا فهي لن تحتاج إلي كجزء من حياتها .. و كان هذا هو قرارها الأخير ، إهتز عقلي لسماع تلك الكلمات التي لا يمكنني أن أصف كيف دمرت قلبي ، و رغم أني كنت أدرك أن حوارنا سيعكر صفو علاقتنا بمح البصر و لاسيما بعد لقائهما بالمرسم إلا أنني لم أتوقع أنها ستكون مولعة به لدرجة أن تقضي بألا أصبح جزء من قصتها التي أخذت لسنوات الملم أشلائها دون علم منها .. و لم يكن ذلك بالأمر السهل ؛ فلقد أصبحت لا أعلم ماذا أفعل غير ذلك ، عدت لمنزلي .. لأوراقي و أقلامي التي لا أملك غيرها .. اتواري لديها من ذلك العشق الذي جلب إلي اللعنة ، فأخذت أدون ما ألت له قصة مريم متحمل جزائي علي حبي .. مستأنس لذاك الأثر في النفس الذي أحدث نزف الحروف

و الكلمات التي راحت تقطر دما .. أستلهم الصبر و أنا شبه مدفون في ربوع اليأس .. أطرح أسئلة و لا أتلقي إجابات .. و محاولا أن أصبح أكثر حرفيتا كسابق عهدي بالماضي .. لكنني فشلت فأخذت أدعو الله أن ينزع صورتها من رأسي .. فلقد كنت أراها في كل كلمتا أكتبها .. و في كل حرفا أقرأه .. و حتي بكل خطوتا أخطوها بالحياة ، و لوهلة شعرت أنني أفلت يد مريم بحق هذه المرة و لهذا لا يحق لي العودة لجوسيان مجددا .. و برغم كل شئ و برغم ما رمتني به لم أجري علي عدم إنتظارها عند المفرق كل صباح و كل مساء و قلبي في خضم شقائه ، كنت أنتظر أن تطل مريم علي بثغر باسم سعيد .. و كانت هي شديدة العناد لحد منعها من التحدث إلي .. كلما إلتقت عينانا كانت تزوغ عيونها عني و كنت أنا أخشي إفتضاح حبي لها فأصرت الصمت ، و ظل حالنا كالغرباء .. لا يملك أحدهم حق لدي الأخر أو يحمل له ذكري يؤثرها علي غضبه ، رغم ذلك لم يكن من السهل أن يغفل فضول مريم أمرا مثل إنتظاري أمام المفرق كل يوم فسألت السيدة تحية عن السر وراء ذلك الإنتظار فأخبرتها أنني أنتظر شخصا ما .. لكنها لم تدرك أنني كنت دائما في إنتظارها هي .. و هي فقط .. أن تطل و أن تعود و أن تعيد معها إلي سر الحياة ، إستمرت علاقة مريم بطاهر في التطور السريع ، تلك العلاقة التي كان يملك بها أدوات جذب مريم و خداعها بإسم الحب ، لم يكن لشئ أن يقنعني بأن طاهر يحب مريم حقا .. لكن لا شئ كان ينفي ذلك أيضا ، حتي جاء اليوم

الذي أخبرتني به السيدة تحية عن أمر خلاف دب بين مريم و ملاك .. و قد أنهي ذلك الخلاف علاقتهما و الذي كان محور خطابها لهذا اليوم و به أكدت لي أنني كنت علي حق حين قالت :

" عندما ذهبت لمرسمه الخاص لم يمنعني من الدخول و رؤية صديقتي عاريتا أمامه و برر ذلك الوضع برسم لوحة لها ، كنت غاضبتا لغرابة ما أراه .. فلم استطع منع نفسي من اللحاق بها لإتهامها بالخيانة .. لكنها كانت شديدة البرود فلم تنطق بكلمة و أثرت الرحيل .. و عندما أمسكت بذراعها نظرت إلي و قالت : (هل أنت غاضبتا حقا .. مريم .. هل تعتقدين بالرجال الأوفياء بالفعل ؟!!) ثم إقتربت لتهمس في أذني قائلتا : (مريم يا عزيزتي .... كل الرجال شياطين ضلوا طريقهم لجهنم فوصلوا للأرض) ، ثم أخذت تبتعد في هدوء قاتل فصرخت عليها بغضب قائلتا : (من بين كل تلك الشياطين أنت الأسواء أيتها الملاك) ، و حتي الأن لم استطع معرفة سر غضبي من ملاك في حين لم أنفعل و لو قليلا علي طاهر .. الذي قرر عدم رؤية ملاك مرة أخري خضوعا لرغبتي حتي أنه أفسد تلك اللوحة .. و قرر ألا يرسم إمرأة عاريتا أبدا مرة أخري ، الأن أشعر بشعور بالغ الإضطراب مختلط لا يمكن تميزه يدفع عقلي العاجز عن التفكير للتساؤل حوله و حول علاقتي به "

لم اكن متعجبا مما قالته ملاك لمريم .. و لم أكن أتوقع من رجلا مثل طاهر رد فعل أخر .. إلا أن الحيرة التي ملئت مريم أثارة قلقي بشكل كبير .. فحيرتها تعني أنها لازالت لم تدرك الحقيقة ،

إستمرت تلك العلاقة لفترة طويلة لم يجرؤ بها طاهر علي لمس مريم أو الإقتراب منها ؛ فطال بذلك الود بينهم و ظل الحال كما هو بيننا ، حتي أنهت مريم عامها الأخير بالجامعة و لم تستطع ملاك إعادة علاقتها بمريم رغم الكثير من المحاولات ، و بعد فترة قصيرة إختفي طاهر تماما فلم تستطع مريم الإتصال به أو إيجاده لا في الجامعة و لا في منزله .. و عندما بحثت عنه في مرسمه الخاص وجدت مريم طاهر و هو يتشاجر مع احدي النساء و يدفعها للخارج بغلظة و عنف و بغضب شديد أثار ريبة مريم ، و بعد أن رحلت تلك المرأة جلست مريم صامتتا تماما تنتظر في صبر نافذ حتي إستعاد روعه و بدأ يهدأ قليلا ثم أخذت تسأله عن تلك المرأة الغريبة و سر غضبه الشديد .. فأخبرها طاهر أنها إمرأة مجنونة تطارده منذ فتره .. و عندما سألت مريم عن سر إختفاءه المفاجئ أخبرها أنه كان مريض تفهمت مريم الأمر بدافع من الحب رغم أن عقلها لم يكن يستطيع تصديق أيا مما قاله طاهر بذلك اليوم .. و بعد فتره ليست بطويله ذهبت مريم لمفاجئة طاهر في الكلية و هناك لمحة تلك المرأة التي رأتها في مرسمه تغادر الكلية فلم تستطع منع نفسها من اللحاق بها و محاولة التحدث إليها ، و عندما علمت المرأة بهوية مريم و علاقتها بطاهر قررت التحدث إليها فإصطحبتها لأحد الأماكن العامة ، و هنا جلست تتحدث إليها و تعرف نفسها و علاقتها الغرامية بطاهر ثم بدأت تشرح وضعها الحالي معه قائلتا :

" وصلت لهذا العمر و مازلت لا أعرف معني الإستقرار، أكثر ما تمنيته هو تحقيق أحلامي و أقل ما تمنيت هو العمر المديد ، بل لطالما تمنيت عمرا قصيرا جدا لا يسع شئ .. رغم ذلك دائما كنت أحلم بنهاية هادئة ، موت دافئ لإمرأة عجوز في فراش دافئ محاط بالأبناء و الأحفاد و حبيبا كبرت معه يمسك يدي و يخشي الفراق ، تاركتا خلفي حياة مليئة بالأنس و الفرح ، الكثير من الذكريات السعيدة و الآلفة ، و قدرا كبيرا من الرحمة و المودة .. و نجاحات متتالية و أمال محققة ، لطالما تمنيت أن أستقبل الموت و لست حزينة علي شئ مضي ، أستقبله بفرح يسع فرحتي بحياتي ؛ لكن و لسوء طالعي مازلت حتي الأن لم أعرف شئ من ذلك .. بل أن كل ما عرفته و حظيت به كان مجموعة من المواقف الصبيانية المتتالية التي صنعت للمراهقين .. و التي فقدت سحرها مع الوقت من كثرة تكرارها ، و لأني لم أعد مراهقة لم يعد يجذبني إليها سوى توقف حياتي عند نقطة المنتصف .. حيث لا أحظ بالحياة المديدة و لا أحصل علي رفاهية الموت الدافئ السريع ، و هذا ما أوصلني له طاهر .. عندما تعرفت عليه في أحد معارضه الخاصة حينها أخذ يجذبني إليه حتي أصبح كالسم النقي يسري في عروقي .. ليمزق بقسوة أحلامي و يشتت ذهني و يؤلمني بصمت لتسكنني الحمة و المرض ، كنت أتصبب عرقا و أهمهم بالكلمات و أتوه بواقعي القحل .. أخشي من صحوي أكثر من خوفي من أن تقضي عليا تلك الحمة ، و في لهفة و شجن إستسلمت له ، لمن خان عشرتي و كفر

بحبي .. و تركني للفراق يمزق ضلوعي و يسرق من روحي السلام .. ليدعى بالباطل أني كنت في حبه عاهرة أنتشي من لمستنا الحرام .. و يسمي علاقة حبي له علاقة غرامية إثم و عار .. و عارى الوحيد أني هويت بشرك حبه ، هويت بحب رجل مثله و ألقيت بنفسي في أحضانه ؛ ليضيع شرفي و شرف عائلتي ، و حتي بعد كل ذلك لم أبح بألمي .. فلقد وعدته أن أشتاق سرا .. و أن أحترق سرا و أن أحتاجه سرا .. و أن أرجوه سرا ، لكنى لم استطيع حفظ هذا السر عندما علمت بحملي ، تواريت عن العيون لشهور عدة لم استطع خلالها التواصل معه ، و بعد أن أنجبت صغيري أخذت أبحث عنه بضراوة أكثر ، أبحث عن إعترافه بإبنه .. لكنه رفض "

هنا علمت مريم سر إختفاء طاهر .. حيث كان يهرب من ملاحقة ((ليلي)) له ، تلك الشابة التي كانت نادمتا علي فقد أحلامها و شرفها لصالح شخص مثله ، شخص مازال يعتبر نفسه رجل رغم تركه لها تعانى وحيدة ، تواجه أقسى المصائر ، تركها تشعر بخذي حبها له لتموت ببطئ بحكم الإعدام و هو يملك دليل براءتها ، عندما تتصادم عينيها بعيون المارة بالطرقات تشعر بأنها متهمة بجريمة الوقوع في حب ذكر نذل ، تركها تتجرع في ألم مرارة الإشتياق لمن ذبحها .. في حين روحها تنزعها في لهفة إليه حتي في نومها المضطرب من ليلة فراقه ، لتغط بكوابيس عن العار و الفضيحة .. و لتلتقط بكل لحظة أنفاسها بمرارة .. تكاد لا تستيقظ كل مرة من ذلك الرعب ، و حين تفعل تستيقظ و هي

تصرخ بدون صوت لتحفظ سرها الدفين .. عن ذلك الذكر الذي تركها وحدها تحارب شياطين خيانته و غدره الموصومة بالعار في مجتمعها الشرقي .. فيتركها تحتضر و ينشغل هو بأن يدعو نفسه رجل .

قررت مريم مواجهة طاهر و دفعه للإعتراف بإبنه من ليلي حتي لو عني ذلك بعدها عنه ، و لم يكن ذلك غريبا علي مريم التي كانت تثبت في كل لحظة و بكل فعل أنها إمرأة أفضل من أن تكون حقيقية .. يشبه التحدث عنها تثمين ما لا يقدر بثمن ، ذهبت مريم للقاء طاهر الذي إستطاع بعد حديث مطول و بشكل غريب إقناع مريم أنه كان علي علاقة بالفعل بليلي لكن ليس لذلك الحد الذي يمكن أن تنجب به طفلا منه ، ثم جثى علي ركبتيه و إندفع لجهة جسدها ليضع رأسه علي ساق مريم و يحضن خصرها ، مريم التي كانت تجلس و هي متفاجئة مما يفعل .. ثم أخذ يتظاهر بالبكاء و مراوغ بثبات كبير أخذ بالإعتزاز كونه كذب عليها .. معللا عدم إعترافه لها بخوفه من فقدها ، و بدافع من الحب أغفلت مريم نداء عقلها و صدقت طاهر و قررت البقاء لتعينه علي إدعاء ليلي ضده .

بعد شهرا واحدا قامت ليلي بمقاضاة طاهر بتهمة هتك العرض و إثبات نسب صغيرها .. حاولت ليلي الإتصال بإصرار إلا أنها لم تجد إلا الرفض ، حتي و في أحد الأيام قررت ليلي إنتظار مريم أمام باب جوسيان و هي بصحبة عدة نساء .. و بعد محاولات

و إصرار إستطاعت ليلي أن تدفع مريم لسماعها و سماع قصص هؤلاء النساء و التي كان طاهر بطلها ، و هنا إكتشفت مريم أنها لم تكن أكثر من جزء يحبه طاهر في النساء ؛ فكل كلمة و كل موقف و كل نظرة روتها كل إمرأة منهن عاشتها مريم بصحبة طاهر .. لتدرك بذلك كذبه ؛ فكل واحدة منهن أكدت لها أن تلك هي بداية تقضى في الأخير لحصول طاهر علي عدة أمسيات يسلبها بها نقائها و صباها ليحول تلك الحبيبة البريئة لعشيقة تختبئ سرا من عار الفضيحة ثم يتركها لتعاني وحيدة . غادرت ليلي و صحبتها لتترك مريم عابثة مضطربة . في تلك الليلة كتبت مريم في خطابها عن الحب قائلة :

" يجب أن يكون الحب مدافعا عن الوجود ؛ فالحب هو النقاء ، هو الإنتصار علي الذات .. علي الأنانية ، حين نحب غيرنا فهذا ما يجعلنا نستحق و بجدارة لقب إنسان ؛ لذا فيجب أن يكون الحب حلالا طيبا يخلوا من النزق .. فلا يجتمع الطهر و الخطيئة في شئ واحد ، و لا يجوز أن يكون المقدس هو ذاته المدنس . فكيف يكون محراب تضرعنا إلي الله إثم .. و دموعنا و صلاوتنا رجس .. و تطهرنا ذنب "

لم أخشي علي مريم من الخطيئة يوما .. بل من الإنكسار ، فأنا كنت واثق من صلاح مريم و أعلم أنها لا تخضع لنزوات مبهمة فأنا أعرفها أكثر حتي مما تعرف هي ذاتها .

في صباح اليوم التالي كانت مريم تجلس في جوسيان تفكر

فيما يجب أن تفعل حين أتي طاهر ليفاجئها ، دخل و هي شاردة فلم تنتبه لوجوده ، جلس أمامها و أخذ ينظر مباشرة لها في حين كانت هي منفصلة عن الحياة تماما بتلك اللحظات .. فلم تنتهي إلا عندما بدء طاهر بالتحدث قائلا:

" أحبك ... فلتتزوجي بي "

إلتفت نظر مريم لطاهر الذي قرر أن مريم هي تلك المرأة التي يمكن البقاء بصحبتها للأبد فهي المرأة الغاية في النقاء التي يسعي إليها ، و كذلك رأي بزواجه من إمرأة مثلها تصريح للعالم بأنه رجلا مستقيم و علي علاقة متزنة بإحداهن ؛ فكان ذلك الزواج بمثابة صمام الأمان بقضية طاهر .. فلقد ظن أن موقفه كشخص ملتزم بخطبة سيدعمه أمام القضاة ، و أعتقد أن ذلك ما أشار به محاميه الخاص ، و لدفع مريم للموافقة إعترف طاهر بخطئه و وعد مريم بإنهاء الأمر و الإعتراف بالصبي ، و برر كل ذلك بالحب .. ذلك الحب الذي إدعي أنه غير به كل شعورا و كل رغبة ، أخذت مريم تضحك ضحكات مدوية ، نعم كانت تضحك لكن كان ضحك كالبكاء .. بل كان بكاء أخفاه صوت الضحك ، لفت إنتباه السيدة تحيه و التي أسرعت إلي تطلب مني التدخل قبل أن تسقط مريم ضحية لهذا الزواج ، لم أكن أقوي علي هذا التدخل أو أجرؤ علي الإقتراب من مريم طوال أشهر مضت .. و كأن شئ بيننا لم يكن ، رفضت طلب السيدة تحيه فعادت لجوسيان .. و أخذت أنا أفكر بمريم و قرارها الذي ستتخذه ليحدد مصيرها للأبد .

في مساء ذلك اليوم خرجت عند مفرق الطريق و أخذت أراقب مريم التي كانت تغلق جوسيان و فجأة رفعت عيونها إلي و توقفت للحظات تنظر بصمت و هدوء ثم تنهدت و أخذت في الإقتراب مني ، كان قلبي يرجف و كأني عدت مراهقا من جديد و أن مريم ستكون أول إمرأة تقترب مني ، توقفت أمامي و إمتد صمتها للحظات آخري و عيونها معلقة بعيوني ثم قالت في هدوء :

" كيف حالك .. إشتقت إليك "

لم استطع فعل شئ إلا أن لنت لها و الإبتسام لها و دون وعي مني سقطت دمعه تخبر عن كم الإشتياق إليها ، حينها لم يكن لمريم ردت فعل سوي إلقاء نفسها داخل حضني .. فتملصت مني باكية ثم أخذت تتأسف عما برد عنها .. فضمتها بقوة و أنا أخبرها ألا داعي للأسف أبدا .

هنا قالت مقاطعتا :

" دع كل غضبة لديك تهبط علي لكن فلتضع لخصامنا حد ، أنا حقا آسفة علي تلك اللهجة المهينة التي حدثتك بها ؛ فعقلي كانت قد هزته الخطوب الأخيرة و ذلك ما ندت عنه كلماتي غير المقصودة فتساقطت من فمي رغم أنني لم أقصد أن أقلل من قدرك و أهمية وجودك بحياتي .. و لكنت أصغيت إليك في طاعة لو لم أكن أعلم أنك و السيدة تحية تمقتان طاهر دون سبب من البداية ، أرجوك هل بوسعك مسامحتي علي ما بدر عني "

وهب فرصة أخري ؛ فمريم كانت العقل ليس له قلب

و كذلك القلب لا يعترف بالعقل و مبادئه .. و رغم أنني أعتقد أنه كان بصفه تماما لكن لم يستطع قلبي إلا أن ضحي بعقلي و مبادئه لصالحها .... و لما لا أليست التضحية شكل من أشكال الحب مهما كان ذلك القربان المقدم بها ، عندما أخبرت مريم بمسامحتي لها هتفت بامتنان و صارت شديدة الإبتهاج ، فأخذت تخبرني بأمر خطبتها من طاهر و أنها تريد مني أن أكون معها في ذلك ، لم استطع رفض قرار مريم لكني قررت أن علي أن أكون أقرب إليها من أي وقت مضي لأحميها من أي شئ يمكن أن يمسها ، كان قرار مريم بدافع من الحب و دافع تؤمن بحقيقة أن لكل منا حق في فرصة ثانية ليخبر بها و يثبت أنه ليس سئ لهذا الحد ، بدأت التحضيرات لحفل الخطبة تملأ جوسيان و المنزل و الدار و منزلي و كل شئ .. حتي مفرق الطريق ، حتي حان الموعد .. لم أكن أعلم كيف يستطيع رجل مثل طاهر خداع إمرأة كمريم بهذا الشكل المتكرر و لم أكن أخشي من هذه الخطبة فأنا واثق من أمر مريم و أنها سريعا ستستفيق من ذلك القرار المجازف ، و عندما حان موعد الخطبة إمتلأ جوسيان بالأنوار و الحضور .. و قوالب حلوى التي أصرت مريم علي إعدادها بنفسها .. و زهور ملائمة للمكان تعبق بالسعادة المشككة .. و رفض شديد من السيدة تحيه ، يومها إرتدت مريم فستان بلون الذهب جعل منها تلك الماسة التي تزين طوق ذهبي ، إستقبلتها عند باب جوسيان و قمت بتسليمها بيدي لطاهر .. و قلبي يمزقه خوفي عليها ، ظلت مريم ترقص مع

طاهر طوال الليل و في عمق فرحها .. إقتربت إلي السيدة تحيه و هي حزينة و قلقه ثم أخذت تقنعني أن بيدي إنهاء تلك المأساة .. لكني أنكرت تلك القدرة ، فأخذت تردد بعض الكلمات القاسية :

" أعتقد أنك قررت ترك مريم للضياع .. حين قررت عدم الإعتراف بحقيقة حبك ، إلا أنني أود أن أخبرك أنها ستظل الحقيقة مهما أخفيتها و مهما حاولت إنكارها "

الحقيقة .. أي حقيقة ، الحقيقة دائما نسبية فحين أري الإستقرار و هما .. يراه الناس حقيقة ، و حين أرى الأحلام حقيقة .. يرونها وهما ، زهور الحى جمال لو لم أقف أراقبه لدقائق أصبح قبحا ، و مطر الشتاء إختلاف أن لم يطهرني أصبح فوضي ، و البرد لو لم أشعر به لبضع ثوان أصبح بردا ، و الليل لو لم أرى قمره أصبح رعبا ، و القلب إن لم يحبها أصبح عبئ .. عبئ لا ينتهي .. كحالي و أنا أراقبها تستقر في أحضانه ، إنتهت الحفل بعد منتصف الليل و غادر الكل حتي طاهر .. لكن مريم أثرت علي تنظيف فوضي الحفل قبل مغادرتها جوسيان و لم تبقي السيدة تحيه بصحبتها فلقد كانت منهمكه من التجهيزات ، و ظللت أنا أراقبها من أحد الطاولات و هي تخلع حذائها ذو الكعب العال لتستطيع تنظيف جوسيان ، و بعد بضع ساعات قليلة أنهت مريم عملها و أغلقت جوسيان ، إصطحبتها لمدخل المنزل و هي لا تزال عارية القدمين و بدلا من أن تصعد لشقتها طلبت إلي الجلوس علي عتبات المنزل ، و جلست ترتكن برأسها علي كتفي .. تستند لذكرياتها المؤلمة

و المخيفة .. حافية القدمين مرهقة الوجه دامعة .. تتذكر بحرقة أسمعها بدقات قلبها المضطربة و أنفاسها المتقطعة كل ما مضى ، لم تنطق بكلمة لكنى أدركت بذلك الصمت المفزع شجارا حاد بين قلبها المحب و عقلها المرهق ، جلست صامتا أنتظر نهايته دون أن أعلم أيهما سينتصر ، قلبها فتحتضر بقربه أم عقلها فينتهي من حياتها للأبد ، كنت أخشي عليها إنتصار قلبها و كانت تخشي أن يفوز عقلها فتنساه ، بعد بضع دقائق قبلت جبينها ثم قلت لها :

" مريم لماذا وافقتي علي الخطبة إن لم تكوني واثقة تماما ؟؟!! "

لم تمتلك مريم جواب علي سؤالي لكنها إبتسمت إبتسامة عالية الصوت و هي تقول :

" لم أشأ أن أنهي قصة حبي هذه المرة أيضا بفراق ، كل ليلة أدخل عالم الأحلام فأرسم بأحلامي له صورة الملاك .. و أدرك جيدا في صحوي أنه ليس كذلك .. أدرك بحب و إشتياق كيف يراني ، كيف أجول بخاطره ، كلما إلتحمت كلماتنا بالحديث أدرك أنه يراني ليس كما أراني .. ليس كما أعرفني هو يعرفني .. ليس كما الحقيقة يدرك الحقيقة ، أتمني سلاما بين يديه أقضيه دهرا أو لحظات .. و أخشي أن يكون ممن يشعلون الحروب بين أحضانهم كل ليلة "

فعدت لأسألها :

" إذا لا تصدقين ما قالته ليلي و غيرها ؟؟؟ "

فتنهدت ثم قالت :

" أصدق .. لكن أتمني أن ذلك قد إنتهي كما وعدني ، فهو لم يقترب حتي من فكرة الزواج بأي منهن ، و أنا لا أفكر به أو أذكره بسوء ما فعل حتي إذا ما وثقت من توبة الله عليه ، إنتهي ذنبه و إنتهي ذكره ؛ فلا يذكر حتي داخلي بذنب ، فالله يصفح للناس و الناس تحيط توبة الناس بذكر ذنوبهم "

لم أكن أكيد إن كان ما قالته مريم بدافع الحب فقط أم أنها علي قناعه من توبة طاهر ، جلست بتلك الليلة أدعو الله وحيدا أن يلقي بقلبها السعادة و أن يرمي بها داخلها دون أن تدري .. و ألا يأتي صباح يوما جديد و هي حزينة ، تمنيت أن أراها تبتسم بكل لحظة .. تلك الإبتسامة التي غادرتها منذ سنين ، و أن تخرج من صندوق ذكرياتها المنسي .. نظرة الفرح و البهجة التي إنتظرت طويلا أن تستدعيني لأزيل عنها ما تراكم من غبار الزمن و آثار الحزن ، و أخذت أفكر في أن الله يحبني كثيرا فاليوم رأيت تلك النظرة و تلك الإبتسامة علي وجه حبيبتي ، وكم كنت أسال الله فأعطاني أكثر من طلبي فالحمد له علي كرمه .

ظلت مريم سعيدة لعدة أسابيع قبل أن تحضر ليلي للقائها في جوسيان مرة آخري بعد أن علمت بأمر الخطبة ، عندما حضرت كانت شديدة الإستياء من مريم التي لم تتعظ مما حدث لغيرها من من وقعن فريسة لحب طاهر ، و أخبرتها أن مسار القضية يسير لصالحها بحكم كثرة الشهود ، و أنها تري مريم كفتاة جيدة لا يستحق طاهر أن يظل بصحبتها ، أثار هدوء مريم و محاولاتها

للدفاع عن طاهر غضب ليلي خاصتا عندما أخبرتها أن طاهر وعدها بإصلاح كل شئ و إنهاء تلك القضية بالإعتراف بإبنه ، إلا أن ليلي أخبرت مريم بأن ما وعدها به طاهر هو مجرد أكاذيب لأجل إتمام الخطبة .. و أن القضية تسير بمجراها بشكل طبيعي و لا نية لطاهر لفعل أيا مما أخبرها به بل علي العكس تماما ، حينها ظنت مريم أن ليلي تتحامل علي طاهر و أنها ربما كانت مخطئة فليس عليها تحميله كل الخطئ وحده فهي أيضا مخطئة بإستسلامها لعلاقة غير شرعية ، بعد إخبار مريم ليلي بذلك قررت ليلي التوجه لطاهر ، و لا أعرف فيما كانت تفكر أو لماذا فعلت ذلك لكنها ذهبت لمنزله و هي شديدة الغضب فلحقتها مريم بعد لحظات من التفكير ، حين وصلت مريم لمنزل طاهر كان الشجار قد إحتدم بينه و بين ليلي .. في حين كانت ملاك تقف هناك ترتدي قميص طاهر و تحمل ملابسها و حذائها ، و عندما رأت مريم أسرعت بالخروج من المنزل فجذبتها مريم إليها فنظرت لها ملاك و قالت :
" ألم أخبرك .. كلهم شياطين ، و ذلك الشيطان بالأخص يشبهني كثيرا ، لذا فنحن صحبه لا تنفصل ، حاولت دفعك للحقيقة .. لكنك رفضت "

غادرت ملاك المكان في حين إشتد الجدال بين ليلي و طاهر ، و بدلا من أن تنسحب مريم بعد كل ذلك حاولت التدخل لإبعاد طاهر عن ليلي ظنا منها أنه سيؤذيها حتما ؛ فالشجار بينهم وصل لحد إستخدام العنف ، و وسط كل شئ لم تستطع مريم تجنب

دفع طاهر لها تجاه الأرض ليبعدها عن حماية ليلي ، في تلك اللحظة أصابت مريم رأسها بجرح كبير حين إرتطمت بحافة الطاولة الزجاجية حيث دفعها طاهر ، فأخذت تنزف مما أخاف طاهر و ليلي ، دفع طاهر ليلي للمغادرة و أسرع ليصطحب مريم للمشفي لتقطيب جرحها و خياطته ، و بالفعل كان شديد الخوف علي مريم .. أعتقد أن جانب منه أحبها بصدق ، عندما عادت لجوسيان كنت أنتظرها و السيدة تحيه فلقد غادرت دون إنذار و تركت جوسيان وحيدا ، عندما رأيتها للوهلة الأولي كدت أختنق خوفا عليها ، لم تشاء مريم في البداية إخبارنا بما كان لكن بعد أن علمت أنه تسبب لها بذلك الجرح ، لم استطع منع نفسي من الذهاب لمنزله و بمجرد أن فتح طاهر الباب قمت بلكمه بقوة .. لم أكن أعلم من أين أتتني القوة للكم أو دفع شاب كطاهر لكنها مريم ، أخذت أحذر طاهر من الإقتراب من مريم مرة أخري و إلا كانت نهايته ، ثم عدت لمريم لأطمئن عليها لكنها كانت نائمة ، تركتني السيدة تحيه ليلتها أراقب مريم و هي نائمة حتي أنها لم تطلب إلي المغادرة و لو لمرة و قضيت الليل كله أنظر إليها و أنا أفكر إن كان هذا هو عون السماء .. ثم أخذت أتوسل إليها أن ترسل الأحلام السعيدة لمريم فقط السعيدة منها حتي غفوت علي الأريكة التي تنظر منها مريم للسماء ، و عندما إستيقظت كانت مريم قد غادرت الغرفة و توجهت لعملها في جوسيان ، حاولت التحدث إليها لكنها كانت ترفض كل محاولاتي حتي نظرت إلي في النهاية قائلة :

" كيف أخبرك كم أنا مجروحة عندما أخطئ ، قام بسحق أحلامي ، تلك التي تركتها في طريقة فخطئ عليها "

ثم إستدارت لتغادر يائسة و حزينة ، و أنا أتساءل كم عدد الجروح التي يستطيع قلبها تحمله بعد ، بعد فترة ليست بطويلة أرسل طاهر لمريم خطاب كتب به جملة واحدة :

" أميتيني بالحال لكن سامحيني .. عودي لحياتي "

هنا همست مريم لنفسها قائلتا :

" و احسرتاه ، أسامحك .. سلني ما أقدر علي إجابته و سأفعل "

ثم مزقة تلك الورقة لأشلاء ، في تلك الليلة جلست مريم ترتكن إلي السماء تطل عليها من نافذتها و هي تقول في حزن :

"مهما تضرعت لك لتهبني الحب حرمتني .. و مهما سألتك ألا يكون إبتلائى بالقلب تبتليني .. لا أملك سوي إيماني بأن حرماني و إبتلائي لحكمة أجهلها .. و تعلمها أنت وحدك "

مع الوقت أصبحت مريم تشبه كل شئ يتلاشي ، و لأول مرة لم أعد أسمع قلبها يحاور .. و حتي عيونها كانت فارغتين ؛ فلقد أوصدت كل مداخل الروح لتحيا بالألم .. و كم تمنيت لو تعطيني ألمها لأرتاح و أن أتكبد أنا هذا العناء الذي تحيا به ، ظلت كل تلك الآلام ترسم علي وجه مريم كلما مر الوقت لتزداد حياتي إظلاما في حزنها ، كل نور بجوسيان كان مظلم .. و كل باب قد أغلق حين أغلقت مريم نافذتها علي السماء ، ظلت لشهور لا تنطق بكلمة حتي ظننت أنها فقدت القدرة علي الحديث ، كانت تنظر لكل شئ

محيط بها بنظرات متضاربة و بتعجب شديد .. و كنت أنظر لها بتعجب أكبر، لم يكن لشئ أن يبرر لي لماذا أحبت مريم مثل ذلك الشخص .. لكن إدراكي أن الحب لا يملك أسباب منعتني من الإعتراض علي حزنها أو وضعها أو حتي حبها ، لم أكن أعلم بالفعل لماذا .. و بجهلي أخذت أحيا و مريم كل حدث و كل لحظة كالمشهد السينمائي المؤلم ، به موسيقي حزينة .. إضاءة مظلمة .. أصوات داخلية مخيفة .. و خدع تجعله أكثر وضوح ، لطالما كنت أظن حياتي تشبه تلك القصص التي أكتبها لكني أخيرا أدركت أنها لا تشبه أيا منها ؛ فلم أغزل أبدا حكايا تملك كل هذا القدر من الخذلان و الإدعاء و الإفتعال .. و لا عن شخصية تحيا هذا القدر من الوحدة و التفرد و الإنهاك ، حتي إكتشفت أخيرا أن قصتي معها بدون أبطال أو شخصيات رئيسية ، فقط أنا و هي و ما سوانا ليسوا سوي شخصيات ثانوية .. تدفع بأحداث قصتنا لتجعلها أصعب ثم تختفي .. مخلفتا ورائها المزيد من الألم و الحزن لكلينا ، أدركت أن قصتنا ربما تكون أي نوع من القصص لكنها أبدا لن تكون قصة سعادة .

بعد شهور من الصمت كنت أراقب مريم و هي توزع الحلوي كعادتها كل يوم جمعة علي فقراء الحي و أطفالهم ثم عدنا سيرا إلي جوسيان ، لم استطع منع نفسي حينها من التحدث إليها قائلا:

" أعلم أن الأمر ما زال مؤلم فببطئ تختفي الذكريات لكن في النهاية تختفي "

فنظرة إلي قائلة :

" نعم ، لكن ذكرياتي المؤلمة و المحطمة تجرحني "

ثم شعرت بشعور غريب فتوقفت للحظات أنظر لمريم ثم قلت :

" لا أعلم لكن أشعر أننا خضنا هذا الحوار سابقا "

فأخذت مريم تضحك قائلة :

" لأننا فعلنا حقا .. و ذلك يجعل الأمر أصعب بالفعل "

ضحكات مريم شجعتني لأكمل حديثي رغم أني أدركت أننا خضنا ذلك حقا في الماضي ، فعدت لأقول :

" مريم ، هذا لا يحدث لك ، هذا يحدث من أجلك يا عزيزتي "

فقالت في تعجب :

" و كيف يمكن أن يكون من أجلي ؟!!! "

فقلت لها :

" مريم حتي لو كان الظلام دامسا و مهما بدا العالم ملئ بكم كبير من الحزن و البؤس .. فبالتأكيد هناك كم أكبر من السعادة و البأس .. فقط ستجدينهم حين تنظرين بشكل أدق ، و أمر هذا مؤكد "

فأجابتني :

" بشكل أدق .. أنظر بشكل أدق لأري السعادة و البأس ... هذه الأشياء تحدث فقط في رواياتك الخيالية "

فأجبتها :

" نعم أعلم ، لكنني أعلم أيضا أن الله ليس فقط في رواياتي الخيالية"
فعادت لتسألني :
" إذا ما سبب ما حدث لليلي في رأيك ؟؟!! "
فأجبتها :
" السبب أنها لم تدرك أن الحب يمكنه أن يكون الشئ الذي يبحث عنه الجميع .. و يكتبه الملائكة .. و يثيب عليه الله .. و تقدسه الكتب السماوية كلها .. و يجازينا عنه البشر كجريمة ، و هذا ما لم تنتبه له ليلي ، فهي حولت حبها لجريمة يعاقبها عليها البشر .. و ليس ذلك الحب الذي يثيب عليه الله يا مريم "
تنهدت مريم ثم قالت لي :
"علي كل حال الأن بدي شعوري يميل لأني لم أحبه حقا .. بل كان مجرد حالة أحياها ، لكنها حالة معذبة للغاية ، و أنا حقا آسفة أني ورطتك معي داخل كل ذلك "

بعد ذلك الوقت بدأت مريم تتعافي بصعوبة مما كان ، لم يترك ذلك الجرح في جبين مريم أي أثر ، لكن الجرح الذي خلفه طاهر في قلبها ترك أثر عميق ، حتي ظننت أن مريم لن تقدم علي الإقتراب من شعلت الحب مرة أخري .. رغم أنها أدركت سريعا أن ذلك لم يكن حبا ، و رغم أن ذلك الجرح بقلبها لم يكن بسبب الفراق .. إنما إدراكها لتلك الأنواع من البشر الذين تتورط فيهم ، حينها أغلقت مريم حياتها علي و علي السيدة تحيه و السيدة زينب

و عملها بجوسيان ، بعد فترة أتت إلي ملاك و هي في حالة مزرية تخبرني كيف طردها طاهر من حياته هي الأخري بعد أن أصبح أكثر ريبة و إكتئاب .. منذ كسبت ليلي قضيتها ضده و تم إقالته من العمل بالجامعة ، ثم أخذت تخبرني كم هي آسفة و نادمة علي ما فعلته بمريم ، كانت ترجوني لأعيد ودهما و صداقتهما .. و رغم عدم حبي لملاك إلا أنى صدقتها هذه المرة كما أني كنت ماأزال أري أن مريم يجب أن تحظي بشخص في مثل عمرها و لم يكن ذلك متاح لها بحكم كل شئ أحاط بها ، ذهبت لجوسيان و جلست صامت أمام مريم لدقائق حتي أخذت تتساءل عن سر زيارتي في أثناء مواعيد عملي بالدار ، لكن صمتي أخذ يستمر فعلمت أن هناك أمر .. و قبل أن أبدأ حديثي لمحت مريم ملاك تقف أمام نافذة جوسيان فأثار ذلك غضبها و نظرت إلي بعد أن أدركت أن هذا هو سبب قدومي إليها ، ثم أخذت برفض كل محاولة للتصالح و ظل ذلك قائم لأسابيع طويلة .. و دعمها في رأيها السيدة تحيه ، إلا أنني كنت أشد إصرارا علي أن تتحدث مريم و ملاك بخصوص كل شئ مضي و كذلك كان رأي السيدة زينب ، و بعد ضغط شديد كان الأول علي مريم مني .. سمحت مريم بلقائها و ملاك .. و في غرفتها المغلقة دار حوار مطول بينهما لم أعلم بخصوصه شئ إلا أنه إنتهي بعودة صداقتهما .. و من ذلك الوقت أخذت ملاك تثبت لمريم في كل لحظة أنها لم تخطئ عندما منحتها فرصة جديدة للتكفير عن كل ما كان .

قررت مريم أن تطور عمل جوسيان ، فجمعت كل المال الذي تملكه من إرثها أو عملها و طورت المكان و زادت إنتاجه و توزيعه .. ليصبح بذلك إسم له صدى في عالم صنع الحلوي و المعجنات الغربية .. حتي أنها بدأت بتوزيع حلواها للفنادق و الحفلات الضخمة .. و كان ذلك من خلال متعهدا للبيع ، كان يرسل إبنه الصغير ((عبدالعليم)) ليستلم الحلوي و يقوم بتوزيعها .

كان عبدالعليم شاب في التاسعة عشر من عمره ، و هو فتي بقامة طويلة .. و بنيان قوي .. يملك شعرا أسود أشعث .. و عينان جاحظتان .. مع أنف طويل و عظام وجه بارزه ، نشأت بينه و بين مريم صداقة قوية بحكم تردده المستمر علي جوسيان ، فأصبحت الزهرة الحمراء التي يحضرها لمريم كل صباح أمرا طبيعيا أراه بمجرد دخولي ، كنت أعلم أن مريم هي المرأة التي يمكن أن تجذب الكل حتي صبي في مثل عمره و رجل في مثل عمري .

كل شئ كان مثالي بالنسبة إلي و للسيدة تحيه فمريم عادت للحياة بسرعة ، ربما ليست تلك الحياة التي كانت تستحقها و إنما هي أفضل من الموت كل ليلة أمام نافذتها ، كل شئ كان مهيأ بالنسبة إلي لأخبر مريم بحبي و الذي كان يسير تجاه المستحيل كل ليلة عن سابقتها ، فكلما مر الوقت من عمري و عمرها أصبح حبي لها مستحيل ، ربما كان علي أن أجرب لكنني تباطأت رغم أني لم يكن لدي ترف الوقت لكنني لم استطع تحمل وطأة ثقل خسارتها.

و في أحد الأيام كان ((مسيو ميليس)) و هو أحد أشهر

الأثرياء الفرنسيين يسير بين شوارع القاهرة بصحبة ((رضوان عوده)) و هو أحد الصحافيين المشاهير و الذي كان يستضيف مسيو ميليس بحكم صداقتهما .. فلفت جوسيان إنتباهه ، و أخذ يتعجب من مظهر هذا المكان الذي ينتمى بأكمله لباريس .. و كأنه نزع منها داخل حلم ليستيقظ في القاهرة ، بعد لحظات أصبح مسيو ميليس و رضوان يجلسان علي احدي طاولات جوسيان .. و عندما سألت مريم عن طلبهم قرر مسيو ميليس أن تختار مريم لهم أفضل حلواها .. و وجه حينها الحديث لرضوان الذي ترجم حديث مسيو ميليس لمريم ، فذهبت و إختارت لهم وصفة عائلتها السرية لتقدمها لهم .. فيجئ رد مسيو ميليس بأن ذلك إبداع لم يتذوقه حتي بباريس ، حينها شكرت مريم مسيو ميليس ليكتشف أنها تجيد الفرنسية بطلاقة ، و هنا دار حوارا بين كلاهما إنتهي برغبة مسيو ميليس بشراء تلك الوصفة العائلية السرية ، فمسيو ميليس كان صاحب لمجموعة شهيرة و ضخمة من متاجر الحلوى الفرنسية و التي يقع مقرها الرئيسي بباريس في حين تنتشر فروعها علي مستوي العالم ، رفضت مريم بيع تلك الوصفة فبالنسبة لمريم تلك لم تكن مجرد وصفة حلوي إنما كانت سنين و أجيال عاشتها عائلتها و أبيها و حتي هي .

غادر مسيو ميليس و هو حزين لقرار مريم .. لكنه قرر ألا يستسلم فبعد عدت أيام أرسل رضوان لزيارته فأخذ يعرض علي مريم عرض مغري من قبل مسيو ميليس .. و هو جعل جوسيان

واحدا من فروع مجموعته مع إحتفاظ مريم بكل حقوقها .. فقط لتبيع تحت راية عمله و ماركته التجارية و تمد عدد من المتاجر التي سيفتتحها في مصر بتلك الحلوي كعمل مشترك بينهما.

طلبت مريم فترة للتفكير ، في حين كان ذلك العرض يوفر لمريم نجاح مضمون و أموال طائلة إلا أنها إستغرقت وقت طويل لإتخاذ القرار ، أما بالنسبة للسيدة تحيه و ملاك فقد كان الأمر يعني الأموال المضمونة و لما لا ؟!! فمستقبل فتاة كمريم يجب أن يدعم بالأموال كونها لم تتزوج حتي ذلك الوقت ، أما بالنسبة للسيدة زينب فلقد أخبرت مريم أنها إتخذت قرارات أكثر إندفاع و ترنح في حياتها من ذلك القرار .. لذا فالتجربة لن تعني شئ حتي و إن لم تنجح ، أما عني فلقد رأيت بتلك التجربة نجاح مضمون لمريم و سعادة ظننت دائما أنها تحتاجها ، و مع شرط إحتفاظ مريم بملكية جوسيان بشكل كامل و بإسمه و مظهره وافقت مريم علي عرض مسيو ميليس .. و الذي منحها علامته التجارية ليصبح بذلك جوسيان هو الفرع الرئيسي لسلسلة من متاجر الحلوي الخاصة به في مصر .. و التي لم يمر وقت طويل حتي أصبحت مريم تديرهم جميعا بنجاح منقطع النظير و ذلك خلال عام واحد ، عام واحد من العمل المرهق و الشاق .. الذي لم يمنع مريم من وصل أحبتها و أصدقائها مهما كلف الأمر حتي جاء يوم ميلادها بالعام ١٩٦٢ الميلادي .

في ليلة ذلك اليوم إنتظرت خطاب مريم أكثر من أي ليلة

سبقته .. لأعلم أي الأمنيات سترسل بها للسماء ، كنت أتمني لو أن كل هذا النجاح يملأ قلبها بحيث لا يظل مكان لتشتاق لحبيب مجهول ، لكن خطابها بتلك الليلة لم يحقق أمنيتي حين قالت :

" عادة الشعور الأروع يكون الدفئ .. خاصة حين يكون الجو باردا ، لكن شئ غريب يجتاح محيطي ، نفحه من البرد متواجدة في كل شئ يحيط بي .. رغم أننا بفصل الصيف ، لكن بشعاع الشمس كل صباح نفحه برد .. و الخبز الدافئ في جوسيان ملئ بالبرد .. و داخل كتبي و رواياتي تمطر برد و بشعلة شمعي يوم ميلادي أشعر بالبرد .. و شوارع مدينتنا غطاها البرد ، حتي أنفاسي تبدو كرياح

من البرد ، لماذا يبدو لي هذا الصيف كشتاء طويلا مليئ بالبرد " .

جل ما شعرت به مريم من الصقيع يجتاحها لم يكن جزء من محيطها الخارجي ؛ بل كان ينبعث من بين ضلوعها .. ينبعث من القلب الذي كساه البرد ، لم يكن الصقيع و البرد مكان للقلب و إنما الحب و الدفئ .. و لم يكن قلب مريم باردا أو متجمدا و إنما فقط كان مفطور .. و رغم كل ذلك البرد إلا أنه بدا لي كالرماد المحترق ألما أثناء بحثها العبثي عن شئ لم يعد له وجود .

في اليوم التالي ليوم ميلادها كنت قد قررت أنا و ملاك إصطحابها مكان جديد ، إقترحت ملاك المسرح فأوكلت لها أيجاد المسرح المناسب لحضور أحد العروض للترفيه عن مريم ، فإختارت ملاك مسرح صغير و قديم يعرض مسرحية ((حلم ليلة

صيف)) ، و لحضور هذا العرض أحضرت لمريم فستان جديد كان كلون القمر ، عندما إرتدته قمرا أضاء كل شئ بصمت حزين ، لم يكشف من جسدها أي شئ لكني كرهته فلقد جعلها أكثر إغراء للقلوب ، لم أكن أعلم حين إشتريته أنى سأسحر عيني بها .. و سأورط نفسي فيها أكثر. كان العرض جيدا و كذلك المؤديين به و كان أول ما وقعت عليه عيني مريم هو الشخص الوحيد الذي دفعها للإنفعال بالعمل و بشدة ، و قد كان بطل العمل أو بمعنى أدق ((رؤوف شاكر)) ، كانت تهمس لي طيلة العرض أنها أكيدة من رؤية ذلك الشخص سابقا لكنها لم تتذكر أين أو متى ، لكن ملاك كانت تتذكر جيدا ؛ فرؤوف كان أحد العارضين الذين عملوا معها في كلية الفنون الجميلة ، و لقد رأته مريم هناك عندما كانت تذهب لرؤية طاهر ، كانت مريم تنظر لرؤوف بطريقه غريبة لم ألمحها سابقا حتي مع هؤلاء الذين أحبتهم و كان ذلك شئ مخيف .

كان رؤوف شاب وسيما ذا شخصية طاغية ، قوى البنيان .. عريض المنكبين .. بعضلات مفتولة و بشرة حليبية ، يزين وجه لحية و شارب بلون الذهب و هو ذاته لون شعره ، و عينيه خضراء شديدة الإغراء ، كان شاب فتى و ممثل متميز رغم أنه مغمور ، له صوت رخيم و هادئ و ملامح ناعمة مثيرة ، كان يمكن أن أدرك من اللحظة الأولي أنه سيكون قصة مريم التالية إن إلتقيا من جديد ؛ و لذا كان لدى الدافع للرحيل بسرعة ، لكنها أثرت علي الإشادة بفنه بشكل خاصا فالعمل تماما كما تخيلته حين قرأت النص في

الماضي ، كانت مريم تظن ألا أحد بهذا العالم كان سيؤدى هذا الدور أفضل من رؤوف فهي دعته ممثل عبقري ، و بالفعل بعد إنتهاء العرض إصطحبت ملاك مريم لحجرة الممثلين و سمحت لمريم بمقابلة رؤوف و التحدث إليه ثم غادرنا المكان ، قررت مريم أنها تود السير في شوارع و ممرات القاهرة ؛ فسرنا ثلاثتنا في الطرقات نتجاذب أطراف الحديث نضحك تارة و نصمت خوفا من الرد تارة حتي سألت ملاك مريم عن رأيها بالحب بعد كل ما كان لتجيبها قائلة :

" الحب هو الأخبار السيئة في الجرائد اليومية ، هو كل جريمة قتل في صفحات الحوادث ، هو كل إعصار يخبر عنه الطقس ، و هو كل خائن للوطن و كل المجازر الدموية أثناء الحرب ، هو كل خبر يبكينا كل يوم في الجرائد الصباحية "

لم يتغير شئ بحياة مريم بعد ذلك اليوم حتي مرت عدة شهور و عاد موسم المطر ؛ لتعود حزينة من جديد ، بذلك الوقت كان اليهود يغادرون مصر منذ أكثر من خمس سنوات .. لكن عائله ملاك لم تفعل و لكن الأمر لم يكن ليصبح أصعب من ذلك ؛ فلقد بدأت المشاكل تأخذ منحني أشد خطورة ؛ لذا كان علي ملاك و عائلتها الرحيل ، شكل رحيل ملاك بالنسبة لمريم معضلة كبيرة و حزن شديد لم أكن أضعه في الحسبان ؛ فمريم و رغم كل شئ بخصوص ملاك لم تحظ بأصدقاء بحياتها غيرها هي و عبدالعليم .. و الذي كانت صداقته بمريم منقوصة لأسباب كثيرة و هذا جعل

الأمر أسوء فملاك كانت تعني لمريم الكثير ، حين ودعت مريم ملاك في المطار نظرت إليها قائلة :

" مريم أرجوك لا تعذبي نفسك بالحب من جديد .. من أجلي ، حتي نلتقي لا أود أن يصيبك مكروه و بالتأكيد إن قررت المجئ لباريس سنلتقي ، و سأراسلك دائما حتي نلتقي ، لكن حتي ذلك أرجوك تذكري القواعد "

فأخذت مريم تضحك ألما و هي تكرر :

" القاعدة الأولي لا حب .. الحب يضعف ، القاعدة الثانية لا إرتباط .. الإرتباط يقيد ، القاعدة الثالثة لا كراهية .. الكراهية تشتت الإنتباه ، يجب أن يكون كل يوم نقابل به شخصا و كأنه اللقاء الأول لا نحمل تجاهه أي شعور .. هذا هو الأفضل و تلك هي قواعدي للسنين القادمة و حتي نلتقي يا ملاك "

كررت مريم تلك القواعد و ودعت ملاك لتخرق كل قواعدها حين حدثته لأول مرة بعد بضع أيام في الطريق ، كانت مريم تمر بوقت عصيب بعد رحيل ملاك .. فراغ و وحدة ألمتها فلسنوات لم تفترق ملاك عن مريم لكنها اليوم عادت لتصبح وحيدة ، حتي ظهر هو في أحد الأيام الممطرة و هي تراقب مفرق الطرق بدأ كل شئ .. حين رأت مريم رؤوف مرة أخرى يسير محاول الإحتماء من المطر .. فدفعتها وداعتها و رقتها للإسراع بفتح باب جوسيان له ليحتمي لديها من المطر و البرد ، حين نظر رؤوف لمريم لم يتذكرها .. و حتي أنه أخذ يتساءل إن كان قد رأها في السابق حقا قائلا :

" أنا أعرف يقينا أنني لم أراك مسبقا فكيف يمكن أن أكون قد رأيتك سابقا و لا أتذكرك بذلك الشكل حتي الآن ؟!!! "

فأجابته و هي تبتسم قائلة :

" ربما كنت تنظر و لا تري "

بعد إنتهاء المطر أراد رؤوف تعويض مريم عن نسيانه لها و شكرها علي حمايته من المطر و البرد فدعاها لحضور أحد تدريباته علي مسرحيته الجديدة في أحد المسارح الترفيهية المغمورة ، و بالفعل حضرت مريم بعد عدة أيام هذا التدريب ، كان رؤوف يتدرب من أجل مسرحية الكاتب الفرنسي ألبير كامو ((كاليجولا)) ، و بعد التدريب قرر إيصالها لجوسيان فصارا علي ضفاف النيل و هما يتبادلان الحديث الذي تحول بعد دقائق معدودة لدندنات يرددان بها بعض كلمات الأغاني المفضلة لكلاهما .. و وسط كل ذلك أخذت ضحكات مريم تتعالي بسعادة حقيقية و لأول مرة منذ عدة سنوات ، فقاطع رؤوف تلك الضحكات متعجبا من حال تلك الفتاة التي يضحكها اللاشئ ثم بدء حوار حول شخصية كاليجولا و ما عناه الحب و الحلم بالنسبة فكان رأي مريم عنه :

" لم يكن حاله امرا عجيب ، فالحب كله .. صلاة غير مكتملة لإله وثني حجري..لا يجوز الإيمان بعدها أبدا ؛ فتوبة العاشقين حرام "

فقال لها رؤوف و هو يبتسم من تشبيهها حول الحب :

" نعم .. فالسقوط في الحب هو سقوط بالفعل .. و معايشته مؤذية توقف المرء علي حافة الهلاك .. أليس كذلك "

صمتت مريم للحظات ثم قالت له :

" أتعلم هذه الكلمات تذكرني بشئ قاله لي أحدهم في السابق "

فأخذ يضحك قائلا :

" يبدو أنك لا تقابلين بحياتك إلا الأشخاص المتشابهين "

فأجابته بغصة و هي تهمس داخل نفسها خوفا من مصير كهذا :

" أخشي ذلك "

بهذه الليلة بعثت مريم بخطابها و به قالت :

" أصبحت كإمرأة عجوز تريد أن تستعيد سنواتها التي سرقت منها دون وعي ، كنت أتزين و أنظر للمرآة لأري كم أنا جميلة ثم أعود سريعا لملابسي القديمة و لوجهي الحزين ، لأعود بذلك للمرأة التي تودع الحياة بعد سنوات ليست بطويلة لم تعيشها ، سنوات لم تحيا بها أي قصة حب حقيقية إلا داخل الجدران ؛ لأنسي معها تجاعيد وجهي المرهق التي لم تظهر أثرها إلا في رأسي فقط .. و ليس بوجهي ، أملتا أن أعود للحياة سريعا قبل أن تنقضي سنوات عمري .. و قبل أن أحياها بحق هذه المرة "

علمت منذ قرأت هذا الخطاب أن مريم تشعر بألم الوحدة أكثر مني ، و أنها أدركت أنها لم تقابل حبها الحقيقي بعد .. و ذلك أمرا شديد الخطورة ؛ فهي بذلك الإدراك تفتح أبواب بحثها عنه من جديد ، و ما كنت أخشي عليها بذلك إلا أن تدمي بنانها و توحش نفسها بتجربة الحب مرة أخري ، إتجهت لمخدعي مورق و خاطري يهمس إلي أنه يشعر بخطر محدق كان راقدا و نهض ،

كان هذا مخيف وكان علي أن أتحاشى ذلك الشعور لأستطيع النوم لكني لم أجد منه مهرب ؛ فدخيلتي لم تفيض سوي بالضيق والضجر، حينها شعرت بنفسي شئ من التناقض والإنفصام ؛ فحين أنا أرجو ودها وحبها .. أود لو أستطيع منعها من الشعور بالحب مجددا ، وحين أن قلبي يسعي لكسر هذا الصمت بيننا ليحل عوضا عنه نبضات قلب مشتركة .. أرضي لها بالغرق للأبد بتلك الدموع الحبيسة ، وهنا جاء صوت مجهول ليحدثني بتلك الرغبة الخفية داخلي لكنني وعلي الفور أخذت أهمس لنفسي قائلا :

" كف عن ذلك .. ألا تخجلين من نفسك أيتها النفس ، كيف تطالبيها أن ينغلق القلب ، وكيف ترضي لها عذلت النفس وعنت الدهر، مادمت لم أقدر علي منحها الحب الذي تريد فلا يليق بحبي لها أن أخضعها لتقلبات حالي "

مر الوقت وكان هذا حالي معها .. غارق في تأثيرين متناقضين لحبي لها ، في حين كانت هي غارقة في لقاءات متكررة تعرب عن بداية قصة جديدة ، قصة حب سماها رؤوف بإسم الصداقة ، في حين كنت أعلم أن تلك النظرات التي ترسلها مريم كل ليلة للسماء تعنى أكثر من مجرد الصداقة .

وفي أحد الأيام ذهبت مريم لحفل كان يقيمه رضوان عوده في أحد المطاعم ؛ إحتفالا بإفتتاح جريدته الجديدة .. وهناك رأت مريم رؤوف لأول مرة ليس كممثل شاب بل كنادل يخدم المدعوين

، كان ضيق مريم كبير عندما إضطر رؤوف لخدمتها .. و زاد ذلك حينما أسقط بالخطأ كأس من العصير علي طرف فستان إحدى المدعوات ، و هنا إنهال رئيسه عليه بالصراخ و كذلك تلك المرأة لتدعوه بالغبي ، لم تستطع مريم بتلك الليلة أن تنسي تلك النظرات التي نظر بها رؤوف لها و عجزها عن النطق بأي شئ مما أثار لديها شعور طاغ بالمسئولية لوضع حدا لحال رؤوف ؛ فلقد كانت تراه أكثر موهبتا و ذكاء من أن يضيع موهبته تلك في حياة كهذه ، فذهبت مريم باليوم التالي لمكان عمله لتتحدث إليه مما بعث فيه غضبات غير مبررة .. قبل حتي أن تنهي مريم كلماتها .. فتراجع للخلف محاول دفعها للمغادرة قبل أن يلاحظ رب عمله الأمر ، لكنها رفضت و أثرت علي إصطحابه لمكان ما .. و عندها رفض رؤوف بحجة عدم قدرته علي مغادرة العمل .. فتوجهت مريم لمدير المكان و الذي كان يراقب رؤوف و هو يقف بصحبة مريم تاركا عمله و طلبت منه الإذن لإصطحاب رؤوف للخارج ، لم يستطع مدير المكان الإعتراض علي طلب مريم كونه يعلم علاقتها بالسيد رضوان و سمح لرؤوف بالرحيل .. علي أن يعمل بالفترة المسائية بذلك اليوم تعويضا عن رحيله ، و في غضب شديد ذهب رؤوف بصحبة مريم و التي لم تخبره لأي مكان كانت تأخذه ، و بعد قليلا من الوقت وجد رؤوف نفسه في مقر أحد الصحف .. و هناك إستقبل السيد رضوان مريم بحميمية شديدة في حين أخذ يتذكر وجه رؤوف بصعوبة شديدة و دون أن يعيره أي إهتمام أخذ

يتحدث لمريم و يتساءل عن سر ذلك الشرف و تلك الزيارة لجريدته ، هنا عرفت مريم رؤوف كإكتشاف فني جديد و موهبة فاذة تحتاج لدعم ، و كان الطلب الذي تلي ذلك التعريف هو توفير فرصة عمل في مسرح جيد له ، و كطلب خاص من مريم إهتم السيد رضوان بالأمر و راح يفتش لرؤوف عن الفرصة المنشودة .. و بعد مرور عدت أيام تلقت مريم إتصال من السيد رضوان يخبرها أنه حدد لرؤوف موعدا مع أحد المخرجين البارزين في المجال المسرحي ، و الذي يعمل علي إعداد مسرحية جديدة بدار الأوبرا المصرية ، سعدت مريم بهذا الخبر و أخذت تأكد للسيد رضوان أن رؤوف لن يخذلهم و أنه سيلاقي إستحسان هذا المخرج ، و هنا إصطحبت مريم رؤوف للأوبرا في الموعد المحدد .. و عندما همت بالدخول معه لتجربة الأداء أشار لها كي تبقي حيث هي و في و في إكبار شديد و غضب بالغ نظر إليها و وضح عدم رغبته في أن تتبعه للداخل .. ثم مشي مسرعا بطريقه تركا مريم وسط هذه الحيرة ، توقفت مريم للحظة و هي لا تجد سبب لذلك الغضب لكنها و بهدوء شديد فضلت الإنسحاب خضوعا لرغبة رؤوف .. و فقط إكتفت بالنداء بإسمه فإلتفت إليها و هنا طلبت منه أن يطمئنها علي مجري الأمور ، لتعود للجوسيان و تظل بالساعات التي تلت ذلك ترتجف خوفا عليه و علي أحلامه و دون أن تنطق كلمة مما كان يجيش بها صدرها طال إنتظارها حتي أرهقها التفكير فغفت و هي ترتكن برأسها لاحدي الطاولات ، كنت أترقب من حيث أنا ما بوسعي

فعله لأريح نفس تلك الجميل التي طال إغترابها داخل الحزن .. و لعلمي بحالها و بأن تلك العودة الباكرة لم تكن تنم إلا عن إجبار تعرضت له ؛ فما كانت مريم لتفارق صديقا في وقت كهذا و لن يمنعها عنه شئ إن أتاح هو لها البقاء ، كنت أفكر أن ذلك ما حدث أو ربما تمنيت لو كان ذلك ما حدث فرغبتي بإنهاء علاقتها بذلك الشخص كانت تحتل خلستا كل ثنايا القلب و الروح .

و أثناء ذلك كان رؤوف يحظي بإستحسان المخرج و أعضاء فريقه بشدة حتي أنه أسند له دورا هاما في مسرحيته ؛ و لقد إستحق ذلك عن جدارة و بشكل ملفت يكمن في قدر موهبته الكبيرة و تمرسه في الفن . لم يحضر رؤوف لجوسيان بذلك اليوم و لا لأيام تلته كما لم يتصل ليطمئن مريم .. التي ظنت أنه لم يوفق بالأمر ، فتوجهت للقاءه بمحل عمله لتعلم أنه ترك العمل ليتفرغ لعمله الجديد في الأوبرا ، سعدت مريم بشدة لسماع ذلك لكنها لم تكن سعيدة كونه نساها و لم يأبه بخوفها و قلقها عليه ، بدأت التدريبات و بدأ رؤوف ينشغل بعالمه الجديد عن مريم .. و التي كانت بوابته علي ذلك العالم رغم عدم إعترافه بذلك ؛ فقط ليحرر نفسه من دينه لمريم ، و بعد إنقطاع طويل إتصل رؤوف ليحدد موعد ليأتي و يصطحب مريم من أمام جوسيان لحضور أحد التدريبات النهائية للعرض .. سعدت مريم بذلك الإتصال كثيرا و كذلك السيدة تحيه التي كانت تري أن رؤوف شاب بسيط و فقير عاني الكثير في حياته ليكون مسئول عن نفسه و عن

أسرته .. و هو ليس كرشدي أو طاهر لذا فإنه سيكون زوج مناسب لمريم خاصتا عندما يحفظ جميلها تجاهه .. و بالطبع لم يكن ذلك رأي ، في ذلك الوقت كان الشتاء قد بدأ و كان أقسي من أي شتاء مضي .. و في الموعد إنتظرت مريم أمام المفرق علي ناصية جوسيان .. إنتظرت طويلا لكن أحد لم يلقاها عند المفرق .. و ظلت تنتظر حتي أمطرت السماء .. و دون وعي منها ظلت هناك متيبثة تماما تحت المطر هائمتا في فكرها عنه ، عندما لمحتها أسرعت إليها و أنا أحمل مظلتي السوداء .. لكنها لم تنتبه إلي و لا لتلك المظلة التي حجبت عنها غزير المطر الذي لم تنتبه له أيضا ، مرت لحظات قبل أن أمد يدي لألمس كتفها قائلا :

" مريم ماذا تفعلين هنا ؟؟!! .. ستصابين بالبرد "

فأخذت تهمهم و هي مازالت هائمتا في الفكر :

" لقد أصبت بالفعل .. بشئ أقوي من البرد "

فعدت لأقول :

" ماذا .. ماذا تقولين ؟؟!! "

فقالت :

" الحب كما أظن .... "

إصطحبت مريم لداخل جوسيان و عندما سألتها عما كان بالخارج قالت لي في حرج .. و بعد لحظات من التردد :

" رغم أنني قاومت نفسي طويلا .. إلا أني سقطت في النهاية ، و أرجوك لا أود مناقشة هذا الآن..فقط سأصعد لتبديل ملابسي "

بالفعل سقطت مريم في حب رؤوف ، أخذت بذلك اليوم أقرا خطابها و أنا اشعر بالخوف الحقيقي لأول مرة .. أخشي ما سيحويه خطابها للمجهول .. فاليوم و لأول مرة أشعر أني سأفقدها للأبد ، كنت أخشي أن يكون الخطاب عنه .. و أن تذكره بالحب .. فكنت بذلك الخوف شديد التردد حول قراءته و لكن كان علي أن أفعل ، و ما خشيته لم يكن بشئ يذكر أمام ما حواه ذلك الخطاب حين ذكرته قائلتا :

" عزيزي المجهول أود الإعتراف لك بأمر ، أحببته .. نعم فعلت .. لكنني هذه المرة لم أشعر بالسعادة العارمة التي كانت تجتاحني بكل مرة سبقته ، بل أشعر بجلبة محيرة و حزن دفين .. خليط من الجوي و القشعريرة اللذان يتداخلا بإستمرار .. و ألم يختلج صدري و ينزعني من كل شئ ، و رغم مظهري السعيد للغاية أشعر بقلق دائم حرم النوم علي عيناي .. شعورا عجيب غامض يختال سعادتي ، لا أضحك حين أذكره أبدا .. و لا أشعر بالراحة و لا للحظة ، أدعو الله في كل مساء أن ينهي ذلك العقاب المرير .. نعم أشعر أني معاقبة ، و أني لسوف أصبح سجينة لذلك الحب .. كالضرير أتحسس خطواتي تجاه الهاوية .. و أنا أعلم مصيري المحتوم ، أتساءل منذ اللحظة الأولي ما الشئ المختلف هذه المرة .. ما السر الذي ينهي سلام روحي حين أذكره .. و يعز في غيابه سعادتي .. و يحرمني هنئ الحال .. أتساءل أي حبا هذا الذي يقتلني إشتياق له في وجوده "

حين قرأت خطابها ذلك أدركت أنها اليوم سقطت في الحب فعلا ، اليوم فقط قد حصلت مريم علي حبها الحقيقي ، الحب الشبيه بالموت .. ذلك الذي لا يعود شئ بعده كما كان أبدا ، اليوم فقط أحبت حبيبتي .

مع الوقت لاقي عمل رؤوف و موهبته نجاح باهر لفت إليه الأنظار ، كما أخذت علاقته بمريم في التطور حتي أصبحت مريم ملازمة له .. فلم يكن من الممكن أن يشاهد أحدهم رؤوف بدون مريم و العكس صحيح ، لم تكن مريم كأي إمرأة لها أخطائها و نزواتها أو حتي تجاربها .. و لم تكف رغم كل شئ عن ترجمة الحب علي أنه فعل تضحية و مساندة ؛ لذا لم تتوقف رغم كل صدماتها السابقة عن مزاولة الحب .. و دعم من تحب بكل ما تملك ، و لم أكن استطيع منعها أو إنكار فعلها ؛ فلقد كانت صادقة في ذلك الفعل .. و في فهمها لمعني الحب ، مريم التي لم أرها سابقا كما كانت بصحبته ، فلم تكن أبدا بهذا القدر من الإشراق ، كانت مبتهجتا لدرجة يظنها الناظر أنها إمرأة لم تختبر الحزن يوما .. مما زاد جمالها ؛ فلم أرها بهذا القدر من الجمال سابقا ، كانت تتلألأ كنجمة وحيدة بليل حالك بعد أن سفكت دماء كل نجمة و أردت القمر بجمالها فقط لأنها سعيدة ، و رغم تلك السعادة المنقوصة إلا أنني أقر أنها لم تكن سعيدة بهذا القدر سابقا و لن تكون ، كانت شغوفة به لحد كبير .. كل ما بها كان يخبر عن ذلك العشق .. تلك النظرة بعينيها .. و أنفاسها المتقطعة حين تراه و إرتعاشة يدها

في مصافحته ، كانت دائما تقول أنها تكره أن يلمسها شخص لكنها كانت هي من يلمسه بإستمرار.. و لم يعرف يوما سر ذلك لكنها أخبرت المجهول عنه في خطابها قائلتا :

" لمسته للمرة الأولي قائلتا (في رأيك ماذا يعني ذلك ؟؟؟؟) فأجابني (لا أعرف !!!!) و هو يعرف جيدا معناه .. و كان أني سقطت بالحب من جديد ، كنت ألمسه برغبة جمة .. لم يدفعني إليها شهوة أو لذة .. فقط كنت ألمسه لأتيقن أنه هنا .. و أنه حقيقة أحياها و ليس حلما سينهيه الصباح ؛ فأنا و في كل مرة يغادر أشعر أنه لم يكن بالأصل ، كنت أخشي أن يكون توهم سيخفيه الصحو عني ، فكنت ألمسه لأني لم أكن أصدق ما أملكه من سعادة بوجوده ، كنت أحب تلك الطريقة التي يتحدث بها .. و التي يمشي بها .. و التي ينظر بها .. و كنت أعشق مراقبة ضحكاته الحقيقية و المزيفة علي حد السواء ، لم أكن أهوي المسرح أبدا ؛ فلقد كنت أفضل السينما عنه .. لكني أحببت أن أشاهده و هو يتقمص الشخصيات التاريخية و الأسطورية و يعبر عن خضم صراعاتهم ؛ فأنا أظن أنه يشبههم في نواح عدة .. بل كان كذلك ممتلئ بالاساطير و الخرافة ، منذ كنت صغيرة كنت أعشق قصة و شخصية ((الإسكندر الأكبر)) و لم استطع أن أخرج من رأسي حقيقة أنه أدي تلك القصة تماما كما تخيلتها .. ذلك الدور الذي زاد موهبته و سحره ، رغم أن سحر الإسكندر و ضياع هاملت و أحلام كاليجولا و غيرهم لم يكن كافيا لأعشقه .. لكن هو وحده

كان كافيا لإغراقي في حبه تماما و للأبد ، لأن هنالك كل شئ .. و هنالك هو "

نعم بالفعل كان هنالك كل شئ و هناك هو بالنسبة لمريم ، التي أصبحت كل الحياة وكل الناس يعنون لها مجرد شئ .. في حين عني هو كل شئ ، رغم كل ما أخبرت عنه مريم إلا أنها لم تكن تدرك معني ذلك الفرق و المجازفة فيه ؛ لكي تحذر من الحب .. الذي داهمها هذه المرة بالفعل ، ففي المرة الأولي التي ظنت مريم أنها أحبت كانت مجرد فتاة تنتقل من المراهقة للشباب .. تود في براءة شديدة إختبار ذلك الحلم الجميل المسمي بالحب ، و في المرة الثانية كانت كالطير الذبيح الذي سيفعل أي شئ ليتخلص من ألمه و يعوض خسارته ، أما هذه المرة فأنت يا مريم قد سقطتي في الحب حقا .. دون إدراك .. دون إرادة .. و حتي دون أسباب ، و رغم أنك لست تلك المرأة التي تحب كل من يقابلها .. إلا أنك ما زالت تلك التي تصدق بالحب بفعل القدر ، و دون أسباب سوي إرادته تسقط في الحب دون حساب .. دون مطالب .. دون رغبات .. و دون أطماع .. لا تسأل القدر عن أسباب اللقاء أو الوداع .. فقط يرضيها ما يقره القدر من مصير ،و تبذل في سبيل تجميله كل غالي .

لفت رؤوف الإنتباه إليه عبر موهبته و جهدا كبيرا من مريم و علاقات رضوان ، الذي قرر هو الأخر إستغلال ذلك النجاح لصالح عمله و إنتاج بعض الأعمال لرؤوف ، و في تلك الفترة بدأت أتبين مقتضيات علاقة رؤوف بمريم ليست إلا علاقة إستغلال

لشخص يدرك جيدا أنه يحبه ، و لذلك قررت التدخل قبل أن يستحيل الوضع هذه المرة أيضا لشقاء مريم و تعاستها .. فأنا كنت أثر حينها علي وضع حدا لمأساتها قبل أن تبدأ مهما كان مصيري و مهما كلفني الأمر ، فذهبت لزيارة رؤوف في أحد تدريباته ، حينها كان يؤدي أحد أدواره بجدارة في مسرح فارغ دوي به صوت تصفيقي الذي نبهه لوجودي ، و في بساطة و إيجاز أخذت أحدثه بخصوص و علاقتهما و التي أكد بحديثه عنها أنها مجرد صديقة ليس أكثر .. لكنها فقط صديقة مقربة ، حينها علمت أن مريم قد سقطت ضحية للحب من طرف واحد ، فطلبت منه الإبتعاد عنها إن كان يهتم بأمرها بالفعل .. فواجب الصداقة هو أن يقصيها من أجل مصلحتها ، غادرت المسرح بعد أن وعدني رؤوف بأنه سينهي كل شئ بهذا اليوم ، لكنه و بدلا من أن يفي بوعده ورط مريم به أكثر عندما سمح لها بالتسكع في الطرقات و هي تتمسك بذراعه .. ليبدأ معها سيرا طويل يزيناه بدندنة هادئة لبعض الأغاني الشهيرة التي تحبها مريم ، ثم جلس بصحبتها علي ضفاف النيل لتخبره كم يدفعها للضحك دائما.

لم يستطع شخص كرؤوف خسارة شخص كمريم .. فحتي لو لم يكن يحبها إلا أنه كان واثق بأمر حبها و هذا فقط ما كان سيضمن له مساعدة مستميته حتي يحقق أحلامه ، روي رؤوف لمريم عن لقائي به و ما طلبته منه فعادت بتلك الليلة و هي شديدة الغضب .. حتي أنها لم تستطع إنتظار الصباح .. فبمجرد أن

أوصلها رؤوف للمنزل و غادر صعدت لشقتي ، بذلك الوقت شعرت بجلبة تقترب وكانت مريم التي أخذت تطرق الباب بعنف شديد حتي ظننت أنه سيتصدع ، لم أري مريم غاضبتا في حياتي لأمر كما كانت بذلك اليوم ، و قبل أن استطيع نطق كلمة كانت مريم قد جن جنونها لتصرخ بصيحات صاخبة مضطربة و تثرثر بصوت هائج دون أن تحذر تلك الكلمات التي تبدر عنها ؛ فلقد أصابها سعيها المتوحش بالعمي فلم تدرك أنها تكاد تقصيني من حياتها مرة أخري ، حين أخبرتني أنها طلبت مني سلفا ألا أتي علي ذكر من تحب أو علي التدخل في حياتها الخاصة فأنا لست والدها و لا حتي أحد أقرباءها ، وكانت تلك هي القشة التي قسمت ظهر البعير؛ فلم يعد رجل في مثل عمري يحتمل لوعت حب ريعان شابة كمريم ، فلم أملك آنذاك سوي أن أقاطع صراخها بكلمات مريعة قائلا :

" أغربي عن وجهي .. أنت مجرد فتاة متخبطة بعقل ناشز .. تميل لإجتذاب الحثالة لحياتها .. و لا تزالين تسعي للوقوع في شرك المخادعين .. و لست علي دراية كافية أن حياتك شارفت علي نهاية مريرة ، بالفعل أنك لوضع ميؤوس منه "

دنت مريم من الباب و هي تشهق بالبكاء في حالة صدمت شديدة مما سمعت ؛ فعز علي حالها و حالي لكني شعر أنني و أخيرا يحق لي النئي عن الروح المتهورة لتلك الشابة المغرورة بالحب ، و في إصرار علي ستر محبتي تبعتها بنظري حتي إختفت فسارعت للنافذة لأراقبها تتواري عن ناظري سريعا ، حينها لم تكن كل

مواهب الكون و فنه .. قدراته و ذكاءه لتنهي تلك الحرب الطاحنة داخلي ، أي شئ .. وكل شئ .. إن اجتمع بتلك الليلة لكان عاجزا أمام ذلك الشعور الذي خلفته لي مريم ، حينها لم أقوي أن أنطق كلمة .. أو أكتب كلمة .. أو أحكي كلمة .. فقط قررت بدافع من الغضب الشديد و الحزن أن أنتقل للعيش في مكان أخر ، و حتي أنني قررت نقل مقر الدار أيضا لأحقق بذلك مراد مريم .. و أنتهي من قصتي معها ، إلا أن السيدة تحية التي أتت إلي في اليوم التالي تطلب ألا أتخلي عن مريم و التي ليس لها بهذا العالم غيرنا قد هدأت من غضبي .. لأتراجع عن قراري ، في ذلك اليوم رأت مريم السيدة تحية و هي تصعد لمنزلي في المساء علي غفلت منها ، واصار ذلك شك مريم في أمر علاقتي بالسيدة تحية .. فهي تقريبا في مثل عمري .. و هي مطلقة منذ أكثر من عشرون عام .. و أنا لم يسبق ليا الزواج ، ظلت تلك الفكرة عالقة برأس مريم لأيام .. و هي تتصور ماذا سيحدث إن تزوجت أنا و السيدة تحية .. لتجد نفسها تفكر بأن ذلك سيزيد قربنا و علاقتنا .. وكان ذلك أمرا محببا لنفسها ، و هنا وجدت مريم نفسها متلبثتا بالإشتياق و الإحتياج إلي .. و لم يمر ذلك اليوم حتي طرق بابي .. لأجدها أمامه تقف في خجل شديد و هي تحمل لي الزهور الحمراء ، لم أكن أحتاج لتلك الزهور لأسامحها .. و لا لكلمات الإعتذار الشديدة .. و لا لقبلتها علي جبيني .. أو لضمها لي .. فقط كان يكفي أن تأتيني مريم بدون أي أعذار وكلمات لأسامحها ، لكنني رغم ذلك لم استطع السماح

لها أن تأخذني لذلك المسلك مجددا حيث أغفر لها كل ذلة بدون عقاب ؛ وكان هذا لشد ما أشعر به من قسوة ، و لذلك بالتحديد عاملتها بشدة و رفض فلم أقبل إعتذارها ، و هنا أدهشها إختفاء ضعفي تجاهها و رافق ذلك كفاح مضني من أجل إلتماس العذر لنفسها و وسط تصميم كبير لم استطع مخالفة قلبي أكثر .. فما كان لي إلا أن أحتفي بتلك العينين التي أرهقهما السهر إشتياقا لي لأول مرة ، و كالباحث عن موته أخذت أبحث لها عن سبيل لتعويض الأضرار التي أحدثتها بقلبي فوجدت أن صحبتها كافية ، و لذلك ظلت مريم بصحبتي لتلك الليلة فأخذنا نتسامر و نتجاذبأطراف الحديث ، وكم وددت لو أمكننا أن نعلق بذلك المساء للأبد .. فأظل أتحدث إليها و أستمع .. و وسط كل أحاديثنا أضيع ، بذلك اليوم ذكرت مريم أمر علاقتي بالسيدة تحية .. فصرت أضحك بشدة و أنا لا أعلم حقا هل أضحكني الأمر ..أم أنني كنت أمنع بتلك الضحكات بكائي ؛ فأنا بالنسبة لمريم مجرد العم ياسين ، لم تمر إلا عدة أيام بعد تراجعي عن قرار ترك مريم حتي رأيت عبدالعليم يراقبها من بعيد ، كنت أعلم بأمر حبه لها .. لكنني لم أكن لأخمن أبدا كيف يمكن أن يتطور هذا الحب ، كان عبدالعليم شديد الكره لرؤوف .. يغضبه أن يراه بصحبة مريم ؛ لذا فكان دائما يغادر عند حضوره ، لكن مريم لم تنتبه أبدا لشئ سوي رؤوف لذا فهي لم تنتبه أبدا لأفعال عبدالعليم ؛ فتلك الغالية كانت كالأعمي .. عليم بما حوله جاهل به ، وكالأصم

السائر وسط ضوضاء صارخة .. هادئ و وحيد .

بعد عدة أسابيع قليلة قرأت خبر غريب في أحد الجرائد عن إنتحار أحد أبناء الطبقة الراقية و هو الفنان التشكيلي طاهر كُرأيم ، لم يكن ذلك مصير عجيب لرجل كان كل يوما يسلخ جلدته القديمة ؛ ليخرج للعالم بوجه أخر و ملامح جديدة .. و ليبدأ قصة خداع أخري غير تلك التي أنهاها بالأمس ، كل خطوة كان يخطوها .. كانت تشبه إقتراب الموت ، كل كلمة .. كانت تشبه فحيح الأفعي ، و كل أنفاسه كانت كذب ، رغم ذلك لم يسقط من أعلي جبل .. أو يفترسه حيوان بري .. و لم يكشف امره فيعاقب .. أو أن تتدخل قوي خفية فتعيق شره ، لم يحدث شئ من هذا ، إنتظرت طويلا لأري العدل الإلهي يحل به ، فتضربه صاعقة من السماء عقابا علي ظلمه .. أو أن يبتلعه الموج .. أو تطبق عليه الأرض ، لكن شئ لم يحدث .. بل إستمر في تجبره ، كنت أتساءل حينها أين تدخل الله ؟؟!! .. و أين عقابه للمعتدين ؟؟!! .. أين وعوده برد كيد الظالمين ؟؟! ، ثم مر ذلك الوقت لأدرك بعد يأسي أن الله يرسل عقابه و ثوابه بتصريف عجيب ، لم يكن علي أن أنتظر تلك الصاعقة .. أو ذلك الموج الهائج ..أو شق في الأرض .. فقط كان علي أن أنظر عن كسب .. لأري كل ظلم ينقلب علي صاحبه ، لم يكن طاهر في حاجة لعقاب خارجي ؛ فهو تكفل بعقاب نفسه و تنفيذ عدل الله ، كان هو تلك الصاعقة .. و ذاك الموج .. و شق الأرض ، هو صعق نفسه بظلمه .. و هو أغرقها و إبتلعها بهتكه الأعراض ،

هـو كان أداة الله لمحـض ظلمـه .. و رد كيـده ، حينهـا أشـفقت عليـه من نفسـه التي كرهتها لكل ذلك الوقـت .. و إنتظرت عقابها ، اليوم فقط أشفقت عليه .. و كذلك مريم .. التي لم تستطع إخفاء حزنها ؛ فلا ستار كان يمكن أن يخفي هذا الكم من الألم الحقيقي عليه .. و تلـك النظـرة القويـة في عينيهـا الـدامعتين حـين علمـت بـالخبر ، لتبكي بكاء مزقـت بـه قلبي و أفقـدتني راحـة بـالي ، حتي إصـطحبتها لعزاءه بنفسي ، كان أشـد ما أحزنها أنها لم تجد بقصـة رجل أحبته شئ يستحق أن يذكر .. إلا ولد في عام .. و توفي في عام .. و ما بينهما لـيس أمـرا يجـب أن يـروي ، لـم تشـمت مـريم بمصـيره كمـا فعـل الكثيرون .. بل ظل حزنها من أجله لأسابيع ، و لم أتعجب من ذلك أبدا كوني أعرف طبيعة مريم ، بتلك الأسابيع إختفي رؤوف تماما ، حتي إنتظرتـه مـريم بالمسـرح في أحـد الأيـام لتقابلـه ، كـان شـديد البرود و ظل شاردا بصحبتها .. و عندما سألته مريم عن سر ذلك .. أخبرها بأمر فتاة راها في أحد الأماكن العامة .. و هي تجلس لتنتظر وحيـدة و ترتـدي النظـارة الشمسـية .. ثـم أخـذ يصـفها و يصـف جمالها الأخاذ و كم تمني لو أمكنه رويتها مرة أخري و التعرف عليها ، بتلك الكلمات أشعل رؤوف غضب مريم التي نظرت إليه قائلتا :

" أنصـحك يـا صـديقي الحبيـب أنـك إن أردت في المـرة القادمـة ألا تضـيع ضـالتك المنشـودة عنـدما تقابلهـا صـدفة ترتـدي النظـارة السـوداء .. تجلـس في جمـال سـاحر و غمـوض تنتظـر غيرك .. أن تقتحمهـا في رفـق .. أن تأخـذ موقفـا سـريعا و مبـدع قبـل أن يـأتي

شريكها ، أجذب يدها بقوة حانية .. و أخرج قلمك .. و ليتسخ بياض كفها الحريري بالحبر .. مكتوبا به إسمك و رقم هاتفك ، و لتذكرني في المرة القادمة حين تلقاني مضطر .. أن أهديك قلما ؛ لكي تجد ضالتك المنشودة بعد الفراق ، قلما يشبه تلك الأقلام التي أكتب بها عنك "

ثم وقفت مريم لتغادر المسرح مسرعتا ، و هنا وقف رؤوف ينظر لمريم و هي تغادر في تعجب شديد من غضبها فلاحظ صديقه مغادرة مريم سريعا فسأله قائلا :

" ماذا هناك لماذا غادرت مسرعتا هذه المرة ؟؟!! "

فأخبره أنها غاضبه لأنه ذكر إمرأة أخري فقال له و هو يستنكر فعله:

" تحبك "

فأجابه :

" و أنا لا أفعل "

فقال له :

" كيف تتجرأ علي رفض الفرصة عندما تأتي إليك .. إلا إن كنت غبي"

ثم دفعه ليلحق بها ، أسرع رؤوف ليدرك مريم .. و عندما وجدها أسرع بالإمساك بيدها و قرر إيصالها للمنزل و أثناء الطريق أخذ يعتذر عن إزعاجها لكنها قالت له :

" لا أنزعج منك أبدا .. بل أنزعج من أنك نقطة ضعفي الوحيدة ،

و يزعجني أنك تعلم .. و الأكثر أن ذلك لا يحدث فرقا ، أشتعل لأجل هذا الضعف و أنطفئ .. أتألم في كل سجدتا ادعوا فيها لك .. و تجرحني كل كلمات أكتبها عنك "

نظر رؤوف لمريم و هو يبتسم بتعجب و قال :

" أتدعين لي ؟!!! "

فأجابته :

" أخبرتني جدتي أنها تدعوا لي لأنها تحبني .. و منذ ذلك اليوم و أنا أظن أن الحب و الدعاء شئ واحد ؛ فالحب هو دعاء لمن نحب بظهر الغيب..و منذ رأيتك أول مرة لم أتوقف عن الدعاء لك أبدا "

فقال لها بخفة :

" لا أعرف لماذا تعتقدين بي لهذه الدرجة ؟؟!! "

فأجابته بألم :

" لا تقلق .. إنها مجرد قناعة يمكن أن تتغير في أي وقت "

فقال لها :

" مريم الحب كذلك الشعور الذي ينتابك عندما تبدأ في الدوران حول نفسك بسرعة لتدور بك الحياة فجاءة و يتغير كل شئ .. فإن لم تكن منتبها و تبقي عينيك علي شئ ثابت ستفقد توازنك و تسقط .. لترتطم بأرض الواقع المؤلمة جدا "

فنظرت مريم إليه قائلتا :

" و ماذا يجب أن يعني ذلك ؟؟!! "

فأجابها :

" لا شئ فقط أردت أن أخبرك بذلك "

طال الحديث و طال الطريق بمريم و رؤوف ، و هي هائمتا فيه و في حبها .. حتي حذرها غير مبال من العربات المسرعة علي الطريق كي لا تصرع فأجابته :

" لست خائفة فأنا أعلم طريقة موتي و موعده "

فأجابها هازئا :

" إذا كيف سيكون الموت حين يزورك ؟؟؟ "

فأجابته بحسرات هو سببها :

" سأموت إمرأة عجوز جدا في فراشا .. لكنه ليس فراشا دافئ .. بل فراشا يتأكله البرد في ليل مظلم و مخيف ، بعد معانات و صراعا مع مرض قاتل لسنوات .. لا هو يهزمني .. و لا أنا أهزمه .. و لا يجرا أحدنا علي الإستسلام ، وحيدة أنادي ماضيا أحرقه النسيان .. كما سبق و أحرق هو ضلوعي قهرا ، أتضرع إلي الله في لهفة أن ينهي شقاء روحي ؛ فلم يعد المرض يحتمل صراعه لي ، لا أذكر من عمري الا أول لقاء .. و أول إبتسامة .. و أول لمسة يد ، و سريعا أستنشق عطرا من ماضي حملته إلي الذكري .. أتجرع به مرارة أني سبق و أحببت ، أتعجب كيف يكون الموت أكثر جاذبية من الحياة .. و أشد لذة من الحب !!!! ، أستلقي علي فراشي و لا أحد يمسك يدي .. و لا أحد يخشي الفراق .. و لا أحد يذكرني أو يلتفت حين ينادي المنادي بإسمي ، و ليته ينادي بطريقة موتي

أيضا لتدري حينها كيف تسببت أنت بأن أموت بقسوة وحيدة ، و لتعلم أني كنت حقا أعرف طريقة موتي "

حينها أمسك رؤوف يد مريم ليضمها بين يديه و هو يقول :

" لن يحدث ذلك .. أنت فقط فتاة كئيبة "

ثم أخذ يضحك و يدفعها للضحك ، لم يكن رؤوف يهتم لمريم حقا .. لكنه كان يرفض فكرة خسارتها ، لكني لطالما إعتقدت أنه كان يحبها لكن لحد اللامبالاة ، يحقد عليها بتعلق شديد ، يثق بها بشك بالغ ، و يظن بشدة أنها لا تحتاج إليه ، و عندما كانت تخبره بإحتياجها .. كان يتساءل كيف ذلك .. فلم تجد هي الكلمات المناسبة للإجابة أبدا ، و في احد الليالي أرسلت مريم خطابا به قالت :

" كان يميل تارة و ينفر تارة ، يتساءل عن ما بخاطره أكثر مما أفعل ، كان يريد أن يحصل علي إجابة لسؤاله .. كيف أحتاج إليه ؟؟!! و كأنه يريد أن يملك الغلبة علي نفسي .. و هو لا يدرك أنه يملكها بالفعل ، أما عني فلم أكن أملك إجابة لسؤاله ؛ فما كنت أحتاج إليه فيه أمور لا تصفها الكلمات .. بل فقط يمكن أن يشعر بها القلب ؛ فحتي أكثر البشر بلاغة سيعجز لسانه أمام من يحب و لهذا أخرس لساني أمام سؤاله .. فظن أني لست بحاجته ، و الله يشهد أني لأشد الناس تعلقا به و إحتياج ، أشد من أمه التي ولدته إحتياجا .. و أكثر من أبيه الذي رباه تعلقا ، و أني لأشهده أني فيه تبت عن كل ذنب .. و عجزت عن كل إثم "

هذا ما باح به قلبها للغرباء .. فماذا عن ما أخفاه ؟؟؟؟ كنت أعلم أنها لم تقابل بكل من سبقه حبها الحقيقي ، لكنني أبدا لم أكن لأخمن أن بطلة روايتي الأهم ستسقط في حب رجل نذل .. ليكون هو حبها الوحيد الذي يسقطها في قاع العجز و الهرم و هي مازالت شابة جميلة ، الرجل الذي سيقتل شبابها بدفنه حيا و يظل يراقبه يحتضر و هو يضحك ، كانت هناك أشياء لا يمكن التغاضي عنها أبدا .. و ما حدث كان منها .. لكن و لأنه الفاعل تغاضت مريم مجبرتا عن كل ما كان منه .

و بحلول عام إحتضن رؤوف ذيوع شهرة و نجاحا باهر .. عروض متدفقة للعمل مع أشهر شركات الإنتاج .. و أفلام لأقة إستحسان الجماهير و النقاد علي نحو يصعب حصره .. هذا ما ألت له حياة رؤوف في صحبة مريم و مساعدتها ، أما عنها فلم تحظي إلا بالكثير من الشائعات الجارحة .. التي أحاطت بعلاقتها برؤوف .. تلك التي تركت الكثير للشكوك و القيل و القال حولها و حول علاقاته المتعددة بمعجباته ، حتي أرسل السيد رضوان في طلب مريم لتقابل مندوب من السيد ميليس ، و الذي كان مستاء لأمر تلك الشائعات و التي خشي أن تأثر علي إستثماره مع مريم ؛ لذا و بعد تفكير طويل توصل ذلك المندوب لحل و هو قطع مريم علاقتها برؤوف ، و بالطبع رفضت مريم فأشار بأمر الزواج منه ، لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة التي ظنها الجميع .. فليس لمريم الوضع المناسب للمطالبة بالزواج ، و حتي ينتهي الأمر قرر السيد

رضـوان تكـذيب كـل شـائعة تحـيط بمـريم ؛ ليضـمن الإسـتقرار لأعمالها مع المسيو ميليس و التي كانت تتنامي شئ فشئ ، عندها أتت إلي مريم و هي مستاءة مما حدث .. و متسائلة حول المكسب الذي سيحصل عليه هؤلاء الأشخاص الذين ينسجون الشائعات حولها و حول رؤوف فأجبتها قائلا :

" بهذا العالم كما هناك من يطفئون الحراق هناك من يشعلونها .. و يستفيد مما إحترق .. و كثيرا من الصحفيين كذلك .. إن لم يكن جميعهم ، لكن الأن ما يهم هو قرارك أنت "

لكن مريم لم تكن تملك الخيار ؛ فهي ككل إمرأة عاشقة .. تحيا إشكالية كبري كونها تكون عاشقة بدوام جزئي و أم بدوام كامل ، تقلق و تخاف .. تدعوا و تتألم لألمه .. تفكر في مستقبله و تسهر لراحته إن سمح لها .. و هذا ما منع مريم من الإبتعاد ، إستمرت علاقة مريم كما هي و إستمر رضوان بتبريرها في الصحف بالصداقة ، و بعد مرور فترة صغيرة حقق رؤوف نجاحا هام في مهنته و بتلك المناسبة قررت مريم الإحتفال به ، فنظمت حفل ضخم و دعت إليه الكثيرون من الحضور .. و بعد إنتظار طويل لم يحضر رؤوف .. و لم يتصل للإعتذار .. فقط لم يحضر، يومها عادت مريم وحيدة من الحفل الذي رفضت و السيدة تحية حضوره ؛ فلقد أصبحت هي الأخري شديدة الرفض لفكرة علاقة مريم به و حتي أكثر مني ، عندما رأيت مريم كانت صامتتا لا تنطق بكلمة فقط ذهبت لغرفتها مدعيتا أنها ترغب في النوم ، لم يكن

خطابها ذلك اليوم هو خطاب أحتاج لقراءته ؛ فلقد قرأت قبله بعيونها كل شئ ، لكنني علي العهد قراءة خطابها ؛ فأنا المجهول .. الذي يجب أن يقرأ ما تكتب مريم كل ليلة ، و في ذلك الخطاب قالت مريم :

" و جلست أنتظر وصوله في لهفة مذلة .. مهينة لفني ، أراجع ذكريات لا تليق بي ، أهمهم داعية أن لا ينساني هذه المرة أيضا ؛ فيشمت بي الكارهين .. و يشفق علي أحبابي ، دقت ساعة الحائط .. و مرت ساعة وصوله ، بغير وصول ، دبت الريبة بين الحضور كالنار في الهشيم سريعة و قوية .. و مازال لا يجيب ، في حرج بدء الحضور ينسلون مغادرين .. و مازلت أنتظر ، مرت الدقائق .. ثم الساعات .. فتحولت من إنتظاري له لإنتظاري لإعتذاره .. و حتي ذلك قد تغيب عن الحضور ، لأنظر حولي و أجد الكل قد إنصرفوا .. مخلفين لي نظراتهم .. ما بين عتاب .. شماتة .. و شفقة ، لأجلس وحدي علي طاولة في ركن صامت مخيف .. و لم يبقي لي سوي الهدية في الحقيبة السوداء و مساء باردا .. و نادل يسألني بعد مرور الساعات هل ألغيت الحفل .. لأتركه دون جواب ، مغادرتا أمر بطاولة الإحتفال .. و مازالت قائمتا تنتظر مريديها .. لم يتغير بها سوي الشموع .. التي ذابت في الإنتظار ككرامتي "

إمتلأت كل صحف اليوم التالي بخبر عن ذلك الممثل الشاب الذي لم يحضر حفل حبيبته ، و دعم كل خبر إشاعة تسئ لسمعة مريم مرة أخري ، و سريعا امتلئ هاتفها رنين من شركائها

و الصحفيين .. و حتي السيد رضوان .. الذي أخذ يطمئنها مؤكدا أنه سينهي هذه الشائعات سريعا ، لم تأبه مريم للأمر قدر ما كانت حزينة لغياب رؤوف عن حفلها ، حتي أنها لم تنتبه لكون تلك الشائعات تسير في إتجاه كونها حبيبته التي هجرها ، لكن الأمر كان هاما بالنسبة للسيدة زينب التي إتصلت سريعا فور قرأتها للصحف لتتساءل حول حقيقة تلك الأخبار و تحذرها من ضررها البالغ علي سمعتها و سمعة عائلتها ، و كذلك السيدة تحية التي أخذت توبخ مريم بشدة و تتهمها بكونها لا تهتم لوضعها .. و لا لسمعتها التي تدنست بفعل تلك الشائعات ، دفعت نبرة الغضب و الكلمات الحادة من السيدة تحية مريم للبكاء و المغادرة سريعا ، لذا و رغم قناعتي بما قالته السيدة تحية إلا أني لم استطع منع نفسي من لومها علي تلك الطريقة التي تحدثت بها لمريم ، ثم صمت و أنا أنظر إليها و أعلم جيدا أن ما قالته نتيجة خوفا شديد و حرص علي مريم ، حينها نظرت إلي قائلتا :

"هل تعرف ماذا يقول الناس ؟؟؟؟ "

فأجبتها :

" الناس تقول الكثير من الأشياء و الأمور التي لا وجود لها .. و التي لن تحدث فرقا أبدا "

ثم ساد صمت مطبق للحظات عدة بعدها عدت لأقول :

" و الأن أصغ إلي .. كلمات الناس لن تحول القديس لعاهر .. و أيضا لن تحول العاهر لقديس .. مهما كانت ، و أنت تعرفين مريم

جيدا "

فنظرت إلي و هي تقول في غضب شديد :

" لكنهم لا يعرفونها "

ثم غادرت السيدة تحية و تركتني وحيدا لا أنفك أفكر في حال مريم ، فبالفعل كنت أعرف مريم و تعرفها السيدة تحية و كذلك السيدة زينب .. لكن أحدا أخر لم يعرفها كما عرفناها نحن ، عندما لحقت بمريم وجدت باب غرفتها مفتوح ؛ فهي لم تنتبه لكونه لم يغلق ، فأخذت أراقبها من الخارج و هي تمزق تلك الصحف في غضب شديد و تبكي و هي تردد :

" لماذا ... لماذا ؟؟!! "

بعد لحظات لم استطع أن أتركها وحيدتا أكثر من ذلك فدخلت للغرفة و أمسكت بيدها قائلا :

" تمزقين كل ورقة تحكي عنه و تذكره .. لكن هل من الممكن أن تمزقي عقلك أيضا ؟؟؟؟ "

حينها سقطت مريم جالستا علي فراشها تبكي بمرارة و هي تقول :

" مازلت لا استطيع الإستغناء عنه ، ربما أحتاج فقط للقليل من الوقت .. و أعلم أن كل شئ سينتهي في الأخير ، و حينها ستكون خسارتي الوحيدة هي مجرد وقت "

نعم كانت مريم تدرك جيدا أن علاقة كتلك لن تدوم للأبد ، لكنها كانت تحتاج للقوة حتي تنهيها ، و تلك القوة كانت تحتاج للوقت ؛ لذا لم استطع قول شئ فغادرتها ، و ليتها أدركت يومها

أن الـذي تتخلي عنـه لـيس فقـط مجـرد الوقـت .. بـل إنـه عمرهـا الوحيـد الـذي تملكـه ، كـذلك القلـب .. فهـو واحـدا أيضـا ، و هـذه المرة قـد تخلـت عنـه حقـا لمن لا يسـتحق ؛ فحـين نصـبح شـديدي الإحتياج لحب من لا يشعرون نظل وحيدين للأبد ، لكن ماعساها تفعل في حين إتفق عقلها و قلبها ألا يتدخل أحدهم في عمل الأخر فأفسد قلبها الأمور دون علم عقلها .

بعد أن وصلت تلك الشائعات و الأخبار لرؤوف قرر الإتصال بمريم لكن السيدة تحية من أجاب ذلك الإتصال و كنت بصحبتها داخـل جوسـيان .. فكادت تنهيـه بعـد أن صـبت وابـل غضـبها علي رؤوف ، إلا أنني أوقفتهـا و طلبـت منهـا أن تسـتدعي مـريم بالحـال ، نفذت السيدة تحية ما طلبته منها بعد بثقل و رفض ، لكنني كنت أدرك جيـدا أن مـريم هي صـاحبة القـرار ؛ فـلا يملـك أيـا منـا الحـق بإخفـاء أمـر إتصـاله عنهـا ، و عنـدما تحـدثت مـريم لـرؤوف ظلـت صامتتا تصغي في ضيق ، في حين كان رؤوف يحاول تحديد موعدا للقـاء ليعوضـها عمـا كـان ، لـم أكـن أعلـم حقـا مـا كـان الـدافع الحقيقي الـذي إنطوت عليـه هـذه الـدعوة و لـم أكـن لأتكهـن بقـرار مـريم ، التي وافقـت في النهايـة بعـد رفـض شـديد و إصـرار و رجـاء طويـل و إعتـذار ملئ أذنيهـا فـرؤوف ظـل يلهـث بضـراوة لإسـتجداء مريم و خطب ودها ، بعـد يومين و في الموعـد المحدد إنتظرت مريم و هي تحمـل هديـة رؤوف للمـرة الثانيـة ، إنتظـرت علـي مفـرق الطرقات ،ظلت طويلا دون جدوي .. و لساعات طوال ؛ خشيت أن

يحضر فيظن أنها لم تنتظره .. حتي أظلمت عليها السماء .. و إشتد البرد .. و حتي ذلك لم يكن كافيا لتدرك مريم أنه لن يأتي أبدا ، بعد مرور أكثر من ثمان ساعات أدركت السيدة تحية أن مريم لم تغادر مفرق الطريق فأتت إلي .. تطلب تدخلي .. فمريم كما قالت فقدت عقلها تماما هذه المرة ، نعم بالفعل فقدت مريم كلا من عقلها و قلبها هذه المرة دون رجعه ، عندما ذهبت إليها كانت تدمدم داعيتا ليحضر ، ثم أخذت تتنفس بصعوبة و تنظر إلي و هي تشهق أنفاسها قائلتا :

" لكنه عاهدني بشرفه علي المجئ هذه المرة "

ثم إرتمت بين أحضاني تبكي بحرقة ، و كنت أظن حينها أنها تعلم معني غيابه أول مرة .. لكن ذلك لم يكن مهم أبدا أنما ما شعرت به حين عانقتني مريم فلقد صدمة لعدم وجود ضربات قلب فأخذت أردد كلماتي في تحسب :

" دعك من العهود و الدموع .. فالقلب القاسي يا عزيزتي لا يستجيب لها ، ما تملكينه يا غاليتي هو إجتياح مشاعر صادقة لقلوب لا تشعر"

لكن مريم لم تسمع شئ مما قلته ؛ فقد فقدت وعيها بين أحضاني ، عندما جاء الطبيب أخبرنا أنه لا يستطيع تحديد مرض مريم .. أو مما تعاني .. إلا أن درجة حرارة جسدها و ضغط دمها المرتفع يشكل مشكلة ؛ لذا فيجب أن تنخفض تلك الحرارة و هذا الضغط بسرعة .. و إلا شكل ذلك خطرا علي حياتها ، أخذت

السيدة تحية تنتحب علي حال مريم .. و قررت السيدة زينب الخروج لأول مرة من دار المسنين لتأتي للإعتناء بها شخصيا ، الكل قرر الإعتناء بمريم ظنا أنها مريضة .. حتي الطبيب لم يستطع تخمين أمرا سوي الحمي ، لكنني كنت أدرك جيدا أن مريم لم تكن مريضة .. و انما كانت سقمها هو الفؤاد المفطور .. لم يكن أي دواء يمكنه أن يشفي مريم ؛ فبصعوبة كان جسدها يتجاوب مع الدواء و الطعام ، و لحالها لم يخلي المنزل من البكاء من كلا السيدتين ، كما لم يغفوا منا أحدا ، بعد أيام أتي رؤوف لزيارة مريم التي لم تكن تقوي علي مغادرة فراشها و علي الرغم من ذلك وقفت بصعوبة وبين تضارب عواطفها طلبت من السيدة تحية دفعه للرحيل ؛ فلم تكن تقوي علي رؤيته أو الإستماع لمزيد من أكاذيبه و وعوده المؤذية ، و بالفعل غادر دون رؤيتها .. إلا أنها مع ذلك لم تستطع منع نفسها من مراقبته عبر نافذتها و هو يبتعد ، حتي أنني استطع ت أن أميز وجوده عندما لمحت مريم تقف أمام نافذتها كظل شاحب .. لا تنظر للسماء لأول مرة .. و إنما إنحنت عيونها للأرض بحذر تتصيد في لهفة و رضوخ وصل مغادر .. فعلمت أن لا شئ يمكن أن يطيح بنظر مريم عن السماء سوي شئ واحدا أثمن بالنسبة لها من نجوم السماء .. وكان هو ذلك المغادر للبعيد ، سعدت كثيرا عندما علمت أنها رفضت لقاءه .. و أثار ريبتي أمر تلك الزيارة و ما تلاها من محاولاته المستميتة للقائها و الإتصال بها رغم أن تلك المحاولات كانت السبب الحقيقي خلف تعافي مريم ، بعد

فترة قصيرة عادت مريم لحياتها و نمطها اليومي ، و عادت السيدة زينب لدار المسنين .. رغم كل الرجاء من مريم و مني و من السيدة تحية لتبقي .. إلا إنها لم تكن شديدة الراحة كما كانت في غرفتها الصغيرة بالدار ، و بعد عدة أيام أتي رؤوف مرة أخري لجوسيان ليفاجئ مريم بحضوره .. و التي حاولت التهرب منه .. إلا أنه أسرع و أمسك بذراعها و جذبها لتقترب إليه قبل أن تختبئ داخل غرفة المطبخ ، و بعد لحظات إستطاع دفعها للتحدث له .. و هنا أخذ يخبرها كم أنه يحتاج إليها و لا يستطيع تخيل حياته بعد خسارتها فهي شئ هام بالنسبة له .. لا يمكن أن يجازف بخسارته يوما .. و إنهال بجدول من الحنين و الإشتياق علي مسامع مريم ، لم تستطع مريم أن تصم الأذن هذه المرة ؛ فقد عني كل ذلك لها الكثير.. حتي أنه عني أكثر مما عني مرضها و حزنها الذي سببهما ، بعد ذلك اليوم عاد رؤوف لوتيرته الأولي فلازم مريم في كل مكان و أخذ يقربها إليه ، و عادت مريم لتشرق من جديد و تخلع عنها اللون السائد للحزن و المرض ، كنت أدرك جيدا أن هناك سبب وراء تلك العودة ، لكن مجرد رؤية مريم تستعيد عافيتها و إبتسامتها قيدتني .. حتي لم استطع الإعتراض ، وكذلك كان حال السيدة تحية ؛ فلم يكن مرض مريم هذه المرة بالأمر السهل الذي كان يمكن أن نخاطر بعودته ، بعد فترة قصيرة من ذلك الوصل الغريب لم تتعدي حتي الأسابيع أتي رؤوف لمريم و هو شديد الإستياء و الحزن .. ظل صامتا لوقت طويل حتي أخذت

مريم تتساءل عن السر خلف حاله .. فأخبرها أنه أفلت فرصة ضخمة كانت ستطور عمله و تدعم نجاحه ، و عندما سألت مريم عن سبب تركه لتلك الفرصة إن كانت بهذه الأهمية ، أخذ يشرح لها سبب ذلك .. و هو إحتياجه لأموال أكثر من تلك التي يملكها .. لتساعده في المساهمة في إنتاج عمل سينمائي ضخم و الذي كان سيصبح بطله .. مع العلم أن لا شركة إنتاج تود أن تخاطر بكل تلك الأموال في فيلم واحد ، إنتهي لقاء رؤوف بمريم بعد أن بث إليها فكرت واحدة .. و هي أنه أصبح بضياع تلك الفرصة محطما .. فأحلامه تضيع بعد أن شارفت علي التحقق ، حينها لم يكن من مريم إلا أن أحضرت له المال سرا ، في بادئ الأمر إدعي رؤوف أنه لا يمكنه أخذ ذلك المبلغ .. كونه ليس واثقا من نجاح عمله و بالتالي من قدرته علي إعادة المال إليها ، لكنها أصرت .. و بذلك الإصرار حصل رؤوف في النهاية علي عون مريم الذي حقق مراده ، نجح رؤوف و نجح الفيلم نجاحا باهرا أحدث نقلة كبيرة في مسار نجوميته .. فأعاد المال لمريم بعد أن أنقذت أحلامه كما قال لها ، كنت دائما أتساءل عن ماهية تلك المرأة خلف كل رجلا ناجح .. و عندما قابلت مريم علمت أنها مجرد إمرأة عاشقة .. تقف خلف الرجل الذي أحبت ليصبح أكثر نجاحا .. و تظل هي مجرد إمرأة خلف رجلا ناجح ، فنجاح رؤوف لم يعني شئ سوي أنه حقق مبتغاه أخيرا و ليس لذلك شأن بحياة مريم ، و بعد فترة قصيرة بداء عرضه المسرحي .. و أخذ يسافر به لكل الأقطار البعيدة ..

فإنقطع إتصاله بمريم ، فعادت لترتدي لون الحزن في غيابه .. حتي عاد لمصر ، و في عرضه الأول ذهبت مريم للقياه في المسرح ، و هناك طلب إليها ألا تنتظره بعد العرض .. و وعدها بأن يحضر للقاءها في جوسيان ؛ لأن هنالك أمرا هام يجب التحدث بخصوصه . بالفعل غادرت مريم و أثناء ذهابها رأها صديق رؤوف مغادرتا فتبعها بعينيه و هي ترحل ، ثم نظر إلي رؤوف الذي كان يقف أمام المرأة و قال له ناصحا :

" لماذا لا تتزوجها ؟!!! "

فأجابه بضحكة مستترة :

" كيف أتزوج إمرأة و قلبي لأخري ؟!!! "

فسأله صديقه في دهشة :

" إذا ما الذي يبقيك علي علاقة بها "

فأجابه و هو يلتفت إليه باسما :

" إنها عبقرية بدون أن تتعلم .. و دون أن تدرك ذلك ، تملك الجمال الفطري البريء .. رغم ذلك يمكنها أن تهزم مائة رجلا يعاديني دون أن تفقد شئ ، يمكنها تحمل الكثير من الألم .. مع الإحتفاظ بقوتها ، إمرأة مثلها دائما ستكون إستثمارا ناجحا .. و سلاح قوي و شرس ضد أعدائي .. و سبيل لكل ما أريد "

فقال له :

" إذا دعني أخبرك بشئ وإستمع إليه جيدا .. رجلا في مثل حالك لا يصلح للحب ، فقط إمرأة ثرية .. أو إمرأة ذكية ، فالثرية ستبنيك

بمالها .. و الذكية ستدفع بك للإمام فتغتني ، و علي من ستختارها أن تحبك بشدة ؛ فأنت لا تملك حقا ما تهبه لأي منهما ؛ فتلك الأنواع من النساء لن تحتاجك إلا إذا أحببنك "

وكانت تلك النصيحة هي حقيقة وضع مريم بالنسبة لرؤوف الذي أخذ يخبر صديقه أنه علي أي حالا لم يعد في حاجتها بعد ذلك ؛ فما كان يحتاج إليه من نجاح قد تحقق بحيث لن يحتاج لمساعدتها أو مساعدة غيرها بعد ذلك لإستكمال رحلته .. و هذا ما إعتقده رؤوف ، في مساء اليوم التالي أتي رؤوف لرؤية مريم فإستقبلته بعيونها من بعيد عبر زجاج جوسيان ، و أخذت تعد له مجلسا .. و تبتسم للقياه ، في حين دخل جوسيان مختال بزهو أسرعت هي بإجلاسه .. و أخذت تحضر له كل إبداع و جمال في جوسيان ، و دون أن يبتسم إبتسامة واحدة أخذ ينظر لكل شئ يحيط به بكبرا و غرور ، أثار تساءل مريم .. حول ذلك الصمت .. و تلك النظرات ، و هنا بدأ رؤوف يخبرها أنها تتصرف بحماقة شديدة .. و اسلوب غريب و محرج .. يسير الشائعات حول علاقته بها .. و يسئ لفنه و شهرته ، ثم نظر إليها قائلا :

" نحن مجرد صديقين ... صديقين فقط يا مريم ، فأنا لا أحبك و يجب أن تدركي ذلك .. و يدركه الجميع "

ثم إنهال عليها بخطابه غير الكريم الممتلئ بكلمات التبجح و القسوة و التجريح و أجمله في عبارات قصيرة ؛ و هو يخبرها عن حدود تلك الصداقة الزائفة بينهما ، ثم أخذ يضني كيانها دون

رحمة وهو يخبرها انه لا يستطيع حب إمرأة مثلها ، إمرأة تدفع بكل شئ حولها لتفعل ما تريد .. و تحل كل أمرا يستعصي .. حتي تفقد وسط كل ذلك أنوثتها .. حين تفقد ضعفها و إحتياجها ؛ لذا فهو لا ينظر إليها كإمرأة أبدا .. و إنما كمجرد صديقة ، لم تجد مريم كلمات تتناسب مع ما يقوله رؤوف .. الذي أخذ يدفعها للخروج عن صمتها و قول شئ .. رغبتا في أن تعده بتنفيذ ما يريده ، حينها أسقطت مريم أهدابها إلي الأرض .. و أخذت تتنفس بصعوبة و هي تتصبب عرقا بعد أن جف الماء من حلقها ثم تنهدت بصوت مرتفع و هي تقول :

" من العبث أن أنتظر منك المزيد ، أذكر جيدا أول جملة كتبتها في دفتر يومياتك علي غفلت منك (حاول أن تصبح شخص أفضل ، ستكون من أشد الخسائر أن تأكلك النار) فعدت بعد يوم واحد .. و قد فقدت مفكرة يومياتك "

فقاطعها رؤوف و قال لها في حدة :

" و ماذا يجب أن يعني ذلك ؟؟!! "

فعادت مريم لتقول :

" لا شئ .. لا يعني أي شئ ، فقط أرجوك ألا تضف الإهانة إلي القسوة دون أن تفهم أسبابي و لن تفهم أسبابي إلا إذا عشتها .. و لا أظنك ستفعل ، أن تحب شخص لا يحبك .. في الواقع لا شئ أكثر مأساوية من ذلك إلا كونك لن تستطيع أن تنساه ، لكن علي أي حال لن أحتمل أكثر فكرة أن علاقتي بك هي مجرد جريمة

سرقة .. اسرق الوقت لاقضي معك بضع ساعات ثم تغيب ، لن استطيع اكثر و لا حتي علي سبيل الصداقة ؛ لذا يمكنك أن تطمئن ، فقط أنا أطلب منك أن تمنحني شهرا .. شهرا واحد لإنهاء ذلك الولع الأعمي .. و حتي تلك الصداقة "

رفض رؤوف أمر ذلك الشهر ؛ فهو لم يجد سببا مقنعا لذلك الطلب .. و هذا بالطبع لأنه لم يعلم ماذا يعني طلب كهذا ، و ظن أن مريم إما تماطل أو أنها تخدع نفسها ، ثم نظر رؤوف لمريم و سألها لماذا هو بالأخص ، ففي ظنه كان هناك الكثيرون الذين لا يمكن أن يصبح واحدا منهم ، حينها نظرت مريم إليه بحسرتا و لم تملك ما تخبره به .

غادر رؤوف مريم دون أن تعني كلماتها له شئ ، في ذلك الوقت كنت عائدا من المطبعة فلمحت مريم عبر زجاج جوسيان و هي تبكي .. مشيعتا رؤوف بعيونها حتي غاب ، و لم استطع منع نفسي من اللحاق به ، و رغم أني لم أكن أعلم حقا ما حدث بينهما .. إلا أن تلك النظرة بعيون مريم .. لم تكن لتتوقف عن البوح ، فعلمت أنه السبب خلف هذا البكاء ، عندما تأكدت أن رؤوف قد إختفي تماما من مجال رؤية جوسيان أوقفته و أخذت أساله عما يريد حقا من مريم ، فأخبرني أنه لا يريد شئ أبدا ، فسألته عما دار بجوسيان .. فأجابني أنه فقط أخبرها الحقيقة .. حقيقة أنه لا يحبها .. و لم يحبها يوما ، لم أكن أود النطق بتلك الكلمات .. إلا أنها تسربت علي غفلتا من بين شفتي فقلت له :

" ألا يـؤثر هـذا فيـك أبـدا ...... ، لقـد أنعـم الله عليـك بكـل شـئ ..
ياليته أنعم عليك بقلب أيضا "
فنظر إلي و قال في عناد و بكل دم بارد :
" هي فرطت في قلبها .. و عادت لتبحث عنه .. فما ذنبي أنا ؟؟!! "
فأجبته :
" أتدري يا صديقي ما سر أنها لا تزال مغرمة بك بعد كل شئ ؟؟!!
ليست سيارة الإسبور السوداء التي لم تكن تملكها ، و لا المنزل الضخم الذي لم تكن تسكنه ، و بالتأكيد ليست ملابسك المستوردة من الخارج التي لم تكن تشتريها ، و لا شهادتك العليا التي لم تحصل عليها ، و ليس رصيد البنك الفارغ الذي كنت تملكه ، و لا المستقبل المجهول لولاها ، و إنما ما زالت مغرمتا بك من أجل .... "
فقاطعني رؤوف بسرعة و هو يقول بخفة :
" لأنني مختلف ، هي دائما تخبرني بذلك ، مختلف عن كل من قابلت بحياتها "
فنظرت إليه و أنا أبتسم ساخرا و أقول :
" بالفعل لم تكن تشبه أي شخص أحبته مريم من قبل ؛ فبمثل أنانيتك و قسوتك لم يكن أحدهم "
فقال لي و قد أثرت غضبه :
" و كيف لا يقول ذلك ظلها "
فنظرت له قائلا :

" لا يحزنني أن أكون مجرد ظل لها ، فهذا المجرد ظل .. هو الشئ الوحيد الفارق بين كون الأشياء حقيقية كمريم .. أو مجرد وهم مثلك"
فأخذ يضحك في إستهزاء و هو يقول :
" هل لديك أمرا أخر لتخبرني به أيها الظل الحقيقي "
فأجبته :
" بالفعل يجب أن تهزأ لأنك لا تعرف حقا ما خسرته حين خسرت مريم "
فنظر إلي و هو يدخل لسيارته و يقول :
" لا أعتقد أنها بالأصل كانت مشروعي الرابح "
فملت لاتكئ علي نافذة سيارته و أنا أقول له :
" أولا .. البشر ليسوا مشاريع ، ثانيا .. أنت تري بعينيك لذا يسهل خداعك ، و أنا شديد السعادة لذلك "

ثم غادرت و غادر رؤوف ، و أنا لا أعرف إن كان سيفكر فيما قلته له و لو للحظة أو لا ، عندما عدت لجوسيان أخذت أسأل مريم عما حدث ، و عندما روت لي ما كان نظرت إليها و ربت علي يدها قائلا :
" مريم إن لم يتقبل قوتك فكيف كان سيتقبل ضعفك و عيوبك؟!! "
فنظرت إلي قائله :
" لم يشعر بي أبدا ، ربما كان يشبه الجماد أمامي .. أو ربما كنت

أنا كحجر أمامه ، ليس لاحدا أن يشعر به ، عندما أخبرني أنه لا يحبني .. أخذت أساله ان كان يكرهني ، كنت أحتاج أن يشعر تجاهي بشئ .. أي شئ .. حتي لو كانت الكراهية ، فذلك كان أفضل بالنسبة إلي من ألا أعني له شئ بعد كل ذلك الوقت "

في تلك الليلة كنت أعلم أن النوم سيجافي عيون مريم .. و أنها ستظل بخضم شقائها تراقب السماء ، و أظل أنا أراقبها ، هذا ما كلفنا حبها الشديد ، كنت أسمع صراخها و تنهداتها الزاعقة عبر المطر .. التي أغرقت كل شئ بتلك الليلة ، سمعت صوت قلبها يعلو بذلك اليوم علي صوت الرعد .. و هي تدعو الله بشغف لرجوعه ، أن يسلبها كل ما تملك .. وكل ما تمنت .. و كل ما سعت له لسنوات عمرها القصيرة .. فقط ليعود ، كانت تبكي و تصرخ لله أن يعيده .. أو أن يتوقف قلبها عن النبض ، تمنت رجوعه .. و إن ذهب الجميع .. حتي أنا .. و حتي تلك المرأة التي ربتها .. حتي و إن عم الكون الخراب .. فسيظل قلبها برجوعه عامرا ، كانت تقول لله بدموع حارقة :

" يا إلهي فليعود هو و ليذهب الكل بعده ، يا إلهي أود لو يمكنني الإختيار .. أود لو أمكن إبرام إتفاق بيني و بين القدر ، و ليبقي و ليرحل دونه كل شئ ، هل يمكن أن تقبل بذلك أيها القدر ؟؟؟؟"

حينها فقط أدركت أنها و لأول مرة أدركها الغرام .. لتتجاوز بذلك مرحلة الحب ، لم تحزن مريم علي شئ فقد منها .. كما أحزنها فقده ، و لم تضحي بأحلامها من أجل شئ .. كما ضحت له ، لم

أكن أستطيع أن أفرق بين دموعها و قطرات المطر ؛ فكلاهما كان ثقيلا باردا و مخيفا ، كما لم يختلف صوت نواحها عليه عن صوت الرعد .. مرعبا إلا أنه كان أمر و أشد إختناقا ، و تلك الغصة داخلها كانت أشد سواد من الليل الخالي من القمر ، كنت أكتب عنها و أخشي من أن تقرأ يوما ما أكتبه .. فقصتي عنها لم تكن للقراءة ، و إن قرأتها يوما تلك الجميلة لتدرك ما رأيته بها ، ستعلم بحبي .. و تركي لقلبها يحتضر وحيدا .. فتكرهني ، و ستعلم حينها أنه لن يعود ؛ فأسوء كاتب لن يخطئ بحدث كإعادته لحياتها .. فماذا عن كاتب أغرم ببطلة روايته ؟؟!! رغم كل الألم و رغم المطر لم يكن شئ يمنع مريم من الكتابة بتلك الليلة ، و كنت أدرك مسبقا أنها تملك موهبة في الكتابة عن الحب .. و ليس في الحب ، لكنني لم أكن أعلم أن موهبتها ستصل لذلك الحد الذي إستطاع أن يمزقني و هي تقول :

" و طلبت منه أن يظل شهر .. شهرا واحدا أجدد به عمري .. و أخرج به من جلباب الدنيا ، أنتزع به في عفوية آلام الماضي .. و أفرغ روحي من أحزانها المختبئة خلف ضربات القدر .. و أعيش به عمرا يكفيني بعد رحيله ، فأبي هو أن يبقي .. و رحل ممزعا بذلك قلبي ، و بدون شفقة أو رحمة دمر أحلامي .. و سحقها ، و كأنه لا يتذكر لحظة خيرا مني .. فقرر الرحيل ، وقفت أنظر إليه و أنا أردد داخلي (أنا في حاجة إليك .. فلا ترحل) لكنه لم يلتفت للخلف أبدا ، و لم يسمع قلبي .. لا بتلك اللحظة .. و لا بغيرها ،

و لم أتعجب لشئ بحياتي قدر عجبي عليه ، كيف عامل قلبي الذي أحبه بهذه القسوة ؟!!! و الذي رغم كل شئ أخذ يدعو له بالصلاح ، قلبي الذي أهدر عليه الكثير من الصلوات .. و الكثير من الدعوات ، و مازال لا تأتي إليه ، قلبي .. الذي كان ممكن أن يحتمل عالم بأكمله خالي من البشر إلا هو .. و لا يحتمل عالم بأكمله ملئ بالبشر بإستثنائه ، لم استطع منع نفسي من التوسل إلي الله .. ليذهب كل شئ .. و يبقي هو ، لأخسر كل شئ .. و أكسبه ، لم استطيع أن أعد الله أن أتوب عنه ككل الذنوب "

لم أدرك حقا أيا منهم مسكين أكثر من الآخر .. من يحب لهذه الدرجة و لا يحصل علي الحب بالمقابل .. أم من يعلم أن أحدهم يحبه لهذه الدرجة و لا يبادله نفس الحب و يتركه ليغادر حياته ببساطة ، ظلت مريم حزينة لأسابيع طويلة .. فقلبها لم يهدأ أبدا بدونه، كانت تقتل كل ليلة آلام الأمس.. إستعدادا لآلام الغد ، وكنت أراها علي ذلك الوضع .. و لا أعلم ماذا علي أن أفعل ، كانت السيدة تحية سعيدة لما حدث ؛ لأنها ظنت أن ذلك كفيل بإنهاء كل شئ ، و مثلها في ذلك الرأي السيدة زينب ، لكن ذلك لم يقترب حتي للحقيقة ؛ فالوقت لم يكن كفيل بأن تنسي مريم حبها .. وكان دليل ذلك تلك السرعة التي هرعت بها إليه عندما قرأت خبر حادث إنحراف سيارته عن الطريق ، و رغم محاولاتي و محالات كلا السيدتين منعها من الذهاب إليه .. إلا أنها أبت إلا رؤيته ، عندما ذهبت مريم للمشفي كان رؤوف يصيح رغبة في الخروج ..

لكن حالته لم تكن تسمح ؛ فلقد كسر يده اليسري و ضلعين من ضلوعه في نفس الجانب .. كما إلتوي كاحله إلتواء شديد .. و كذلك تضررت فقرات عموده الفقري ؛ لذا فقد إحتاج لرعاية أكثر من عادية ، و هنا و كعادتها بادرت مريم بإنقاذه من التواجد في المشفي .. و طلبت من الطبيب أن تعتني هي به .. كونها لديها خبرة طبية سابقة .. حيث كانت تساعد رشدي في عيادته ، و إستطاعت أيضا إقناع رؤوف ألا غنى عن وجود ممرضة لتساعدها ، و تحت عدة شروط وافق الطبيب بنقل رؤوف لمنزله ، كان رؤوف يحيا وحيدا بعد أن إشتري لوالدته و أخوته منزل ضخم في قريتهم البعيدة عن القاهرة ؛ لذا فإن وجود مريم كان بمثابة العون الوحيد له .. و الذي لم يرفضه للحظة .. بل رأي فيه نجاته الأكيدة ؛ فإهتمام مريم و فعلها المستحيل لراحة رؤوف .. أمرا لم يشك به للحظة ؛ كونه أكيدا من حبها ، لم نملك أي قدرة علي رد مريم عن ما قررت فعله .. و ألزمت نفسها به .. غير مقاطعة الحديث معها جميعا .. و حتي ذلك لم يثنيها عن ما قررته ، و أخذت تذهب لمنزل رؤوف كل يوما في السادسة صباحا.. لتعود في الثانية عشر بعد منتصف الليل بعد الإطمئنان علي نومه و أخذه لكل جرعات الدواء الموصوفة له ، و رغم كل التعب لكنها كانت سعيدة لراحة ذلك الرجل الذي سمح لها أن تهتم به .. و جعلها تشعر بشكل غريب أنها ممتنة لذلك ، و في أحد الأيام أتت لمنزل رؤوف احدي سيدات المجتمع الراقي .. و التي كانت زوجة رجل

أعمال معروف ، و هذا ما جعل مريم تتعرف عليها جيدا و من النظرة الأولي ، عندما دخلت تلك السيدة لغرفة رؤوف أسرعت إليه ركضا لتجلس جواره علي الفراش و تقبله و هي تنعي ذلك الحظ السيئ الذي منع لقاءهم بذلك اليوم، أخذت الممرضة تنظر لمريم طويلا و هي شديدة العجب من أمر تلك الحبيبة التي تقف دون حراك تشاهد هذا الوضع الغريب بين حبيبها و إمرأة أخري ، و كذلك رؤوف الذي لم يستطع نطق كلمة و لم يستطع أيضا إسقاط عينه عن مريم و لو للحظة ، عندما غادرت تلك المرأة لم تقل مريم شئ و لم تفعل شئ مما إنتظره رؤوف ، و الذي جلس ينظر إليها و هي جالسة علي الكرسي ككل ليلة تقرأ له ، و هنا قاطعها و قال لها :

" إنها صديقة : صديقة قديمة "

لم تجب مريم علي ذلك حتي عاد رؤوف للحديث قائلا :

" في الواقع هي مجرد صديقة بالنسبة لي .. أما بالنسبة لها فلا أعلم .. ربما أعجبت بفني أو غير ذلك لا أعرف ، لكنها مجرد صديقة من العديد من الصديقات "

فقالت مريم و هي لم ترفع رأسها من الكتاب :

" كلهن أحببنك و كلهن بحكم الصديقات .. يا صديقي الحبيب "

إبتسم رؤوف إبتسامة مهتزة ثم قال في تلجلج :

" و كيف تعلمين بخصوص من يحب أو لا "

فقالت مريم له :

" تظهر علي المحبين علامات و أعراض ثابته "
فقال لها :
" أي علامات و أعراض تلك .. هل تذكري منها شئ ؟؟؟؟ "
فقالت له :
" أنفاس متقطعة عالية الصوت ، و حدقة واسعة هائمة .. تزوغ في كل مكان إلا عينيك ، و يد باردة حتي في الليالي الدافئة "

هنا أسرع رؤوف ليمسك بيد مريم و هو ينظر داخل عينيها بشدة .. فأخذت تضحك و هي تعلم تماما أن تلك الأعراض هي حالها حين تكن معه ، ثم نظر رؤوف إليها قائلا :
" أخبريني بأمر لم تخبريني به من قبل "
فأجابته :
" دائما يسبق مقابلتي لك سماعي لصوت طائر الكروان يغرد في السماء ، دائما و منذ لقاءنا الأول ، و لا أعلم ما السر خلف ذلك "
فأخذ رؤوف يضحك بشدة ثم عاد ليسأل مريم قائلا :
" إذا تلقيت دعوة لأمسية بالقمر فمن تصطحبين ؟؟؟؟ "
فأجابته مريم :
" أنت .. سأصطحبك أنت .لكن وماذا عنك من ستصطحب ؟؟؟؟"
عندئذ أجابها متمسكا ببلادة حسه قائلا :
" إنه خيال علي الأرجح لن يتحقق "
لكن مريم أبت إلا أن تعرف رده ، و هنا شرد لبرهة ثم عاد ليقول :
" أنت "

وحين إلتقطت مريم تلك الكلمة من فم رؤوف تشبثت برغبتها بمعرفة سبب إختياره لها ؛ أملتا أن تجد بين كلماته المواساة علي ما كان ، والوعد بما هو أت ، وهنا أخذ رؤوف يفكر مليا ثم قال :

" لقد سبق و إخترتني لأكون بصحبتك لذا فأنا أيضا سأختارك "

قتل ذلك الرد الشغف بعيون مريم ولاحظ ذلك رؤوف فعاد ليقول لها محاولا الذهاب إلي منحني أخر بالحوار:

" لأي الأماكن تريدين السفر ؟؟؟؟ "

فأجابته مريم وعيونها شاردات بعيدا عنه :

" باريس .. ذات يوم سأسافر لباريس و سأدعوك في برج أيفل لشرب فنجان من القهوة الفرنسية المحلاة ؛ فهم يقولون أنها الأفضل "

أخذ رؤوف يضحك و يقول لها :

" باريس ؟ !! لديك أحلام ضخمة "

لكن مريم لم تقهقه من الضحك .. ولم تبتسم .. أو حتي تلتفت لتنظر بوجه رؤوف ، وهنا سألها سؤال مباغت :

" مريم ما الشئ الذي يمكن أن يكون أكثر أهمية مني ، بماذا تستبدلينني يا مريم ؟؟؟؟ "

تنهدت مريم بإبتسامة مهترئة مستنكرتا لحالها وهي تهز رأسها قائلتا:

" الشئ الوحيد الذي يمكن أن أقايضك به .. هو الدخول لجنة الله بغير حساب "

فنظر لها في تعجب قائلا :
" لهذه الدرجة "
فأجابته :
" نعم ليس لشئ أن يكون بقدرك لدي سوي الخلود بالنعيم "
ثم قال لها :
" و أنت أيضا مهمة بالنسبة لي لدرجة لا تجعلني أتخيل خسارتك أبدا"

فأخذت مريم تضحك .. و عندما سألها عن السبب أجابته بأنها متعجبة من كونه يخشي خسارة شئ لا يحبه .. و هنا سألها عن ذلك قائلا :
" و كيف تعرفين أنني لم أحبك "
فأجابته :
" أعرف .. لأنني حين أنظر لنفسي أراك بكل شئ بي ، و عندما أنظر إليك لا أراني و لا أري حتي شئ يشبهني و لو قليل "
ثم أخذ يتلجلج قائلا :
" أنا .. أنا ... يا مريم .. "
فقاطعته مريم و هي تربت علي كتفه :
" يقولون أن الدعاء بظهر الغيب مستجاب .. و أن الذنب هو ما يحيل بين دعاءنا و الإجابة ، فإدعوا لي أن يغفر ذنبي لتستجاب دعواتي لك بظهر الغيب "

تعجب رؤوف من هذا الأمر و سأل مريم إن كانت تدعو له

حقا ، فأخبرته أنها بكل صباح و كل مساء و بكل صلاة لا تغفل الدعاء له ، في تلك اللحظة مد رؤوف يده متناول يد مريم و يقبلها قائلا :

" و إن كنت أنا سأدعو لأحد فأنت هي "

إرتعد جسد مريم و تجمدت عروقها من أجل تلك القبلة فحين لمسة أنامله يدها إختصر كل حيرة النفس في تلك اللمسة .. فإنفتحت كل نوافذ الروح المستوحشة .. و تجلت سعادتها بهيكل الحب الذي تألفت عليه .

عندما غادرت مريم تلك الليلة لم يكن أحدا في مثل سعادتها رغم أن حوارها إنتهي مع رؤوف بإخباره لها أنه يعلم أنها تشعر بالغيرة المتأججة من تلك المرأة التي حضرت لمنزله ، و كنت أعلم أنا و حتي قبل أن أقرأ خطابها بذلك اليوم أن الغيرة لم تكن السبب ، بل فقط كانت تكره أن تراه رجل فاجر ، تكره أن تري الخيانة فيما أحبت .. فيما قدس قلبها ، أمسكت الخطاب و أخذت أنظر له لأرى به عينيها أمامه و هي ترجوه بأن يحب أي إمرأة أخري بإستثناء تلك ؛ حتي لا يكون جزء من قصة خيانتها ، لكنه دائما كان قاصرا عن الفهم .. فلم يري في عينيها إلا غيرة مزيفة مزقت قلب إمرأة تحبه .. فزاده الأمر غرورا و ثقة في حبها ، و كنت أتمني لو أمكنني إخبارها بألا تهين نفسها بمقارنتها بأي إمرأة أخري ، لم يلفت كل ما كان بذلك الخطاب إنتباهي .. و لا حتي قصة تلك المرأة .. لكنني إنتبهت لمريم التي لم تأبه لكل سنينها السابقة .. و تجاربها المؤلمة .. و كيف

صمدت في وجه الآلام .. و قررت أن تجعل منه محاولتها الأخيرة للحصول علي الحب ، حين قرأت بذلك الجزء من خطابها ما لم أقرأه منها قبلا و هي تقول :

" كنت أود لو شرحت له أنه فرصتي الأخيرة للحصول علي الحب .. فرصتي الأخيرة للسعادة و الطمأنينة التي سلبها الزمن مني ، و أنه سلام نفسي الذي لطالما تمنيته ليسكن روحي و يضئ العمر ، وكم تمنيت لو يستوعب قلبه أنني الأن فقط قدست قلبي لأنه حيث هو ، و أني أقبل بكل المجازفات طالما ستأخذني إليه ، لكنني كنت أخشي أن أخبره بأي شئ كوني أعلم أنه لا يحبني حتي يومنا هذا رغم صحبتي الطويلة له .. و رغم طول مساندتي .. و قبل أي شئ حبي "

مع الوقت بدء رؤوف يتعافي من مرضه و لذا قررت مريم التغيب عنه لليلة واحدة ؛ لتذهب لمقابلة مسيو ميليس الذي أتي للقاهرة خاصة لرؤية مريم ، و حينها أخذ يعرض عليها زيارة لباريس .. للمشاركة في حفل زفاف إبنة رجل سياسة معروف كصانعة للحلوي .. و الذي سيتم بعد ثلاثة أشهر من ذلك الوقت ، لم تستطع مريم إعطاء ردا نهائي للمسيو ميليس و طلبت منه أن تحظي بوقت للتفكير، بذلك اليوم أغفل رؤوف جرعة من دوائه مما سبب له إرتفاع شديد في درجة حرارة جسده ، و هنا إتصلت الممرضة بمريم لتترك كل شئ بسرعة حتي المسيو ميليس الذي لم يكن يفهم ما الأمر الهام الذي يمكن أن يدفع مريم لتتركه

بجوسيان و ترحل ، عندما وصلت مريم لمنزل رؤوف كان الطبيب يفحصه ، فظلت مريم خارج الغرفة و هي شديدة التوتر و القلق حتي أنهي الطبيب عمله و خرج من الغرفة لتتفاجئ مريم أن الطبيب الذي أرسلته المشفي لرؤوف هو رشدي ، و بعد أن إطمأنت مريم علي وضع رؤوف و تأكدت من نومه ، ذهبت لغرفة الإستقبال حيث كان رشدي يجلس هنالك ليحتسى القهوة في صمت و ذهول هو الأخر ، ذهبت مريم و جلست أمامه و أخذت تشكره لحضوره و قراره البقاء لتلك الليلة بصحبة رؤوف ، ثم صمتت مريم ليعم الصمت المكان لدقائق .. قبل أن يبدأ رشدي في الحديث قائلا :

" مريم .. أنا .. أنا حقا أسف لما حدث في الماضي "

فإبتسمت مريم و هي تقول :

" لا عليك لم تكن خسارة فادحة .. لقد كان مجرد قلب ، و حيث يوجد القلب .. يوجد الألم و لا يمكن تغير ذلك أبدا "

فقال لها :

" لقد تغيرتي كثيرا "

فأجابته :

" لم أتغير فقط رأيت بشكل أوضح ، فكل ما حدث كنت أعلمه مسبقا .. فقط كنت كالمبصر السائر في الظلام يتخبط في سيره .. ليس لأنه أعمي بل لأن أحد قوانين الرؤية قد إختلت ففقد إدراكه لما حوله للحظات "

فقال لها :

" أنت فقط كنت ..... "

فقاطعته مريم قائلة :

" أتدري أود أن أروي لك قصة .. كنت أمر في ليلة ماطرة بأحد متاجر الملابس الفاخرة .. فرأيت أحدها يليق بي ، رداء بسيط أحببته بشدة و تمنيت أن يكون لي .. و للحظات تخيلت أن أدخل و أحصل عليه للأبد .. لكني تذكرت أني لا أملك المال ، كونه يليق بي لم يكن كافيا .. وكوني أحببته من النظرة الأولي لم يكن كافيا أيضا ليصبح لي ، كان غالي الثمن و كنت فقيرة الحال .. لم تكن شهادتي المتوسطة تستطيع دفع ثمنه .. و لم يكن ذكائي المتقد يملك حل .. و لا موهبتي شفيعه لي .. و لا جمال وجهي البسيط .. و لا شخصيتي القوية يمكنها أن تحضره ..لم يكن قلبي النقي كافي .. و لم تكن روحي التقيه ثمن ، لم يكن أي شئ أملكه يكفيه لأحصل عليه ، ظللت أراقبه غير مبالية بالمطر الذي جمد أطرافي و الخوف من الليل الذي هربت منه دمائي من أوردتي ، حتي حضرت فتاة جميلة و إشترته ببساطة .. بعد مقارنته بالكثير غيره ، و وقفت أشاهدهم ينزعوه من عيني لتأخذه بعيدا ، و لسنوات تمنيت لو باعته بالرخيص فأعود و أشتريه .. أو أن تمزقه فأعيد لم شتاته .. أو أن تخونه فأشمله بوفائي ، لكن لم يحدث شئ .. و ظل عالق بروحي لسنوات ، هذا الرداء الذي ظننت أنني مهما إرتديت غيره سأظل عارية .. و أنه فقط يمكن أن يستر جسدي و يرحمني من برد

الشتاء ، أتدري .. لقد كان هذا الرداء أنت "

لمحة مريم برشدي ومضة من التمزق تفيض بعبء يتسلل إلي روحه و يملئها مرارة .. و وسط كثيرا من التنهدات حاول أن يحرر خافقه حين يعلن أنه مدين بالإعتذار لها ، متمنيا أن يجد بمروءة مريم و كرمها سبيل لتطوي أعباء نفسه ، فأخذ يقول لها و صوته ينوح ندما:

" أنا حقا أسف .. مازلت نادما علي ما فعلته حتي الآن .. أرجوك سامحيني .. حياتي تعتمد علي صفحك عني ، أرجوك .. فقط لأستطيع إكمال حياتي بسلام ، فأنا لا أنفك أفكر بك كلما نظرت لإبنتي "

مدت مريم يدها و ربتت علي يد رشدي قائلتا :

" لا تعذب نفسك للغاية .. فربما ما فعلته معي هو أفضل شئ فعلته بحياتك "

فقال لها :

" كيف ذلك ؟؟!! "

فأجابته :

" إنقاذ حياة شخص من الضياع بدون مقابل أفضل ما يمكن لإنسان فعله .. و حبي لك كان ضياع لحياتي .. فإن ظللت أحبك لكنت ألحقت بعمري الضياع ، بسبب ما فعلته تعلمت .. و بسببه نضجت .. فكل ما أملكه اليوم جزء كبير منه يدين لك "

فقال لها :

" ألم أقل لك أنك تغيرتي "
فإبتسمت مريم بشدة و قالت :
" لا تعلم كم إستغرقت من الوقت و الألم لفعل ذلك "
و في خطابها بذلك اليوم قالت :
" و لم أدرك برؤياه إلا الفراغ ، لم يملئني شئ .. و لم أشعر بشئ .. فقط شئ من اللاشئ ، فقط سؤال .. أدرك جيدا أنه خلق بدون جواب ، و كأن حرب شعواء تدار حيث لست هناك .. و أن ضوضاء أسلحتها و صراخ قتلاها لا يصلني .. و أني في أمان ، و كيف ؟!!! و أنا أعلم أني فقدت بها الكثير مني ، لكنني فقط ظللت أتساءل .. لماذا ؟؟؟؟ فقط لماذا ؟؟؟؟ "

طوي ذلك الحدث و كأن باب ينغلق من الماضي ليمحو ذاك الأثر الذي حفرته تلك الذكري بمريم ، أما بالنسبة لرؤوف فلم تغفل مريم وجودها عنه للحظة بعد ذلك اليوم .. فهي و كذلك هو كانا مقتنعين أنها إن غابت فهو سوف ينتكس بشده ؛ و لذا فقد ظلا علي هذا الوضع حتي إسترد صحته تماما و عاد لعمله في المسرح ، بعد فترة قصيرة عرفت من أحد الصحفيين خبر بخصوص رؤوف و هو خطبته بإبنة احدي العائلات الفنية الثرية .. و هنا أسرعت لجوسيان أسال عن مريم و التي أخبرتني السيدة تحية أنها بصحبة رؤوف .. فجلست علي احدي الطاولات صامتا وأنا أتصبب عرقا و أشتعل غضبا .. فنظرت إلي السيدة تحية متعجبتا من حالتي فروية لها أمر ذلك الخبر الصادم .. فأثار ذلك

غضبها تمام كما فعل بي ، و جلسنا ننتظر عودة مريم لساعات عده ، و عندما وصلت لم ينطق أحدنا بشئ فلقد أنتظر كلا منا أن يبدأ الأخر في الحديث .. هنا أخذت مريم تبتسم لنا .. فلم يجيب تلك الإبتسامة أحدا منا فعلمت أن هناك أمرا ضخم ، جلست مريم أمامي علي الطاولة و أخذت تمازح قائلتا :

" هل قررتما الزواج أخيرا و تريدون أخباري بذلك .. أؤكد لكما أنني لن أكون منزعجه "

لكن الأمر لم يكن مضحكا بالنسبة لأحدنا ، و هنا تولت السيدة تحية الحديث ؛ لتخبر مريم بأمر زواج رؤوف .. إلا أن مريم لم تصدق أي كلمة مما قلنا .. و أخذت تخبرنا أنها بالتأكيد احدي الشائعات التي تحوم حول رؤوف ، ثم أخذت تذكرنا بتلك الشائعات التي دارت حول علاقتها به ، فنظرة لها السيدة تحية و هي تخبرها أن تلك الشائعات لم تكن من لا شئ .. و إنما بسبب علاقتها به .. و ذلك يعني أنه إن كان خبر زواجه شائعة فهي أيضا يجب أن تكون مستندة علي شئ من الواقع و علي علاقة ما تجمعه بأخري ، لكن مريم رفضت أن تستمع لأي كلمة أكثر من ذلك و قررت الذهاب لغرفتها ، و هنا حاولت السيدة تحية منعها بالقوة و باسلوب مهين في حين دفعتها أنا لتركها تغادر لغرفتها و جلست أتحدث معها حول الطريقة المثلي للتحدث لمريم في حين كنت أري أنها كانت محقة فيما تحاول أن تدفعها إليه فمريم كان يجب أن ترجع لصوابها عاجلا أم أجلا ، مر أسبوعا واحد تلي ذلك اليوم

و الذي كان يوافق يوم ميلاد رؤوف قد حان و هو اليوم الثالث من شهر أغسطس ، في تلك الليلة طلبت مريم مرافقتي للمسرح لمقابلة رؤوف و هي تحمل له باقة زهور أرسلتها له و هو فوق خشبة المسرح فنظر إليها و أومئ برأسه لها ، في تلك اللحظات كانت مريم ممتلئة بالسعادة و الفخر لنجاحه فظلت ترمقه بنظرة إعجاب و إجلال لموهبته حتي إنتهي العرض .. ليخرج رؤوف علي المشاهدين و يطلب منهم عدم المغادرة كونه يملك خبرا يريد التصريح به ، ثم أخذ يشكر كل من ساعده في محنته .. و خص بالذكر تلك المرأة التي كانت دافعه كي لا يفقد حياته .. و كان حبها هو سر شفائه ، كانت مريم شديدة الإنتباه لما يقوله رؤوف فهي فقط و حتي تلك اللحظة كانت الشخص الوحيد الذي لم يشكره .. و هي فقط كانت المرأة التي رعته حتي إستعاد صحته ، لكنها لم تكن تلك المرأة التي يتحدث عنها و التي أعلن بتلك اللحظة رغبته في خطبتها حين أذاع خبر حبه لها و شكر دعمها المستمر له ، ثم مد يده لإمرأة كانت تجلس في الصف الأول لتصعد للمسرح سريعا ليجثو أمامها علي ركبتيه و يطلب أن تكون رفيقة عمره .. و سريعا اشارة تلك المرأة بقبول هز قلب الجميع ، مما أسعد رؤوف حتي أنه أشار لمساعده ليحضر الزهور ليهبها لها .. و تلك كانت ذاتها الزهور التي حملتها مريم إليه بنفسها ، في تلك اللحظات كنت أجلس جوار مريم التي بات يسيطر عليها صمت مخادع يخفي العديد من إنفعالات و تضارب العواطف ليعتلي وجهها بالنهاية إبتسامة مؤلمة

.. شعرت معها أن شئ داخلها بصدد الصرخ كون قلبها مات حرقا من شدة القهر .. و لقد سمعت صوت تمزق ذلك القلب من حيث أنا ، بعد إنتهاء كل ذلك صمدت مريم و أصرت علي التحدث لرؤوف و مباركة زواجه بنفسها فسوف يسرها هذا ، لذا صعدنا إلي هناك و أنا أتساءل كيف ستستطيع أن تداري عنه هذه العيون المعذبة الباكية ، و عندما ذهبت لغرفته كان بصحبة حبيبته .. حينها أخذت مريم تهئ رؤوف بخطبته ثم إتسع فضلها فشمل تلك العروس أيضا بالتهنئة .. و التي جذبت يد مريم لتقترب منها و تهمس في أذنها قائلتا :

" أعرف جيدا من تكونين لذا لا تجرئي علي العودة لهنا مرة أخري .. و لا حتي بأحلامك "

ثم عادت لتضع يدها علي كتف رؤوف الذي أخذ يطلب من مريم الجلوس معهم لكنها رفضت و غادرت مندفعتا كجدول ثائر .. تركض بسرعة و لا تنتبه لشئ يحيط بها حتي أوصلها ركضها للإصطدام بي .. حينها كادت تسقط لولا أن أحطت بها متلقيا دموعها بين أحضاني و هي تقول :

" كنت أظن أن العيون تمتلئ بالدموع فقط و القلب فارغ و أني سأتوقف عن ذرفها حين أحب، لكن يبدوا أن مازال لدي الكثير من الدموع لأبكي بها لعنة الحب التي تذل العزيز ، أرجوك فلتخبرني أن الألم الذي أشعر به ليس حقيقي فقلبي ينفطر بسببه"

ما كان لي أن أتماسك أكثر و أنا أراها معذبتا لهذا الحد بتلك

الصفعات التي تتالت علي وجهها ، كنت أتمني فقط أن تهبني ألمها لأكون أكثر سعادة من ما أنا عليه ، لكنه كان يملك روحها و نبضات قلبها و كان هذا كفيل بجعلها تحتفظ بقلبها المنفطر ألما للنهاية ، فلم أملك سوي أن قلت لها بإشفاق :

" حتي لو ظننت أنه ينفطر بسهولة سيظل قلبك هو أقوي جزء بك ، ليتني استطيع أن أداوي جرح قلبك "

إصطحبت مريم لجوسيان حيث كانت السيدة تحية بإنتظار عودتنا و بصحبتها عبدالعليم ، حيث كانا يحصون ما إستلمه و وزعه عبدالعليم بهذا الشهر من حلوي ، عندما رأت السيدة تحية مريم أسرعت إليها لترتمي مريم بأحضانها و هي تبكيه بحرقة شديدة ، فأخذ عبدالعليم يسأل عن السر خلف بكاءها .. لكنني لم استطع الإجابة ، جلست مريم علي احدي الطاولات و مازالت تبكي ثم أخذت تقول :

" إن كنت أملك كل تلك الجراءة لأعترف بحبي و أحارب من أجله .. فلماذا لا أملك نفس القدر من الجراءة لإنهائه ؟! ماذا أفعل الأن ؟؟ "

ثم صمتت للحظات و كلنا كذلك ثم عادت لتقول :

" أخبرتني جدتي ألا أهدر صلواتي و دعواتي علي الأمنيات التي لا تتحقق .. و الأحلام التي لا تبقي ، لكنني أهدرتها عليه .. و سمحت بشماتة كارهي ، كنت طيلة عمري أحرص علي الدعاء لله بألا يشمت أعدائي بدائي .. و كنت أظن أن دائي هو داء الجسد .. و قد

إستجاب ربي و لم يشمت عدوا بمرض جسدي ، لكنني أغفلت عن دعائي لمرض قلبي به و تلك الصحبة له .. و التي عاديت من أجلها الناس فشمتوا بدائي .. و إزدادت شماتتهم يوم غدرته بي ، ليتني لم أغفل ذلك المرض بدعائي ، و ليتني استطعت إخفاء حبي .. لكني يمكن أن أفعل الكثير من الأشياء سرا لكن ليس الحب ، و كيف ذلك ؟؟؟؟ و أنا لم أختر أن أحبه .. و حتي أنني لم أملك أن أختار بعده "

نعم لم تكن مريم مخيرتا بخصوص ذلك الحب .. و لم يكن غيرها أبدا مخيرا ، و هل لأحدهم أن يختار ذرات الهواء التي يتنفسها ؟؟!! أو تلك الأحلام التي يراها ، أو هل يجوز أن يقرر أي نوع من الأمراض سيقضي عليها ؟؟!! لم تختر حبه و لم تختر بعده كذلك ، و هل لأحد القدرة علي إختيار طريقة موته البطيئ ؟؟!! و هل يمكن أن يغرق أحدهم في كوابيس من تأليفه ؟؟!! أو أن يحفر قبره و يشعله نارا بإرادته ؟؟!! و كذلك لم تكن مريم مخيرتا لتنساه ، فهل يختار الإنسان أن يفقد ذاكرته بقرار منه ؟؟!! أو أن يفقد طموحه بلحظة ؟؟!! لا فلم تكن يوما مخيرتا بخصوص هذا الإحتياج الذي يدفعها إليه مهما إقترب و مهما إبتعد .. و كذلك كل المحبين و أنا منهم ، إمتلأ الكل بالحزن لحال مريم دون أن نملك ما نداوي به ذلك العجز الذي هشم قلبها و فتك به .. رغم ذلك لم يكن أحدا ليدرك حقا ما دار داخلها بتلك الليلة غير قارئ رسالتها المجهول .. حين قالت بالكثير من الألم :

" و بإسم الصداقة إرتكب جريمة بشعة بحقي .. و هي اشغال وقته بي دون مبرر ، التمتع بكل ما يحظي به العاشقين دون أن يصبح عاشق ، و دون أن ينطق كلمة أحبك و لو لمرة .. عاش قصة حبا مع إمرأة مخلصة .. و دون أن يلتزم بها أو معها ، تلك التي أهدرت عليه وقتها و جهدها لإسعاده و إنهاء وحدته برغم قلبها المستوحد ، و في حين كان يبحث عن إقتناص الفرص لإستغلالها .. كانت هي تبحث له عن عمل ، و في لحظة إعجابه بفتاة مارة بالطريق .. كانت هي تفكر كيف ستصنع له مفاجئة لتمسح به حزن ألا أحد سر لنجاحه ، و في اللحظة التي أخبرته بها بغرامها .. كان يبحث عن طريق تبعده عنها خوفا من أن يتورط فيها ، و في حين يتقدم نحو إمرأة أخري ليدين لها بالحب .. جلست هي وحيدة تعاني من كلمات الناس الجارحة عن علاقتها به ، و تعذب لفراق رجل تذكره أمام الكل بالمحترم رغم أنه لم يكن كذلك ، و رغم كل شئ ما زالت تجلس ليلا تصلي من أجل أن يهده الله ، و تتصدق ليحصل هو علي السعادة الأبدية عوضا عنها ، لتصبح خطيئتها الوحيدة حبه بهذا القدر ، و ليتضح أن ما تخلت عن كل الأشياء لصالحه مجرد سراب "

يال رغبات ذلك القلب الأحمق التي لا تنصاع لشئ سوي الحب الذي أذل غاليتي ، تلك التي كانت تدرك جيدا الفرق بين الصداقة و الحب رغم أن لكلاهما نفس الأعراض ، فلم تخطئ أبدا في التعرف علي الصداقة حيث يكمن المعني في أن تقف جوار

صديقك مدعمه بعقيدة قوية و دأب مدفوع بالإخلاص حتي يصبح أفضل شخص في العالم .. لكن ليس أفضل منك ، أما الحب فإنك ستقف خلف الحبيب تضرب الأرض و تبحث في كل ركن ليزدهر و يصبح أفضل شخص في العالم .. حتي أكثر منك .. و حتي أنك تدفع بحياتك ثمن هذا ببالغ الحب ، و كانت مريم تدرك ذلك جيدا ، لكن بالنسبة لرؤوف فقد غفل جانبها من القصة بحيث إكتفي برؤية ما يريد و بأكبر قدر من الأشياء التي يمكن أن يكسبها منها و يقتنصها بصحبتها .

في صباح اليوم التالي و عندما كانت السيدة تحية تحاول إيقاظ مريم إكتشفت أن الحمي قد عادت لها مرة أخري .. تلك التي دعاها الطبيب في السابق حمي لأنه لم يكن يملك تفسيرا لحالة مريم .. إلا أن الوضع بتلك المرة كان أكثر خطورة فظلت مريم بالمشفي لمدة أسبوع كامل ، لم يكن مسموحا فيه بالزيارة إلا للأقارب مما أثار جنوني ، و لكنني لم أكن أملك شئ سوي الإنتظار أمام تلك الغرفة بالمشفي طيلة الأسبوع .. أملا في أن ألمحها بين لحظة و أخري عند فتح باب غرفتها و إغلاقه ، لم تستطع السيدة زينب المجيء للمشفي لأنها كانت مريضة ، و السيدة تحية لم تملك شخص لتلومه حينها بإستثنائي .. و كنت كذلك الوم نفسي .. فنظرت إلي و هي تبكي في احدي المرات و قالت :

" أنت تؤلف القصص ؛ لذا فجزء منك كان يعرف هذه القصة مسبقا .. لكنك لم تنقذها من هذه النهاية و ذلك الألم "

نعم كنت أدرك جيدا نهاية تلك القصة .. و كذلك كانت مريم تدركها دون وعي ، لكنني لم أكن أملك ما أفعله لإنهاء تلك القصة .. كما كانت هي ، فالعجز هو المرافق الوحيد لقصتها معه و كذلك قصتي .

و يوم عادت مريم للمنزل كان الكل بإنتظارها و من بينهم عبدالعليم .. الذي جن جنونه حين رأها علي تلك الحال الرهيبة و ذلك الشكل المخيف ؛ مما زاد حنقه علي رؤوف و دفعه للتفكير بفعل أمرا متهور،فذهب ليلا لمنزل رؤوف و إنتظر أسفله حتي عاد .. و بمجرد أن رأه يغادر سيارته .. إندفع نحوه و إنهال عليه بالضرب بعصا خشبية ضخمة حتي تسبب له بجروح بالغة ، في بادئ الأمر لم يميز رؤوف القادم نحوه لكن و خلال محاولته حماية نفسه لمح وجه عبدالعليم و ميزه ..و لا سيما بعد أن سمع صوته و هو يقول : " لقد إستحققت إنتقامي "

قال ذلك له وهو يهم بالفرار عندما إستجاب بعض الأشخاص لصراخه بالإستغاثة ، إستطاع رؤوف تحديد مكان رؤيته لذلك الشخص سابقا لكنه لم يشئ رؤوف توريط نفسه بمزيد من الشائعات التي ربتطه بمريم .. و قرر إستغلال ما حدث لصالحه .. فأدلي بتصريح صحفي ينص بأن منافسيه هم من دبرو له تلك الحادث ، و لكنه لم يشاء أيضا أن يترك الأمر كي لا يتطور أو يتكرر مرة أخري .. ذهب لرؤية مريم بجوسيان و كان ذلك هو اليوم التالي لعودتها للعمل الذي أثرت علي ممارسته رغم أنها لم

تكن قد تعافت تماما ، رأيت رؤوف يقترب من جوسيان و كدت أذهب للقاءه .. لكنني وجدت أن من الأفضل أن تنهي مريم قصتها بنفسها .. فقررت أن أراقب ما سيحدث من خارج جوسيان ، عندما رأت مريم رؤوف يقترب من بعيد وقفت تنظر إليه من خلال الحائط الزجاجي و هي تدرك جيدا أن حضوره بذلك الوقت و بتلك التعبيرات علي وجهه يعني شجارا حادا لا تعرف سببه ، وصل رؤوف لجوسيان و هو يتنفس كرها ثم دفع بابه بعنف كاد يحطم زجاجه، فأخذت مريم تنظر إليه ببرود مصطنع و مؤلم..في حين كان بروده الحقيقي أكثر إيلاما لها ، و دون أن ينظر إليها أخذ يرميها بتهمة إرسال عبدالعليم للإنتقام منه ، و بالطبع لم تكن مريم تعلم شئ عما يقوله رؤوف ، فأخذت تدافع عن نفسها .. و تؤكد أن لا علاقة لها بتلك الحادث ،لم يستطع رؤوف منع نفسه من تصديق مريم ؛ فرغم كل شئ كان يعرف مريم جيدا .. و يعرف قدر حبها له .. و الذي لا يخولها لإيذائه مهما حدث ، فنظر إليها قال :

" حسنا "

ثم هم ليغادر في الوقت الذي إستوقفته به مريم لتنظر إليه و تقول له وسط إضطراب عقلها البائس و تشتته :

" لماذا لا تنظر لعيني حين تحدثني ؟؟! ألا تتوق لي أبدا .. ألا يحركك شئ بماضينا المديد "

فقال لها و هو يتأفف :

" لا أظن ، ثم لماذا أنظر لعيون الناس و أنا أحدثهم .. أنا لا أنظر إلا لما يستحق الرؤية "

فإبتسمت مريم بتهكم شديد و هي تقول :

" الأن أصبحت لا أستحق الرؤية ، فقط بعد أن أصبحت نجما شهير"

فأجابها باسلوب فظ :

" نعم ليس أي شئ يستحق الرؤية ؛ فأنا لا يجب أن انظر إلا للأشياء المميزة .. لأنني مميز .. أنسيتي .. أنت أخبرتني بذلك و لذلك تماما أنت أحببتني "

فنظرت مريم إليه بتهكم مختلط بالأسي و قالت :

" يال حظي العاثر أتظن أني أحببتك لذلك السبب ، أنا لم أحبك لأنك مميز .. بل أنت كنت مميز لأنني أحببتك .. و لقد أخبرتك بذلك بغرض أن تتهيأ للنجاح ، كنت أشعر بأنك في حاجة إلي و لذلك تماما كنت أبقي و أعود رغم كل شئ و .... "

و كادت مريم أن تكمل حديثها حتي قاطعها رؤوف قائلا :

" نعم كنت .. و من هنا أستطيع أن أتدبر أمري "

قالت له مريم و هي تهز رأسها بالرفض .. و تمنع دموعها بصعوبة شديدة :

" لكن .. كيف سأتدبر أنا أمري في بعدك ؟؟!! ألم يعني ذلك شئ لك "

فأجابها :

" كونـك تريـدين البقـاء بصـحبتي لا يعني أنـك يمكنـك ذلـك ، فأرجوك يكفي .. فلتنسينني للأبد "
فنظرت له قائلتا :
" ترجو مني أن أنساك .. أنت .. أنت لا تدرك بماذا ترجوني ، فهل يمكن أن ترجوني أن أتقبل موتي بصدر رحب ؟؟!! أن أتقبل حزني للأبـد .. و وحـدتي للأبـد ، لا ترجـوني نسـيانك ؛ فأنـا لا يمكنني أن أعـدك بالنسيان ، لأنني لـن أعـدك أن أفقـد ذاكرتي .. و لا أن أنحي ذلك السـاكن بين ضلوعي .. إلا إذا أحضرت لي ذاكرة أخري و قلبا أخر .. و بعض السنوات الضائعة ؛ ليعود شبابي الذي أهدرته في إنتظار حبا لم يأتي يوما .. و لن يفعل أبدا "
فأجابها :
" هذه ليست مشكلتي .. بالأصل أنا لا أعلم لماذا كل ذلك ؟؟! "
فأجابته مريم :
" لأنني سـاذجة .. ألـم أخبرك مـن قبـل أنني سـاذجة .. و دليـل سـذاجتي تـورطي فيـك للمـرة الثانيـة ، فـلا يمكنني التوقـف عـن الوقـوع في حبـك كلمـا إلتقينـا ، و رغـم أن الوقـت يفصـل بـين كـل لقـاءاتي بك .. إلا أنك دائما تعلـو علي الوقـت .. و تقطع أيام العمر للقـاء جديـد .. لتغدر من جديد و ترحل من جديد .. ثم أقسـم أني أبدا لـن أتـورط بك مرة أخري .. لكنني أتـورط فيك مرة بعد مرة و كأن لقائي بك أمرا جديد لا أعرف نهايته "
فأجابها :

" ساذجه !!! ... بل بلهاء "
فقالت له :
" بلهاء .. تظن أنني بلهاء "
فقال لها :
" البلهاء هم من يسمحون لأنفسهم أن يحيوا بلهاء و يموتوا بلهاء .. و أنت فعلتي ذلك بكل لحظة في حياتك "
فقالت له :
" أظن أنني بالفعل كذلك .. فرغم كل شئ و رغم أنني أعترض أني أهدرت عليك صلواتي و دعواتي لكل ذلك الوقت .. إلا أنني مازالت أدعو لك "
فقال لها بكلمات مقفرة تفتقر للود :
" و من قال لك أني في حاجة لدعواتك .. أرجوك احتفظي بدعائك لمن يريده .. أو حتي فلتقومي بالدعاء علي إن كان ذلك يعني أن تنسيني تماما "
فأجابته مريم و صوتها يضج حسرة :
" أخشي أن أدعو عليك فيستجيب ربي لحرقة القهر بقلبي فتتأذي .. لكن علي كل حال لك ما تريد .... ، حين طلبت مني البقاء معك و أنت لا تحبني بقيت لأنني أحببتك ، و اليوم سأرحل لنفس السبب لأنك تريد رحيلي و أنا مازلت ..... "
و فجاءة تنهدت مريم و قطعت حديثها لتصمت للحظات لتستوعب ما أصابها و تنظر نحو الوجه التافه المجرد من النزاهة

ثم عادت لتقول بتحسب شديد :
" أعتقد أنه هكذا وجب الرحيل لي .. و لذا عليك أنت أيضا أن ترحل من جوسيان و للأبد .. لا تعود لحياتي مرة أخري أبدا .. فأنا أيضا لست بحاجة إليك "

عندما غادر رؤوف إقتربت مريم من زجاج جوسيان و مدت يدها إليه و هي تدمدم قائلتا :
" ليتك لم ترحل دون أن تجعلني أكرهك ؛ حتي لا أظل عالقة بهذا الحب للأبد "

دمر حب رؤوف كبرياء مريم تماما .. و أطاح بها في حال مذل .. رغم ذلك لم تستطع أن تكرهه .. أو أن تحفظ بهذا اللقاء أخر ما تبقي من كرامتها ، كنت أراقب كل ذلك و أدرك جيدا أنها بذلك اللقاء لم تكن تبصره .. فقط كانت تنظر إليه ، لا تحور .. و إنما تصدر صوتا ، لا تستمع .. و إنما تسقط في ضوضاء ، وكأنما الصمت بداخلها أخل بكل حواسها و عطلها ، كانت تشعر بلا شئ فقط خواء ، كنت أدرك أن لذلك صدي سيحدث ليطرح كل مكنوناتها .. و رغم ذلك فقط ظللت أنتظر إنتهاء هذا اللقاء بترقب و كلي خوفا علي صغيرتي مما سيفعل قلبها بعد كل ذلك العناء ، و بعدما رحل إنفجر قلبها من شدة الألم ، رأيتها تنزف بلا دماء .. و تصرخ بلا صراخ ، سارعت إليها .. و وقفت علي الجانب الأخر من زجاج جوسيان .. أمد يدي لألمس يدها التي شعرت ببرودتها رغم الزجاج الفاصل بيننا ، حينها كانت عيونها تتوسلني أن أبعدها عن

العلم .. أن أخفيها حيث لا شئ يصل لها .. و لا يطولها الإيذاء ، ثم سارت ببطئ لخارج جوسيان تجر قدميها و كأنها تتحول لتمثال حجري جميل و حزين .. لتدخل لأحضاني ببطئ .. إحتضنتها بحرص كي لا تتحول بين يدي لكوم رماد ، في حين تمر ببالها فكرة واحدة أنها بعد كل عمرها عادت خالية الوفاض ، كنت أعلم أنها امتلأت بملايين من دموع الحسرة و الحرمان .. لكن عجزها منعها من البوح له فلم ترسلها أبعد من عيونها ، كنت أدعو الله ألا يرمى بها لمثل هذا الألم و ألا يرسلها لذلك الفقد ، لكن شئ من دعواتي لم يتحقق ، و عاشت مريم قدرها بكل ما به من عناء .. عاشت بلحظة وداع أخرى ، و هي تتمني أن تغير ما خطط القدر له إن إستطاعت .. فيأتي إليها بأي عزر لتقبله ، كنت أتساءل دائما هل رأي أحدا مثل هذا الوداع القاسي ، ففي كل مرة مثل لقاءها به فراق لم تقوي عليه .. حتي جاء اللقاء الأخير .. لتمثل لحظة الإفتراق تلك اللحظة الأصعب بحياة مريم ، حين وقفت تشاهد بحسرة جسد المحبوب يبتعد بخطوات باردة واسعة .. صانع مسافة من اللاشئ .. مسافة من البعد دون أن يلتفت لينظر لمن خلفهم وراءه .. تلك المسافة من الفراغ التي لا يمكن لشئ أن يملئها وقت يحين الفراق ، و حين يبدأ كل شئ في التلاشي مع الوقت .. و تظل عالقا في تلك اللحظة لسنوات .. و هي تتمسك بالنظر لأخر طيف للمغادر البعيد ، و حين إختفي الطيف .. و إختفي الطريق .. و بقى لها فقط الفراغ ، تلك هي لحظة الإفتراق

التي عانتها مريم بذلك اليوم ، و هنا أتت السيدة تحية .. و عندما سألت عن سبب بكاء مريم أخبرتها أن رؤوف كان بجوسيان منذ قليل ، فنظرت لمريم و هي شديدة الغضب و قالت :
" لا أعرف حتي الأن ما سر حزنك و بكائك ، لقد كان واضح معك منذ البداية ، لقد أخبرك عدة مرات أنكما صديقين "
فرفعت مريم رأسها و هي تلتقط أنفاسها بصعوبة من شدة البكاء ثم قالت :
" صديقين .. لكنه قبل كل شئ قدمته له و هو يعلم أن كل ذلك من أجل الحب..و ليس الصداقة .. من أجل الحب .. الحب فقط "
ثم أخذت تبكي كطفلة تيتمت لأول مرة .. منكسرة عاجزة لأول مرة .. تشعر بالألم و الوحدة لأول مرة ، تشعر أنها تحب و تخسر قصة حبها و كأنها لم تحب من قبل ، نظرت إليها و أنا لا أعلم كيف أدفعها للتوقف عن النحيب و البكاء ، فلم أكن قد رأيت سابقا نحيبا صامتا .. و لم أدرك من قبل أن الروح تبكى هي أيضا قبل العين ، نظرت إليها و أنا لا أملك أي فكرة ما الذي سأقوله لها .. لكن و بسرعة أدركت ماذا سأخبرها فقلت لها و أنا أتألم لما سأقوله :
" باريس .. أعتقد أنك يجب أن تقبلي السفر لباريس ، أنت بحاجه ماثه للإبتعاد و رؤية مكان جديد "
أخذت مريم تمسح دموعها برفق و ترفع عينها إلي ببطئ و هي تقول:
" باريس ... و لكن لم يتبقى سوى اسبوعين علي موعد الدعوة

و أنا لم أتحضر للسفر ، و إذا سافرت أنا من سيهتم بالمكان هنا ؟؟؟؟ من سيديره ؟؟؟؟ "
و بفخر شديد أشرت إلي نفسي قائلا :
" أنا سأفعل "

سمعت تلك الكلمات و هي تنظر إلي ببراءة شديدة .. ثم بدأت ترتسم علي وجهها إبتسامة رقيقة هادئة و حذره .. و هي تقول :
" لكنك مؤلف .. و لا تعلم شئ عن هذا العمل "

و بطريقة ساخرة و مضحكة .. تكسر وقار رجل في مثل سنى ؛ فقط لأضحك طفلة في ريعان شبابها .. قلت :
" كتبت ذات يوما عن خباز .. و قد كان أفضل منك بكثير ، تعلمين .. يمكنني أن أكون من أريد .. و متي أريد "

و فجاءة إختفت تلك الإبتسامة من وجهها و نظرت إلي و عيونها تمتلئ بالدموع قائلة و هي ترمي برأسها فوق حافة الطاولة من جديد و تنفجر بالبكاء :
" و لكنها قصة .. الحياة لا تشبه القصص أبدا .. لا تشبهها "

نعم لم تكن الحياة تشبه القصص أبدا .. فأبدا لا يجرأ أي كاتب أن يتخيل كل هذا الكم من الخذلان و الغدر ، و كيف لكاتب أن يضع شابة مثلها بطلة لقصة مثل تلك التي تحياها و حيدة ، أنا لم أكن أتجرأ أبدا .. و ليس هناك من يفعل ، ثم بدأت السيدة تحية تنتحب لبكاء مريم .. و أخذت تلقب رؤوف بأسوء الصفات و الألقاب .. و تدعو عليه بحرقة ، فنظرت إليها مريم قائلا :

" لا تكرهيه .. و لا تحدقي عليه .. أو تدعى عليه أرجوك ، فنحن لا نعلم كم الألم الذي كان يعانيه حينها ليفعل ذلك ، و كيف نلوم الإنسان وقت ضياعه إن فعل أي شئ ليمنع ألمه ، ربما فقط كان وحيدا هذه الفترة أو حزين .. و الأن لم يعد كذلك ، فأرجوك تمني له السعادة كما أفعل أنا "

لم تكن السيدة تحية مسرورة لما سمعت من مريم فغادرت جوسيان و صعدت للمنزل .. حينها نظرت إلي مريم و هي تقول :

" لا أخجل سوى من تلك الدعوة التي تسربت من قلبي بجوف الليل .. ليرحل كل شئ و ليبقى هو ، ليحكم الله في أمري .. و يرحل هو .. و يبقي لا شئ "

فنظرت إليها قائلا :

" و من قال أنك تملكين لا شئ ، لديك جوسيان .. و لديك أصدقائك الذين يحبونك .. و لديك أهلك .. و لديك أنت .. و كذا أنا إن كان ذلك أمرا هام "

فإبتسمت مريم قائلتا :

" نعم لدى كل ذلك حقا .. لكنني لا أعرف بماذا أشعر حقا !!!! و لا علم لماذا وصل الكل لهذه الدرجة من الكراهية له ؟؟!! "

فأجبتها :

" لأنهم يحبونك "

فعادت لتقول :

" لكنني لا أكرهه ، ربما استطعت أن أكره نفسي بسببه و لم

استطع أن أكرهه "

فقلت لها :

" ولا هم ، إن تلك الكراهية داخلهم ليست لشخصه .. إنما لعذابك ووحدتك التي طالت .. لتلك الدموع التائهة بعينيك .. وذلك الشرود الذي لم يعتادوه منك .. والطعم المر داخل حلواكي التي أحبوها "

فأخذت تسألني قائلتا :

" هل تعتقد حقا أن عبدالعليم هو من أذى رؤوف أم أنه مجرد شخص خفي لا يعرفه ؟؟؟؟ "

فأجبتها :

" نعم .. أعتقد ذلك "

فسألتني عن السبب فأخبرتها أنه الحب فقالت لي :

" وهل تعتقد أنه يحبني بالفعل ؟؟!! "

فأجبتها :

" الفرق بينكم عشر سنوات .. وأنت تملكين عوامل إجتذابه فهو شاب يافع في عمر تجربة الحب الأول ، وبذلك فهو يظن أنه يحبك ، رغم ذلك فأنا أظن أنه غير مخطئ أبدا ؛ فكل من يلقاك يحبك يا مريم ، لكن للأسف هذا العمر وهذه السنوات يعنون شئ ... ألا يعنون شئ بالنسبة لك ؟؟؟؟ "

فنظرت إلي بإمعان كما لو أنها تراني لأول مرة وبعد صمت دام للحظات قالت :

" ان كنت سأحب أحدا مثلك .. فالعمر و السنوات و الوقت لا يعنوا شئ لي "

ثم قبلت جبيني و غادرت لتدخل لمطبخ جوسيان و أنا أتمتم لكي لا أخدع نفسي بالتمني :

" لكنها تعنى لي أنا الكثير يا حبيبتي "

بهذه الليلة كان خطابها طويلا للغاية حتي خيل إلي أن لن تنتهي أبدا من وصفه و وصف حزنها بسببه .. كان خطاب مؤلم و معذب كعادة خطاباتها منذ بدأت سيرها في البحث عن الحب .. قالت به :

" يتساءل و لماذا هو ؟؟!! سأخبرك بسر أيها المجهول ، السر وراء حبي له .. هو حبي لله ، هو كرهي لذنوبي ، يوم أحببته فرض قلبي علي أحكامه .. ألا خطيئة تدنس حبي ، أن يصبح بالسر صومي و صلاتي ، أن أرعي الله فيه و في حبي ؛ كي لا يبتليني بالقلب ، أحرقت يوم أحببته كل الذنوب ، و كإعتراف بحبي أطلت السجود ، كان دعائي بجوف الليل ليعفو الله له و لي .. هو الشعر في عينيه ، و كنت أرعي النجوم تهجدا لله .. حين تشتاق العين إليه ، و كنت أخشي السهو : خوفا ألا يكون لي بالدارين ، يسألني لماذا هو ؟؟!! لأن ذنوبي في غيابه .. حلت محل النظر إليه ، لم أكن أدرك أنى سأودعه مرة أخرى ، و لم أتخيل أن وداعنا الثاني سيكون أكثر برودة من الأول .. و لسبب أشد غرابة و أقل شرفا ، و أنه سيكون بهذا الشتاء العصيب ، كنت أتمني لو أنه يدرك و لو قليلا إحتياجي

لـه في ليـالي الشـتاء البـاردة الجوفـاء ، لكنـه كـان أكثر بـرودة مـن أشـدها قسـوة ، كنـت أود لـو أحتمـي لديـه مـن مخـاوفي .. لكنـني أدركت أخيرا أني منذ البداية كان يجب أن أحتمي منه هو .. و من أنانيته التي مزقت قلبي ، لم استطيع أن أجحد حبي أو انكره و لـو للحظة خلال حديثنا ؛ فلم أري في حبي إثم يستدعي الإنكار ، رغم أن حبه علي وجه التحديد كان إثما كنت أظنه و حتي النهاية هدية إلهية ، حيث تشرق الشمس و ينير البدر في عينيه كل نهار و كل مساء ، كلما رأيته تمنيت لو كان من حقي أن أبوح له بأنى أتنفس ما يطرده من زفرات ، و أن الأزهار الميتة تتفتح بين يديه .. فكيف بي أنا ؟؟!! كنت أود لو استطيع إخباره أنه جنتي و ناري .. و أنني أتضرع كل مساء لله أن لا يحرمني قربه ، و أني سأغير العالم كله لأجله .. و أفعل المستحيل لو عني ذلك بقائه ، لكنني لم أملك الوقت الكافي قبل أن يقرر الرحيل ، كان مشهد رهيب أضاع أنفاسي وسط صمتي المؤلم .. فلم أقوي علي البوح ، و لم يملك لساني كلمة أو حرف تخبر عن تلك الغصة التي تسكن القلب ، و لم تستطيع دموعي تجاوز تلك الأنفاس التي كادت تفرغ ، لم أكن أملك شئ لقوله .. لكن كان علي ذلك ، و حين أطلقت لساني لم يستطع سوي توسله بأن يكون علي البعد بخير ، و أن يجوب أرجاء الكون و يخالط البشر و يعشق شخص يليق به و يسعد بدثار الحب الدافئ ، و إن خالج صدره في أي أمر دمعة يرسلها إلي .. لتغوص في قلبي بعيدا عنه .. لأخفيها عنه كما سأخفي عن العالم

مشاق دموعي فيظل سعيدا أنس بأحبته ، بقلبه سلام .. و عليه سلام .. أخلفه له بعد أن أنتزع عنه كل ألم و أسي و قهر .. و لأظفر عوض عنه بكل جرح نازف ، لكنه لم يجيب عن كلماتي إلا بالصمت الذي دفعني لأستدعي القسوة و أطلب منه الرحيل .. الرحيل دون عناق .. و دون وداع .. و دون أن يرد إلي أنفاسي "

علمت أنها كانت تقطر دما حين كانت تكتب ذلك الخطاب ، فلقد كان مختلفا عن كل خطابا سبق ، فأنا لم أجدها مفطورة الفؤاد كما اليوم ، رأيت الكثير من بقع الحبر بين السطور .. و التي صنعتها دموعها حين سقطت .. لتشوب كل جملة .. و تمزج كل الكلمات و الحروف ليصبحوا أكثر إيلاما من أي شئ قابلته بحياتي ، ثم عدت أقرأ و أنا أتألم لحال شابة مثلها و هي تقول مستفيضة في حزن محسوس :

" سألني ذات يوما (متي ستكرهين شخصا ؟؟؟؟) فأجبته بحذر (لن أكره أبدا) ثم صمت لبرهة و عدت للحديث قائلتا (بإستثناء من سيجعلني أبكي لمرة أخري) و من حينها لم أتوقف عن البكاء بسببه .. لكنني لم أكرهه و لم أقترب من ذلك ، بل إنني لم استطيع التوقف عن حبه للحظة ، حتي بذلك اليوم الذي أخذ يخبرني به بأن الحب مؤذي جدا .. و أنني سأتألم .. سيسرق الحب من عمري و يحزنني حتي أذبل وحيدة ، حينها أسررت ردي علي ما قال و لم أبح له بما ترددت داخل نفسي من كلمات (مستعدة لأن أعاني و أتألم معك .. في حين لست مستعدة أن أكون سعيدة مع غيرك)

أعلم جيدا أنه يحب إمرأة أخري و أنه لم يحبني بالأساس ، لكنني أعلم أيضا بأنني سأعجز عن النسيان .. و طالما إعتذرت لذلك منه و من نفسي و من الله ، و لطالما أهدرت دعواتي عليه بلحظات الأيمان .. أن يملك السعادة و يحقق الأحلام ، فلم يفارق نهايات صلواتي أبدا .. و كثيرا أغفل عن الدعاء لي .. لكن ليس له .. حتي مل من إسمه و لم تمل منه الدعوات ، فلقد ذكرته دوما و رددت غيبته حتي و إن صغت بذلك لنفسي الأعداء ، و وسط حشود من اللئيمين .. الواشين و الشامتين أردت أن أذكره في مكان يليق بحبي فذكرته في دعواي .. و لم يغلبني يوما النسيان "

قرأت هذا الجزء من خطابها للمجهول و دون وعي مني سقطت دموعي علي تلك الشابة الجميلة ، أي ذنب إقترفته لتعاني لذلك الحد ؟؟!! و أي فعل استطيع لأعوضها عن كل ذلك الحزن و كل تلك الوحدة و التلف .. اللائي نصبتهم لها خديعة قصة الحب المنقوصة .. تلك التي لم تدخلها أبدا بل شاهدتها من الخارج فقط ، فلم يكن يجرؤ رجل في مثل ضعفه أن يعشق إمرأة في مثل قوتها و إلا هلك ، و لم يكن من الممكن لإمرأة تملك عقل كعقل مريم و قلب كقلبها أن تدفع رجل بمثل عقل و قلب رؤوف أن يحبها ، رغم ذلك كنت أشك في إمكانها تجاوز إشتياقها و لو للحظة لذلك الرجل ، و الذي إن قرأ خطابها كان سيعلم أنه ليس مميزا رغم قناعته بعكس ذلك .. و أنه ليس حتي قريبا من الأمر ، بل فقط هي كانت مميزة و لأنها كانت تحبه كان مميزا بالنسبة لها ،

لكن خطائها كان أنها أخبرته أنه مميز دون أن تتأكد من إخباره مسبقا أن سر تميزه أن المحبين يرون أحبتهم مميزين و فريدين .. دون عيوب و بلا أخطاء .. لا يشوبهم شائبة .. يروهم أبعد ما يكونوا عن الطبيعة البشرية .. فيحبوا بهم عيوبهم تماما كما يحبوا مميزاتهم .. شرهم كخيرهم .. يحبونهم بالرغم من كل هذا و مع كل هذا .. يحبونهم فقط ؛ و لهذا السبب هو مميز.

في اليوم التالي أتت إلي مريم لتخبرني بقرار سفرها لباريس .. فأبلغت السيد رضوان ليبلغ المسيو ميليس و ليبدأ في تجهيزات سفرها ، كنت سعيدا من أجلها رغم حزني لفراقها ، و بعد يومين أتت إمرأة فقيرة و بصحبتها فتاة مراهقة لمريم .. لم أتعرف علي أيا منهما ثم غادرة المرأة و ظلت الفتاة ، كانت هذه هي أمينة تلك الطفلة التي رعتها مريم منذ سبع سنوات .. و قد أصبحت مراهقة في السادسة عشر من عمرها ، فكان عليها أن تدخل المرحلة الثانوية إلا أن قريتها و القري المجاورة ليس بها مدارس ثانوية للفتيات ؛ و لذا أحضرتها والدتها لمريم كون مريم هي القائمة عليها و علي رعايتها لتسأل عما يجب فعله ، و هنا قررت مريم إبقاء أمينة معها لتدخلها المدرسة الثانوية لإكمال تعليمها ، لم تكن أمينة فتاة جميلة جدا .. بل كانت فتاة بسيطة تشبه تلك القرية التي تربت بها .. تختلف تماما عن مريم .. رغم ذلك شعرت أن مريم تود رعايتها و حمايتها من ألا تتورط فيما تورطت هي به ، و شعرت للحظات أن حضور تلك الفتاة من الممكن أن يؤثر علي قرار مريم

بالذهاب لباريس ، لكنها بالفعل كانت قد إلتزمت تجاه السفر مع المسيو ميليس و لذا فقد أوصت السيدة تحية علي أمينة لترعاها حتي تعود هي . بعد أيام جاء عبدالعليم و تعرف لأمينة التي كانت تنظف الطاولات في وقت إستراحة جوسيان و بعد مغادرة الزبائن ، وعندما لمحتهم مريم من غرفة المطبخ اشارة للسيدة تحية و قالت :

" ألا تظنين أنهم رائعون معا .. ربما يكون بهذا المكان قصة حب أخيرا"

ثم أخذت تمازح السيدة تحية التي أدانت فكرها عن الحب من جديد بعد كل ما حدث . كان يجب علي مريم التحدث مع عبدالعليم بشأن ما حدث مع رؤوف إلا أنها رأت أن من الأفضل أن أفعل أنا .. فكوني رجل سيجعل من ذلك أمرا أسهل ، و بالفعل أرسلت مريم أمينة لإخباري بقدوم عبدالعليم فتوجهت لجوسيان ، جلست مريم علي طاولة بعيدة عني و عن عبدالعليم و بصحبتها أمينة و السيدة تحية . أخذت أحدث عبدالعليم عما فعله لرؤوف و أستنكر فعله .. فأخبرني أنه يستحق كل أذى يلحق به كونه أذى مريم ، و عندما سألته عن سر ما فعله لأجلها إلتفت إليها ليلمسها بنظراته لثوان حتي نادية إسمه عدة مرات لينتبه إلي و هو يقول :

" أحبها "

لم يكن هذا الرد غريب فأنا بالفعل كنت أعلم بذلك الحب ، و عندما حاولت إقناعه أنه ليس حبا و إنما هو مجرد إنبهار بإمرأة جميلة و رقيقة .. و جدة نفسي أمدح مريم و أصفها ، و ذلك كان

أمرا حتمي و بديهي فكل المحبين ليست لديهم لذة أكبر من وصف أحبتهم .. و للأسف كلما وصفت مريم غرقت في حبها أكثر و دفعته لنفس الشئ .. فتوقفت ، فلم أكن أنا الإختيار الأفضل لإقناع أحدا أن يكف عن حب مريم ، و قد شعرت أن ما أحاول فعله سيشكل صدمة كبيرة لعبدالعليم .. لكن ذلك كان أمرا طبيعي ؛ فأكثر الصدمات إضحاكا هو حب طفولتنا .. و أكثرها ألما هو حبنا الأول .. و أكثرها قسوة هو حبنا الحقيقي ؛ لذا فكان علي أن أحجم حب عبدالعليم لمريم لتظل هي مجرد حب طفولته .. و لا تتحول أبدا لحبه الحقيقي ، و لم أكن أعلم حقا إن كان عبدالعليم قد إقتنع بأي من كلماتي .. لكنني حاولت ، و في هذه اللحظة أتت أمينة لتحضر لنا قطع من الحلوي ، أمينة التي كانت قد أعجبت من اللحظة الأولي بعبدالعليم ، و هنا لمحت بعيون عبدالعليم لمعة غريبة علمت معها أنني لن أكون في حاجة لكلمات أكثر .. فظنه بحب مريم سينتهي مع الوقت سريعا بسبب تلك اللمعة .. و حتي دون أن يدرك ذلك سيجد حبه الأول و ربما حبه الحقيقي ، قبل أن يغادر عبدالعليم نظر لمريم و أخبرها أنها لا يجب أن تكون حزينة من أجله فهي أفضل منه و أخبرها أنه سريعا سينتهي حريق قلبها و ينطفئ .. و سريعا سيتحول لفحم ثم لألماس كما يستحق قلبها أن يكون ، ذلك حقيقة الحال لكن مريم لم تكن تملك صبرا حتي يحين موعد تحول هذا الحريق بقلبها لألماس ، عندما غادر عبدالعليم جلست أحدث مريم عما كان .. و كانت أمينة تنظر لنا

بتعجب شديد سألتها مريم عن سببه فقالت لها :
" يحبك .. الحب ما هو ذلك ؟؟!! "
فضحكت مريم في عجب و هي تقول :
" أنت تسألين عن الحب .. حقا لا تعرفين ما هو !!!! "
ثم نظرت إلي و قامت بعمل تعبير ساخر و متعجب بوجهها ثم قالت :
" ظننت أن الكل يولد و هو يعرف عنه "
ثم مدت يدها لأمينة و لمست وجهها و هي تقول :
" الحب شئ خلاق ، أكبر خسائرنا به .. أنه ليس من حقنا جميعا السقوط به "
فعادت أمينة لتقول :
" ماذا يشبه ؟؟؟؟ "
فقالت لها مريم :
" ما هو ؟؟!! "
فأجابتها قائلتا :
" السقوط في الحب .. ماذا يشبه ؟؟؟؟ "
فإبتسمت مريم و هي تشير إلي لأجيب فنظرت للصغيرة و أنا أبتسم لها و أقول :
" يشبه السقوط المدوي للروح .. عميق و مؤلم ، و كأنك تدركين به إكتمالك .. و تدفق البريق بكل شئ .. و كأن تتدثر عبق ريح المحبوب دون أن تدنسك غرائزك ...... ، يشبه العثور مصادفتا

علي نفسك "

ثم أخذت مريم تنصحها في رفق بأن تحب الأن في صغرها .. قبل أن تصل لعمر يصبح فيه الحب مجازفة كبري ، مزيج من الأكاذيب و المكائد ، تحب بنقاء قبل أن تقع في شرك الحب بحقد ، قبل أن يحبها رجل بكراهية فيؤلمها و يقلل من شأنها ، تحب و ما زالت طفلة .. ليظل الحب أكبر أمنياته نظرة خاطفة دون أن يلاحظ أحد .. و أكبر مطامعه إبتسامة نقية .. و كلمات تسرق في دفاتر الدراسة ، نصحتها بأن تحب قبل أن تصل لعمر يصبح الحب به باهظ الثمن و غير متاح للجميع ، كنت أدرك تماما ما تعنيه مريم بذلك و ما تشعر به حيال الحب ، طلبت مريم من أمينة المغادرة للمنزل و جلست تتحدث إلي فقلت لها :

" عليك أن تدركي يا عزيزتي أن الحب الأول يصعب نسيانه ، فهو أول عاصفة تجتاح الإنسان ، كالسنوات الماضية لا يمكن محوها مهما حاولنا .. فإن حاولنا نسيانه فسننسي أنفسنا بدل أن ننساه ، و أنت تحيين ذلك الأن لذا فعليك أن تتفهمي وضع عبدالعليم .. إن كنت أنت حبه الأول "

فنظرت إلي في تعجب و هي تقول :

" لكن لم يكن رؤوف حبي الأول "

فأجبتها قائلا :

" لا ليس صحيحا .. إنه حبك الأول .. حبك الحقيقي الأول "

فقالت لي :

" كيف و قد زاد الحياة إلي كرها و بغضا "
فقلت لها :
" ألم يزدها حبا سابقا ، لم أراك تشبهين تلك المرأة التي كنت عليها سابقا منذ عرفته أبدا ، لذلك فهو كان حبك الأول .. لأنه غيرك ، و الحب الحقيقي فقط يغيرنا .. و حبنا الحقيقي يا مريم هو حبنا الأول"
فأجابتني :
" لم أدرك كيف أصبحت أحبه لذلك الحد ، و متي حدث ذلك ؟؟!! "
فأجبتها :
" الحب الحقيقي لا يأتي مع الوقت ، و لا يأتي من أول نظرة لندركه ؛ فهو قدر ولدنا به ، نحن فقط نحتاج أن نتعرف علي من نحب عندما نقابله .. و أنت فعلتي "
فنظرت إلي و قالت :
" ربما أنا المخطئة في إختياراتي "
فإبتسمت و قلت لها :
" يا عزيزتي .. لا أذكر أني سمعت يوما عن شخصا إختار من أحب ؛ فالحب يا غاليتي مثل ولادتنا و موتنا .. يحدث دون أن يخيرنا "
فعادت لتقول لي :
" سيتطلبني الامر الكثير حتي أتجاوز ما فعله بمقابل حبي له ؛ فلم يؤذيني شخصا كما فعل هو .. و الأكثر أنني لم أسمح لأحدا بإيذائي

قدر ما سمحت له ، لا أعلم لماذا إن كان الكل يتحدث عن الحب لا يمكنني أن أجده ؟؟!! من يجب أن ألوم ؟؟؟؟ "

فأجبتها متنهدا :

" أعتقد أن علينا لوم من كان محب مخلصا ؛ لأنه دفعنا للإعتقاد في الحب و الإخلاص "

فقالت لي :

" إن كان الحب من إختياري لما إخترت أن أحب أبدا أو أن يحب أحدا"

رددت ذلك و أخذت انا أردد داخلي :

" أرجو ألا يأتي اليوم لتلوميني أني أحببتك .. فلم أكن أملك قلبي ، و أسم لك إن كان بيدي الأمر لأحببتك أيضا "

عندما غادرت مريم أخذت أتساءل في نفسي .. حين تكون هي شمعتي المضيئة كيف أتركها لتذوب و تخلفني للظلام ؟؟!! لكنني لم أملك و سيلة لمنع ذلك ، بذلك اليوم أتي بخطابها ذكر عبدالعليم و هي تقول :

" فرق كبير بين نقي ما زال يقاوم ليصير رجل ، و من إتسخ و إرتضي لتضيع رجولته ، حين أذكره أذكر أسوء أيامي .. أذكر أنه خذلني و مزق أحلامي ، قلت له في أول لقاء لنا (أود الرجوع لخالقي نقية تقية) فعلمت معه كيف يختفي النقاء من العالم .. و كيف لا تفيد التقوي ، و ظننت أنها حالة عامة تسود الكون .. حتي صادفت عبدالعليم ، نقي يقاوم و يحاول التقرب إلي بتقوي ..

بـرئ حتي في صـراحته ، يفترض أنـه لا يخشـي علي مـن حولـه و لا يخشـاهم .. و الأصـدق أن يخشي نفسـه و يخشـاهم ؛ حتي لا يقابل يوما هؤلاء الذين قابلتهم "

كانـت تلـك نصـيحة يحتاجهـا عبـدالعليم .. و قـد تمنيـت لـو تخبرهـا لـه و لـيس فقـط للمجهـول ، و مـع ذلـك أحزنني أنهـا لـم تستطع إغفال ذكر رؤوف في خطابها فقالت :

" قـرأت اليـوم في احـدي الصـحف أنـه قـال بلقـاء لـه عنـدما سـالوه عـن الحـب (أنـا كمـا قـال الشـاعر العظـيم نـزار قبـاني : لـم أحـرق بالحـب أكبـاد النسـاء) يقـول لـم أحـرق بالحـب أكبـاد النسـاء .. فمـا أذاب كبدي غيروده ، و لا لغيرهـواه إعتصـر القلـب ، و مـن جحـوده حسـبي الخـالق ، و دعـوي فـؤادي لله عليـه ترتفـع ، و بكـل دمعـة نزفتها بحبه أدعو عليه بعذاب الله .. و لا سبيل لأرتفق ، فبقدركل يومـا أمضيته ألما سيتيه بجهنم تكفيرا عـن الـذنب .. حتي أغفـر لـه إحراقه لي كبدي ، لكن قلبي يمنعني و يغفر له دون ما وعي "

كنـت أعلـم جيـدا مـا ودعـت مـريم يـوم ودعتـه ، فقبـل هـواه ودعـت مـريم روحهـا التي تعلقـت بـه ، و رغـم علمـي ظننـت أنهـا مـن الممكـن أن تسـترد تلـك الـروح يومـا ، و أنهـا ربمـا تكرهـه للحظـات فـأجـد لنفسـي مكـان في قلبهـا ، لكـن ربمـا كنـت مخطـئ مـن البدايـة حين تركتها لتحب كل هؤلاء .. و تختبر كل هذا الألم ، ربما كان علي أن أخبرها يوم أحببتها بحبي .. ربما كان علي أن أجرب .. و ربما كان سيجعل ذلك حياتها و حياتي أسهل .. أو لا .

في اليوم التالي قررت مريم الذهاب لزيارة السيدة زينب لتودعها قبل سفرها و عندما عادت من دار المسنين كانت شاردة الذهن تماما و تفكر بأن السيدة زينب لا تبدو بخير أبدا ، و أنها كانت تنظر إليها بشكل غريب ، قالت هذا بخطابها ثم قالت :

" رغم شعوري أنها لم تكن بخير إستدرت لأغادر دار المسنين تاركتا جدتي وحيدة من جديد .. فنادتني من بعيد قائلتا (اغفري و اعفي يا صغيرة إن كان ظلمك ، فالله يجمع الظالم بالمظلوم يوم الحساب) نعم سامحت الجميع و غفرت و عفوت لكل العالمين .. إلا هو ؛ فأنا أذوب لألقاه من جديد ؛ ليجمعني به الله يوم الحساب لن أغفر ظلمه لي .. و يوم ألقاه سأغفر و أعفو .. علي الله يغفر و يعفو لكلانا ، لماذا قالت لي جدتي ذلك .. لا أعلم لكن هذا ما دار بخاطري حين قالت ذلك"

في صباح اليوم التالي تلقت مريم إتصال من دار المسنين يبلغها أن السيدة زينب قد إشتد مرضها ، فتوجهت مريم لهناك بسرعة و قررت قضاء الليلة معها ، توفت السيدة زينب في فجر اليوم التالي الموافق الثامن و العشرين من شهر أكتوبر ، و قد أثرت مريم أن تتواجد أثناء غسلها و تساعد به ، لم تبكي مريم طيلة اليوم لكنها فعلت و هي تكتب خطابها .. علمت هذا من أثار الدموع فوق الورق ، كان خطابها هذا اليوم من نوع أخر .. خطاب لا يتحدث عنها و لا يحكي عن ما إعتدت أن أقرأه منها .. قالت به :

" لم يسبق و شاهدت أحدا يفارق الحياة .. ربما رأيت قطة سوداء

علي الطريق ذات مرة ، كانت تصارع وكأنها تصارع قط أخر بضراوة شديدة .. حتي إنتزعت الحياة منها تماما .. حينها أدركت أنها كانت تصارع وحيدة ، و اليوم .. هو اليوم الأول الذي أحظى به بهذا الشرف العجيب ، نهاية حتمية و أخيرة للحياة ، كانت تهمس طول الليل بشكل غريب ، تدور عيونها في المكان .. وكأنها تري شئ تود أن تخبر عنه لكن قوي خفية منعتها ، لم استطيع أن أحدد معني لتلك التعابير وهذا الهمس و هذه الإيماءات غير المفهومة ، لكنني كنت واثقة أنها ستفارق الحياة اليوم .. ورغم ذلك لم استطيع تحديد شعورها تلك اللحظة ، ربما كانت مستبشرة أو خائفة ؟؟؟؟ ليس لي أن أعرف حقا ، ربما كانت مشاعر مختلطة ، مزيج من السعادة بنهاية الألم .. و خوف من مقابلة عظمة الله ، جدتي الغالية .. من اليوم لن أضطر للخوف كلما سمعت صوت المنادى ينعي أحدهم .. ولن أترقب الإسم الذي ينادي به ، اليوم أخيرا قرر وجهها المرهق الإرتياح بعد سنوات طويلة من العذاب و المرض ، أخيرا إستطاعت أن تنفض عنها السنين .. و أن تخلف ورائها كل غالي و حبيب ، لتتوجه أخيرا للإستقرار بحياتها الحقيقية ، سعيدة لنهاية ألمها .. و أملتا برحمة الله تشملها في الآخرة كما شملتها بالحياة "

كانت مريم شديدة التأثر و الحزن لموت السيدة زينب .. رغم ذلك لم يكن موتها هو أشد حدث شعرت به مريم بذلك اليوم ، فمقابلة حقيقة الإنسان و ما سيؤل له في النهاية من اللاشئ كان

أشد قسوة ، و فكرة أننا نصبح بعد مغادرة الروح كجماد يقلبه الملتفون حوله يمين و يسار دون أن تكون له أي قدرة .. ليشيعوه و هو لا يملك لنفسه لحظة .. تلك كانت هي الحقيقة المرعبة التي رأتها مريم ذلك اليوم لأول مرة ، ثم أخذت تلك الشابة اليافعة تتخيل نفسها يوم النهاية للحظات .. فأخذت ترتعش مما ستؤل لها الحياة بعد طول السنين ، رأيت تلك الرعشة و تلك الفكرة في عينيها و هي تلقي خطابها ذلك اليوم ، لم أقوي علي المراقبة من بعيد فذهبت إليها و هي تلقي الخطاب بصندوق البريد لكنني لم استطع قول شئ و لم تفعل هي أيضا ، فقط نظرت إلي ثم غادرت و هي بصحبة الحزن .. ذاك العدو الوفي الذي لم يقطعها يوما .. و لم يسلاها أبدا ، ذلك الذي أغرم بها من اللحظة الأولي .. فقرر ألا يبتعد أبدا ، هادئ و كئيب .. برفق و ترقب ينتظر لحظات ضعفها ليتسلل خلستا للفؤاد .. و يمتص بحذر سنوات العمر لتصبح طويلة مملة لا تفرغ بسهولة ، يتمسك بها بشغف شديد .. و يقتنص كل فرصة ليزورها سرا ، و بين ثنايا القلب يسكن طويلا ، زائر يحل دون موعد و دون ترحاب .. و دون أمل أن يغادر ، تخشي البوح بأمره .. و يقتلها الكتمان ، وددت لو أحمل عنها شئ منه ، لكن لا شئ يثني المرء عن حزنه .. و لا شئ يدفعه لمقاطعته إلا الزوال ، ليس لصديق أو قريب أو حبيب أن يأخذ من أحزاننا أو ينقص ، و كذلك أنا لم أنقص مهما حاولت من حزنها شئ ، كان موت السيدة زينب يسبق سفر مريم بأربع أيام فقط .. لكنها قررت

إلغاء السفر و دعمتها في ذلك السيدة تحية و أمينة ، إلا أنني رفضت و بشدة ذلك القرار ، لم أشأ لمريم أن تظل حيث هي و هي في تلك الحالة ؛ فلو بقيت مريم بمصر بهذا الوقت لكان الحزن أغرقها و دفعها لتفعل ما يفعله السجناء .. و ذلك أمرا خفت منه ، فوسط هذه الظروف و مع ماضيها الممتلئ بالأحلام صعبه المنال .. كان حزنها هذه المرة كفيل بقتلها ، في تلك الليلة ظللت أراقب مريم و هي تجلس لتراقب السماء من نافذتها .. لكنني لم استطع الإستمرار في المراقبة فذهبت لشقتها ، تعجبت السيدة تحية حين رأتني أطرق بابهم في مثل هذا الوقت لكنها لم تمنعني من التحدث لمريم .. فهي الأخري كانت تعرف أن مريم ما زالت مستيقظة ، عندما دخلت ظلت مريم شاردة للحظات ثم إنتبهت لوجودي .. إلتفتت إلي ثم عادت لتنظر للسماء و هي تقول :

" اليوم نجوم السماء تتلألئ بشدة ، أتعلم إكتشفت الأن فقط أني أحفظ مواقع النجوم أكثر مما أحفظ شوارع مدينتنا "

كنت أعلم أن تلك المسافة الشاسعة بين السماء السابعة و الأرض لم تكن كافية لتمنع صوت قلبها الحزين من الوصول لله ، عندما إقتربت إليها أكثر و مددت يدي لألمس يدها نظرت إلي وقالت:

" أتعلم أمرا .. أدرك الأن فقط أن الأحلام تتلاشي بسرعة ، و أنى أملك الكثير من الذكريات غير المكتملة "

نعم هذه كانت حقيقة حياة مريم ؛ فلقد كانت حياتها تشبه الركض خلف ظل طائر بإصرار أمل أن تلحقه يوما ، فلا هي تلحقه

.. و لا إصرارها يسمح لها بالإستسلام ، لكن بكل الأحوال سيوصلها ركضها يوما لمكان ما .. و أتمني أن يكون هذا المكان حيث تحظي بالسعادة ، حاولت إقناع مريم أن تعدل عن فكرة إلغاء السفر .. و أكدت علي فكرة أن إلغائه ستسبب أزمة مع المسيو ميليس ، حيث أنها سبق و ألزمت نفسها بهذا العمل .. و أخذت أشرح لها أن الغربيين لا يسمحوا عن مكاسب حسية أيضا ؛ فبالتأكيد ستستطيع للمشاعر بالتأثير عليهم فلا العواطف و لا الأحزان تملك مساحة في حياتهم و أن العمل لديهم هو أهم شئ يلتزمون تجاهه ، و بعد كثير من المحاولة إقتنعت مريم برأيي .. فأخذت أؤكد أن ذلك السفر سيسفر مدينة الجن و الملائكة أن تسعدها بجمالها الأخاذ ، و أثناء حديثي لاحظت أن مريم تراقبني بشغف شديد فإبتسمت لها فقالت لي في حماس :

" ألازلت لا تريد أن تخبرني كيف تشبهني باريس ؟؟؟؟ "

فأجبتها :

" بلي تشبهك .. جميلة مثلك ، تشبه الخريف رغم أنها ربيعية مفعمة بالحياة ، و رغم ملامحها الصيفية الدافئة فدموعها أشبه بأمطار الشتاء البارد ، تسبب الحزن لمن يراها "

فنظرت إلي و هي تقول :

" إذا أسبب الحزن لمن يراني ؟؟!! "

فأجبتها :

" فقط من يحبك ؛ لأنه يدرك كم أنك حزينة ، فكيف له أن يكون

غير ذلك بدوره ؟!!! "

مـرت عـدت أيـام ثـم جـاء يـوم سـفر مـريم ، أوصـلتها انـا و السيدة تحية و أمينة إلي المطار ، وكان بصحبتها في ذلك السفر السيد رضوان ، و دعت الكل وكنت أنا الأخير .. عندما نظرت إليها خيل إلي وكأن وداع العالم أجمع يومها إجتمع في سلام يدها .. كانـت تنظر إلي بنظرة لـم أراهـا سـابقا .. فخفـت يومهـا الـوداع ، شعرت حينها وكأنها المرة الأخيرة .. وكأنني لـن ألتقيها من جديد ، ثم غابت عن نظري حين صعدت للطائرة ، ثم غابت الطائرة بين السحاب .. تلك التي تحمل المرأة التي أحببت .. توارت عني وكأنها لن تهبط من السماء مجددا .. وكأن مريم عادت لحيث تنتمي بين النجـوم و الشـموس و الكواكـب ، ظللـت أفكـر طـويلا حـول ذلـك الوداع و أسترجع في شفقة حال جميلتي المحبوبة .. و أفكر كم مرة ودعـت تلـك الشـابة أحبـة و هي تـدرك ألا رجـوع .. كـم مـرة ألقـت بيدها في يد من تحب و قلبها يدعوا ألا يفلتها أبدا دون جدوي .. كم مـرة إعتصـر قلبهـا لبرودة الـوداع ، مسكينة مـريم رغـم كـل سـنين عمـري الطويلـة و رغـم أسـفاري البعيـدة وكـل البشـر المـارين في طريقي لـم أودع قـدر مـا ودعـت تلـك الجميلـة .. و لـم أعهـد وداع يشبه وداعها ذلك اليوم ، مرت الأيام وكنت لا أنفك أفكر في مريم حتي أني لم استطيع منع نفسي من مراقبة نافذتها ليلا فيخيل إلي أني أراهـا .. و أنظر لصـندوق البريـد فـالمح خطواتها إليـه .. فـأذهـب لحيث هـو ثم أتذكر ألا خطابات بهذا اليوم أيضـا ؛ فمـريم ليسـت

هنا ، فأعود لغرفتي لأراقب نافذتها من جديد و أنا محاط بذكريات لا تحصي ، فأردد داخلي إسمها و أتمني لو أصبح بوضع أخر ذلك لأن أي وضع كان أفضل بالنسبة إلي من بعدها ، كنت أظل أحدثها طوال الليل كفاقد عقله قائلا :

" لو أنك كنت هنا يا حبيبتي ، لكن و كيف لا .. إنك توجدين هنا كما أنا تماما .. فأنت توجدين حيث توجد روحي "

بعد اسبوعين لم أكن أتعافى من إدماني لها .. بل علي العكس ، حتي تبينت أخيرا أن هذا الخيال الذي أراه هو طيفها ، فأخذ ذلك السفر البعيد يملئني فيعيدني بعد الغياب لأشواقي .. و كيف لا أشتاق إليها و هي عمري الماضي .. نقاء نفسي و زوال همي و قضاء ذلي ؟؟!! ، كانت تشبه وجهتي التي أجهلها و طريقي الذي أسير به .. صلاتي و دعائي و سر سنواتي السابقة .. في صحوي و غفوي ، لم يملك قلبي القدرة علي نسيانها و لو للحظات ؛ فعندما كان ينبض كان يوقظ ذكرياتي عنها حتي ما عدت أحتمل الفراق ، و هنا قررت أن أتبع قلبي لحيث مريم لأعود بعد كل تلك السنوات لباريس .. فقط للقائها ، سافرت لباريس و ذهبت للفندق حيث هي ، عندما أخبروها بإنتظاري أتت إلي تركض مسرعة لترتمى بحضني ، أما أنا فعندما لمحتها تركض تجاهي من بعيد كنت كالميت الذي دبت به الحياة ، حينما رفعت رأسها من حضني نظرت إلي قائلتا :

" كيف وجدتني .. كيف إهتديت لطريق الفندق "

فإبتسمت لها و عدت لضمها قائلا :

" من المستحيل ألا أهتدي إليك ؛ فأنا لا أضل طريق عينيك هي نهايته"

أخذت مريم تضحك و تقول :

" إذا أنت تلحقني "

فأجبتها :

" نعم .. و كيف لا .. ألحقك لأني ألحق أحلامي و أنظر إليك لأري مستقبلي "

قضينا الكثير من الوقت بذلك اليوم في الحديث ، فأخذت تروى لي ما حدث منذ وصلت لباريس و أنها حاولت التواصل مع ملاك و التي إكتشفت بعد بحث عنها أنها قد غادرت باريس للإستقرار في فلسطين منذ عدة أشهر و قد أحزنها ذلك كثيرا ، إلا أن أسوء ما مرت به مريم كان لحاق حظها السيئ بها لهنالك ، فأخذت تحكي عن السيد رضوان .. ذلك الصحفي الشهير و المتزوج .. الذي إتضح أنه رجل زنديق ، حين ظن أن تواجده مع مريم في باريس سيكون فرصة ذهبية لمحاولة بدء علاقه معها ، و عندما رفضت و حدثته عن زوجته و أبناءه رماها بكلمات مهينة حول علاقتها برؤوف و قال لها :

" لا حاجة لك لتدعي الشرف أمامي ؛ فأنا من كان يخفي أثار علاقتك به "

لكن مريم لم تجبه و إكتفت بالذهاب للمسيو ميليس و رواية

ما حدث ، و الذي وضع حدا لذلك الأمر حتي أنه طلب من رضوان العودة للقاهرة ؛ فهو لم يشئ أن يفسد شراكته مع مريم خاصتا قبل الحفل ، بعد ذلك اليوم ظلت مريم منشغلة بأمر العمل و الإعداد للحفل الذي أتت من أجله ؛ لذا لم استطع التواجد معها كثيرا لكنني كنت أراها كل يوم و كان هذا كافيا بالنسبة إلي ، و رغم جمال باريس و إنشغالها بالعمل و وجودي إلا أن كل ذلك لم يستطع إنهاء تعاستها ؛ فكانت تسير صباحا وسط الشوارع صامتتا شاخصتا بعيونها للسماء .. تسير داخل الفراغ و رغم كل زحام شوارع باريس كانت تبدو فارغة بالنسبة لها ، فكانت تقضي صباحها بالعمل و تظل ليلها مستيقظة لترعي النجوم ، و كنت أتساءل عن تلك الأحلام التي تحلم بها مريم فتوقظها علي ألم شديد يسرق غفوها ، و أسئل نفسي عن ذلك الطيف في أحلامها كيف يرتضي تركها تفيق ؟؟!! في حين أود أنا لو أمكنني أن أمنعها الغفو و لو للحظة لتظل عيني معلقتا بها للأبد دون أن تغيب ، كنت أعلم جيدا فيما تفكر .. فلقد كانت تظن ألا أحد يحبها و أن لا أحد سبق و فعل .. و هي تجهل في يأس أمر حبي و رضائي بأي مصير أواجهه في هذا الحب ، كانت كل امالي لو تنعم بلحظة سعادة بعد كل هذا العناء ؛ فلا صمتها في الصباح .. و لا صحوها في الليل كان يشبها ، إستمر وجودنا بباريس قرابة الشهر .. و في أحد الأيام قررت إصطحاب مريم لحيث كنت أعيش بباريس ، سرنا طويلا بين شوارع باريس و ممراتها و أثناء ذلك مررنا بأحد

المناظر الجميلة فإبتهجت مريم و أخذت تشير إليه قائلتا :
"أنظر لذلك المنظر أليس جميل و مبهر ؟؟؟؟ "
فأجبتها و عيوني عالقة بها :
" لا يبهرني شئ و لا يغريني بإستثنائك أنت "
أخذت مريم تبتسم في خجلا شديد و تعقد يديها ، و بعد دقائق عدت و قلت لها :
" هل حازت باريس علي إعجابك ؟؟؟؟ "
فأجابتني :
" إنها رائعة ، لكنها أبدا لا تشبهك ، كيف عشت بها لكل تلك السنوات ؟؟!! "
فأجبتها :
" ليس من الضروري أن تشبه كل مدينة من يسكنها .. لكن يجب أن يشبه كل شخص المدينة التي تسكنه ، و أنا كنت أعيش بباريس و ليس هي من كانت تعيش بي "
ثم مررنا بأحد الحدائق و كان بها الكثير من العاشقين .. الكثير من الأيدي المتشابكة .. و العيون المعلقة .. و الأحضان الدافئة ، ظلت مريم صامتة و كنت أعلم أنها تخجل من أن تسألني لماذا هي بالأخص لم تحظي بالحب ؟؟!! و كنت أخجل أن أجيبها بأن ذلك هو ضريبة كل شئ أخر ، ثم شردة و هي تقول :
" لم يرغب أحدا يوما في الإمساك بيدي لأطمئن أو لكي لا أفلت حتي .. رغم أن الجميع إنتظروا أن أفعل "

ثم إستمر صمت مريم لفترة طويلة حتي نظرت إليها و قلت لها :

" بماذا تفكرين ؟؟؟؟ "

فأجابتني :

" أفكر كم أن باريس جميلة "

فقلت لها :

" نعم جميلة ألم أخبرك أنها تشبهك "

فهزت رأسها و هي تبتسم و تتلجلج في الحديث خجلا قائلتا :

" ماذا .. لا .. لا أعتقد فهي في غاية الجمال "

فنظرت إليها قائلا :

" حقا .. إذا لا تصدقيني ، يمكننا سؤال أحد المارة إن كان قد رأي ما هو أبدع خلقا منك ؟؟؟ و ستكون الإجابة حتما لا .. و لا حتي باريس "

فأخذت تضحك بصوت مرتفع و هي تضع يدها علي وجهها ، و أخذت أنا أجذب المارة في الطريق لأسالهم إن كانت مريم جميلة .. ليخبروها كم هي جميلة و رقيقة ، فأخذت تحاول منعي مما أفعله .. و تخبرني أن الناس ينظرون إلي و كأنني مجنون ، توقفت للحظات أنظر إليها و هي تمد عينيها إلي و إبتسامتها تخفت شئ فشئ لتتحول سريعا لسيل من الدموع و هي ترتمي بأحضاني ، أخذت تبكي و بصوتها الآلاف من الحسرات و القهر ، و لم أملك سوي أن أضمها بقوة و لست أدرى هل بهذا العالم مكان يمكن أن تكون به سعيدة و لو لمرة دون أن تنتهي سعادتها بأم و دموع ،

هدأت مريم و خففت عنها و جوبنا الشوارع و أنا أضمها حتي وصلت لمنزلي القديم ، أعجبت مريم به كثيرا ثم خرجنا منه لنكمل سيرنا لأريها ذلك المقهي الذي كنت أجلس به و أكتب خطاباتي لنجيب ، ثم قررت أن أدعو مريم لشرب فنجان من القهوة داخل برج إيفل .. إلا أنها رفضت في بادئ الأمر و أعتقد أن ذلك كان بسبب رؤوف و الذي كانت تتمني أن يكون هو الشخص الذي تحتسي بصحبته فنجان قهوتها الأول داخل برج إيفل .. إلا أنها بعد لحظات أخذت تنظر إلي ثم تنهدت و هي تبتسم قائلتا :

" أتدري .. بل سأذهب بصحبتك بالتأكيد ، سيسرني ذلك كثيرا "

و أثناء توجهنا لإيفل مررنا بمتجر للزهور .. فذهبت و أحضرت زهرة لمريم ،أعطتها لي صاحبة المتجر و هي تبتسم و تومئ إلي بعد أن رفضت أخذ ثمنها ، عدت لأعطيها لمريم و مازالت تلك المرأة تشاهد و تبتسم ، بعد عدة شوارع وصلنا لبرج إيفل و جلسنا لنحتسي القهوة و هنالك نظرت مريم إلي و قالت :

" ألم تكن لك علاقات نسائية بباريس ؟؟؟؟ "

فأجبتها :

" لم أكن أحيا في باريس حياة الليل يا مريم "

فعادت لتقول :

" لم أقصد ذلك فقط أتساءل ألم تقابل أي نساء في باريس؟؟؟؟ "

فقلت لها :

" قابلت الكثير من النساء .. لكنني لم أحب إحداهن "

فقالت لي :
" إذا لـم تحـب سـوي أمي ، كنـت أكيـدة .. فأنـت دونـت ذلـك في روايتك"
نظرت إلي مريم و أنا شديد العجب من كونها قد قرأت تلك الرواية التي أهديتها لها يوم ميلادها ؛ فهي لم تذكر ذلك قبلا ثم قلت:
" إذا قرأتها ؟؟؟؟ "
فأجابتني :
" بالتأكيد .. لم يكن لي أن أغفل قرأت شئ كتبته أنت ، و لقد أحببتها كثيرا .. و أشكرك علي تلك الهدية .. شكرا متأخرا للغاية و أنا آسفة علي ذلك "
ثم نظرت إلي و إبتسمت قائلتا :
" لكن ما سر الزهرة بين الأوراق ، لقد أهديت لي بالفعل بذلك اليوم باقة كاملة من الزهور "
لم استطع أن أخبرها بما يدور داخلي فقط أخذت روحي تهمس إلي بهدوء قائلتا :
"و حتي أسوء الكتاب . . لا يمكنه أن يهدي إليك كتابه . . و يغفل أن يضع داخله إليك زهرة ، إليك أنت فقط "
ثم صمت للحظات و كذلك مريم التي أخذت تحتسي قهوتها بنعومة و رقة مغرية ، فنظرت إليها و إبتسمت ثم قلت :
" أتعلمين شئ ليست والدتك فقط .. بل إني أحببت إمرأة أخرى ،

تشبهها كثيرا .. و كأن روحها عادت لتكمل حياتي .. و كأنها لم تغادر يوما .. حتي أنها جعلتني أشعر و كانني لم أغادر مصر أبدا ، و لا أعلم إن كنت أملك الإختيار بينهما ، فأيهما كنت سأختار لأضيع بها إن كنت قابلتهما بنفس الزمان ؟؟؟؟ "

نظرت إلي مريم و إرتسمت علي وجهها نظرت شغف و تبسمت دون أن تدرك حقيقة المرأة الأخرى التي ذكرتها ، ثم أخذت تتردد في الحديث فأشرت لها لتسألني عما تريد فقالت :

" لكن تلك المرأة في متجر الزهور كانت تنظر إليك بشكل غريب "

فأخذت أضحك و أنا أشيح بنظري عن عيونها و أقول :

" كانت إمرأة جميلة تملك متجر الزهور في الشارع المجاور لمنزلي ، و كانت تترك أمام بابي كل صباح زهرة رقيقة ألتقطها في سعادة ، و كنت أمر أمام متجرها كل يوما و أنا في طريقي للعمل فترمقني بنظرة شغف .. و أرمقها أنا بنظرة تقول في كل لحظة سبحان الله .. كيف أبدع هذا الجمال ؟؟!! عينان زرقاوان في صفاء سماء نهار ربيعي .. و شعر يشبه سنابل القمح تحت أشعة الشمس الذهبية .. بملامح تشبه الزهور التي تبيعها .. ناديت و صبية .. همسها كان يشبه النغم .. و صوتها كان أشبه بتغريد العندليب الحر في السماء ، لكن عندما جرأت أخيرا علي التحدث إليها و جرأت هي علي الرد ، رأيت بها تلك المرأة التي وصلت لمنتصف العمر و مازالت بريئة و عذراء ، لا أحد يحبها و لا أحد يشتاق إليها ، لا أحد يتذكرها و لا أحد يسأل عنها ، لم تنطق كلمة أحبك أبدا و لم تسمعها يوما ،

كل ما تعرفه عن الرومانسية هي تلك المشاهد التي رأتها في الأفلام ، و كل ظنها عن لمسة اليد أنها قوية لا تفلت ، كانت ما تزال تحلم كالمراهقات بالسير علي شاطئ البحر متشابكة الأيدي مع من تحب ، و كانت تشتهي ليلة ممطرة بصحبة المعشوق تتحدث فيها علي ضوء الشموع عن المستقبل عن البيت و عن الاطفال .. في حين وصل بها العمر لعدم القدرة علي الإنجاب ، و ما زالت تحلم كلما غفت بالفستان الأبيض و تهاني المدعوين و الرقص الرومانسي الهادئ المصحوب بكلمات حبيبها الذي لا يصدق أنها أخيرا له ، و لذلك تماما منعت علاقتي بها من التطور ؛ كي لا أكسر قلبها و لا أؤذيها ؛ فأنا لم أكن من الممكن أن أصبح ذلك الرجل أبدا ؛ فقلبي كان معلقا بمكان أخر و لم يكن له أن يتركه أبدا "

إبتسمت مريم لي و أرادت أن تغير مسار الحديث فقالت لي :

"إذا ألا تخبرني بسر لم تخبر به شخص من قبل و لا يعرفه غيرك؟؟؟ "

تنهدت ثم صمت للحظات و أنا أتلفت حولي ثم زفرت الهواء بقوة و أنا أقول :

" مريم "

لم أحصل علي أي ردة فعل من مريم علي هذه الإجابة سوي المزاح .. و لا أعلم إن كانت قد فهمت حقا ما عنيته ، بعد أسبوع من ذلك اليوم أنهت مريم عملها باريس و بداءنا في الإستعداد للعودة للقاهرة .. و في ذلك الوقت قرر المسيو ميليس دعوتنا

لحفل في منزله إحتفالا بالنجاح الباهر للزفاف الذي نظمه ، عندما وصلنا للحفل كان كل شئ معد بدقة و بثراء ، كل شئ كان يشبه ليالي باريس التي لم تعرفها مريم طوال فترة وجودها بسبب العمل ، المنزل الفاخر.. و الأثاث الثري الأنيق و الأضواء التي تتلألئ فتملئ كل شئ بنورها .. نساء باريس الجميلات و رجالها الأنيقين .. الموسيقي الهادئة الرقيقة و الموسيقي الصاخبة الشبابية .. كل شئ ضمته باريس إجتمع بتلك الليلة بمنزل مسيو ميليس ، لكن شئ لم يكن أكثر إبهارا من مريم التي كان الكل يدعوها بجوسيان و كانت هي شديدة السعادة لذلك .. و كنت أنا أدرك ألا فرق بين كلاهما فبكلاهما عشت حياتي ، بالنسبة لي لم يكن شئ بمريم مختلفا تلك الليلة عما عهدتها فهي كانت كما إعتدت رؤيتها .. أبدع ما وقعت عليه العين ، كانت ترفض بإستمرار دعوات الشباب للرقص و كنت أستحي من أن أطلب إليها ذلك و بعد قليلا من الوقت نظرت إلي قائلتا :

" إذا .. ألن تدعوني للرقص ؟؟؟؟ إنتظرتك طيلة الليلة لتطلب ذلك و ها قد شارفت الحفل علي الإنتهاء و مازلت منتظره "

لم أدرك ما علي فعله في تلك اللحظة ، و لم أجب بشئ حتي جذبت مريم يدي و بدئنا بالرقص ، حينها أخذت أفكر بكلمتي (ماذا) و (لو) فهما مجرد كلمتين لكن إذا إقترنتا ببعضهما البعض أصبحت جملة ربما تعذب القلب للأبد ، فماذا لو يتكشف لي فجاءة أن مريم حقا كانت تنتظر لكل تلك السنوات إقترابي إليها

و الذي منعه خوفي ؟؟ و ماذا لو كان من المفترض أن أبوح بسري و لم أفعل؟؟ بعد لحظات أفقت من شرود ذهني على تلك اللمعة المنطفئة في عيونها ، و أخذت أفكر في إخبارها بأمر موعد زفاف رؤوف و الذي كان سيلي عودتنا للقاهرة بأسبوع واحد و سيوافق ذلك يوم رأس السنة الميلادي ، لم أكن أعرف إن كان علي إخبارها بما لم استطع التحدث عنه طيلة فترة وجودي بباريس ، فهل كان يجب أن أخبرها بينما هي في هذا الموقف و اللحظات السعيدة .. أم أصمت بالوقت الراهن لنفس السبب و أتركها للمفاجئة حين تعود للقاهرة ، لكنني و بشكل مفاجئ أخبرتها دون حتي أن أدرك ، فعلت ذلك حين عثرت عليه و لم يزل يجوب كالنقمة داخل عيونها ، إبتسمت بهدوء و نظرت إلي قائلتا :

" لكنت تمنيت له السعادة من كل قلبي لو ظل قلبي ينبض .. لكن و بفضله أظنه توقف عن العمل ؛ لذا أتمني له السعادة فقط "

ثم أخذت أفكارها تتسرب من العقل للقلب فتسرق من رونق شبابها الكثير .. الإبتسامة النقية و رعونة الصبي ، أخذت ترقص بإنفعال دون ضحكات حقيقية ، تذكره بصمت و تنساه إدعاء ، تستمع بإنكار لأغاني الحب علي أنغام الموسيقي الفرنسية .. لتردد الحانها بعيونها شوقا له ، و في ختام الحفل أطلقت الألعاب النارية أمام منزل مسيو ميليس ، في حياتي رأيت الكثير من الضوء بالسماء و الكثير من الألعاب النارية لكنني لم أري أبدا مثل تلك التي رأيتها هذه الليلة ؛ فهذه المرة أشعلت تلك الأضواء نيران لن

تستطيع محيطات الأرض مجتمعة إطفائها داخل مريم ، بعد دقائق قليلة إنتهي الحفل و إنطفأت الأضواء و ودعنا بتلك الحفل مسيو ميليس لنغادر باريس بصباح اليوم التالي ، عند عودتنا للقاهرة لم تكن مريم قد بكت حتي تلك اللحظة خبر زفافه ، و عندما وصلنا لجوسيان و رأت السيدة تحية و أمينة ركضت بإتجاههم و أخذت تضم السيدة تحية بقوة لتخبرها كم إشتاقت إليها و كذلك أمينة التي إشترت لها مريم الكثير من الأغراض و الملابس من باريس ، مرت عدة أيام ظننت بها أنها ربما بدأت في نسيانه و تخلصت من ذلك الحب الذي أهدر عمرها و لحظات سعادتها ، ظننت أن ربما تلك الأشهر من البعد و الوحدة و الألم كانت كفيلة أن تنسي إمرأة شابة رجل لم يكن يوما حبيبها .. فأجد لنفسي مكان بخافقها ، لكنني أدركت أن حبها إليه يختبئ بركن مظلم بقلبها .. أدركت أنها لا تنساه ، حين كانت تحاول الغفو فيسرق غفوها طيفه السخيف ؛ لتصلي سرا و تدعوا له بالمغفرة و العفو .. و حين تنهي صلاتها غافلتا أن تدعو لنفسها و لا تغفله أبدا .. لأدرك أن الرجل الذي خلفها ورائه دون أن يهتم بما سيحدث لها كان أهم بالنسبة لها مما حدث لها بالفعل ، فعلمت أنها كانت تبكيه هو لكل تلك الأشهر و لم تكن تبكي ذاتها كما كنت أظن ، و رغم أنها ظلت لكل تلك الشهور تحاول أن تتعافي من إدمانها له دون جدوي .. و تحارب لكسر قيدها القوي ذلك الذي إرتدته بنفسها في يوما من الأيام ، كثيرا كنت أرى دموعها تتسرب

حين تقرأ بيت شعرا جميل .. و حين تسمع أغنية أو ترى المطر ، كنت أراها كل ليلة تستيقظ من أحلامها رافضتا هذا الواقع الخالي منه ، لكنها ظلت تحاول دون إدراك ما أدركت أنا .. أنها مهما حاولت كسر هذا القيد ستفشل ؛ فهي كالطير الذي يحلق صباحا في سماء حريته ليعود كل مساء لسجنه الكئيب رافضا بعده معلقا به مدمنا لإدمانه ، و لم تكن لأي قوة أن تكسر ذلك القيد بإستثنائها .. لكنني كنت أكيد أنها تأبى الخلاص ، و كنت لا أملك أمام ذلك إلا أن أشاهد فشلها الأليم ، ثم جاء يوم زفافه .. كنت أعلم معني رغبتها في رؤيته بذلك اليوم ، لكنني لم أكن أفهم رغبتها في ذلك الشعور الذي تنتظر أن تلاقيه برؤياه ، لم أفهم أي نوع من البشر يدفع بنفسه لمثل ذلك الشعور القاتل .. و لأي سبب ، و رغم أني و منذ سنوات رميت بنفسي لنفس الشعور .. و تركته لسنوات تالية يقتنص كل سعادة أحياها .. و يقتل كل أمل لي بحب جديد ، إلا أني كنت أملك دافعا أكثر مما تملك هي اليوم ، فلقد كنت أملك نجيب و مريم و كان يجب أن أكون الشاهد الحي علي سعادتهم كما كنت شاهدا علي صدقهما و حبهما ، أما هي فلم تكن شاهدا إلا علي غدره و دنو نفسه .. و رغم ذلك كانت تود أن تراه سعيدا ، كانت تريد أن تنهي أخر صلة لها به و هي تحتفظ له بصورة الرجل السعيد المحب .. الذي و أخيرا وجد ضالته المنشودة في المرأة التي أحب .. لتصلح ما تصدع في نفسه لكل تلك السنوات .. و تجعل منه رجل أخر، لكن هل ستحتمل صغيرتي ،

لـم أكـن أعلـم أنهـا تملـك داخلهـا كـل تلـك القـوة ، فـرغم عيونهـا الحـائرة الدامعـة .. و رغـم شحـوب وجهـا البريء .. و تلـك الرعشـة بأطرافهـا المتجمـدة ، كانـت تبتسـم إبتسـامتا صـادقة دون إدعـاء أو كـذب تمامـا كطبيعتهـا و كعادتهـا لـم تكـره سـعادته ، حـين توجهنـا خلسـة للعرس كنت أظن أنهـا لـن تسـتطيع النظر ، و أنهـا سـريعا مـا سـتخبئ عيونهـا كي لا تلمـح قلبهـا و هـو يتمـزق أكثر ، لكنهـا و بقـوة شديدة أخذت تنظر و تبتسم و بصوت خافت همسة قائلتا :

" إنـه شخـص لا يسـتمع أبـدا للنصـيحة ، لقـد أخبرتـه سـابقا أنـه ليس جميلا في اللون الأبيض .. و أن الأسود يليق أكثر بلون بشرته ، كان يجب أن يكون أكثر حرصا في ليلة زفافه و يختار حلة سوداء بدلا عن تلك البيضاء "

ثم إلتفتت إلي و أنا أنظر لها بتعجب شديد و عادت لتقول :

"يمكن أن نغادر الأن فهي ستمطر قريبا و علينا العودة لجوسيان"

لم تكن السماء غائمتا حتي ، و لم أعلم من أين جاءت تلك الفكـرة عـن المطـر .. لكـن سـريعا مـا إنهالـت السـماء بأمطـار غزيـرة أغرقت الشوارع ، كنت أنظر إليها و أنا أعلم أنها تمنت أن تمطر السـماء حتي لا اسـتطيع أن أميز بـين دموعهـا و قطـرات المطـر ، و لكنني لـم أكـن أعلـم سـر تحقيـق أمنيتهـا بتلـك الليلـة ، و أخـذت أتسـاءل هـل كانـت السـماء تسـتمع لقلبهـا لهـذه الدرجـة ؟؟؟؟ و إن كانت فلماذا لم تستمع له و هو يصرخ محترقا لكل تلك السنوات ؟؟!! لماذا لم توقف السماء مأساتها و تنهي تلك المعاناة و الوحدة

؟؟!! لماذا لم تهبها قلوبا أكثر صدقا لتمر بطريقها ؟؟!! كنت أفكر و أنا أسير خلفها تحت المطر و أنظر لكل شئ لكن لا أري سواها ، و فجاءة توقفت عن السير و نظرت إلي قائلتا :

" ليس اليوم .. اطمئن لن يتوقف قلبي عن النبض اليوم ، ليس اليوم و ليس غدا ، و لا لأي وقت أخر بعد اليوم "

شعرت و كأنها كانت تستمع لأفكاري و مخاوفي و تيقنت أنها صادقتا فيما يخص اليوم .. لكنها كاذبتا سيئة فيما يخص ما سيلي ذلك ، بتلك الليلة جاء خطابها مزعجا بالنسبة إلي ؛ فلقد أكد لي أنها لا تقترب حتي من نسيانه حين قالت :

" أحاول أن أهدئ قلبي و أعلله .. و أخبره ألا يخشي علي من يحب من الوحدة في هذه اللحظات ، فمن يحب بصحبة حبيبته في أول لحظات عامه الجديد ، و قلبي يفكر هل هو سعيد ، عندما رأيتها جواره و هو يوجه لها تلك النظرات المحبة و الضحكات التي كنت أعشقها .. شعرت و كأن كل شئ يعيد نفسه .. و كل لعنه تعود لتلعنني ، كأني أسير بنفس الطريق لألف مرة .. و أشهد ذات المجازر ألف مرة ، كأني أودعه كل يوما .. و أني أموت بكل لحظة ، كأن النهاية تجئ ألف مرة .. و أني أدمر ذاتي و أهشم قلبي لألف قطعه ، و كأن العمر لا يجئ إلا مرة .. و السعادة فرصة كانت لمرة .. و الحب لا يعاد فهو لقائنا الذي توقف هذه المرة ، قرأت أن أشد حسراتنا يوم نلقي الله و حسناتنا تذهب لأناس كرهناهم .. تنجيهم من العذاب .. بلحظة غيبة منا لهم ، فقررت أن أحول تلك

الحسرات لفرح حين قررت أن أنجيه من النار، سأغتابه ليأخذ حسناتي و أصنع غيرها بتضرع لله ثم أعود لأغتابه من جديد ، فأنا أدرك أنه منشغل بهذا العالم عن فعل الحسنات .. و ستكون هذه هديتي لحفل زفافه "

لعلي في تلك اللحظات كدت أكره مريم ؛ فلقد كنت شديد الغضب منها ، و لقد بدت لي لوهلة واحدة أحد تلك النفوس المعقدة التي تهوي تعذيب ذاتها بطريقة لا يمكن تصورها ، فلماذا تظل معلقة به إلي ذلك الحد في حين يمكنها أن تنصرف عنه بحب المحيطين بها؟؟!!

بعد فترة قصيرة مرض الأخ الأكبر و الوحيد للسيدة تحية فقررت الذهاب لقريتها لتظل معه وقت مرضه ، سبب رحيلها إختلال لنظام و إتزان مريم .. إلا أن وجود أمينة أخذ يعوض شئ بسيط من غيابها و كنت أنا أيضا ألازمها بعد إنتهاء عملي لباقي اليوم و كذلك عبدالعليم الذي أدرك بوجود أمينة أنه لم يكن يحب مريم .. فقط كان منبهر بها و بكل شئ يحيطها ، فبدأ قصة حبه الخاصة مع أمينة و التي باركتها مريم .. و باركتها أنا لعلمي أنه ليس شخصا سيئا و أنه حقا بدأ بحبها .. حتي أنه أخبر والده عنها ، مر الوقت و ظلت مريم تقوم علي عملها بجوسيان وحدها خاصا بعد أن بدأت الدراسة فإنشغلت أمينة بها ، كانت خطابتها بتلك الفترة لا تخبر شئ .. فقط الحياة الرتيبة .. العمل .. غياب السيدة تحية .. و أمينة و عبدالعليم ، فظننت أنها بعد الرحيل هدأت ..

و أن إحتراق روحها أخذ ينطفئ .. و تلك الغصة بدأت بالزوال ، و أن بالدنيا سبيل يمكن أن يقودها به لتلك الراحة المنشودة .. فقررت أن أمنح أحلامي موعدا جديدا فلا يوجد ما يمنعها الأن ، مما أغراني بأن أسرقها يوما لتكون لي وحدي ، أخذت أدور بها بين طرقات و أزقة بنت المعز علها تجد وسط ماضي الوطن حاضرا يهون به كل ما كان ، فصار كل حي يمر بها يذكرها بالبعد و برؤوف .. الذي إكتشفت أنه ظل رغم فراقه أقرب الناس منها ، كانت تنظر لليمين و تبتسم فأدرك أنها لمحة في البعد طيفه فتبسمت في صمت ، و حين تنظر لليسار يدمع طرفها فأعلم أن أمرا ذكرها بالنوي ، حين تصمت كنت أسمع بأنفاسها حديثا تتبادله بعقلها معه .. و بين لحظة و أخري يصل إلي نبض قلبها .. الذي كان ينادى عليه خلسة و يذكر إسمه بكل دقة ، علمت أن لا طريق و لا مكان أرسلها له سينسيها أمر ذلك الرجل الذي تركها وحيدة ، كانت تسير مكسورة الفؤاد .. و تتحدث مكسورة الفؤاد ، أري بعينيها ذلك الكسر و بوحي ضميرها و حتي أنفاسها كانت تخبر عنه ، لم تستطع أي كلمة أو أي نغمة إنهاء ذلك .. لا آهات السيدة أم كلثوم .. و لا أنغام عبد الوهاب .. و لا حتي رقة عبد الحليم ، و حتي حين إصطحبتها إلي أولياء الله الصالحين .. عادت من ضريح السيدة عائشة و الحسين و عقلها يرفض طلب عونهم و بركتهم ، و عادت لتقول لي أنها سبق و طلبت عون الخالق ليس المخلوق فحدث كل ما كان ، ثم أخذت تخبرني أنه القدر الذي أقره الله و حكم به علي

الفؤاد ، و أن كسرها و حزنها ليس له علاقة بالرضا بذلك القضاء فلربما هي ليست سعيدة للغاية لكنها راضية تماما بقدر الله ، حينها علمت أن بعد تلك اللحظة ليس شئ أفعله أو تفعله سيساعدها .. فقط تغير قدرها و ذلك بيد الخالق وحده ، و عندما عدنا لجوسيان نظرت إلي قبل أن تفارقني و قالت :

" لا عليك مني .. فعلي كل حال لقد أغرمت من جديد ، و لقد أسعدني ذلك من جديد "

و كنت أعلم أنها كاذبة ، فلو أغرمت مريم مرة أخري لعلمت .. و لو سعدت مرة أخري لشعرت ، و أكد ذلك خطابها بذلك اليوم حين قالت :

" إقتنعت تماما بأنني توقفت عن حبه و عن الدعاء به ، إلا أنه في مكان ما مازال داخلي شئ يدعوا الله به ؛ حين يخدعني عقلي فيدعوا به .. فتتجسد دعواتي في نومي بصورة أحلام ، و يدعوا قلبي به حين صحوي .. فيتجسد الدعاء في حنيني إليه ، و تخدعني ذاكرتي حين تضيع ذكائي به بهيئة ذكرياتي في حبه ، و تكون الطامة الكبري حين تتمثل دعواتي به في توقف كل شئ و كل وقت ، حين لا ينتهي فصل الشتاء أبدا .. و حين تتجمد الشمس صيفا بنفحات برد مرعبة لغيابه ؛ فيدعوا كل شئ داخلي سرا به "

بعد هذا اليوم بعدة أسابيع شعرت مريم بالإشتياق للسيدة تحية لذا قررت الذهاب لزيارتها و لتطمئن علي أخيها أيضا و قررت أنا مرافقتها إلي هناك ، كنا سنغلق جوسيان إلا ان أمينة

و عبدالعليم وعدا بالإعتناء به خلال أيام غيابنا و بالفعل وافقت مريم علي ذلك ، و غادرنا القاهرة متوجهين لصعيد مصر حيث كانت قرية السيدة تحية التي تنتمي لمحافظة المنيا ، إستغرق الطريق إليها خمس ساعات عبر القطار ، كانت قرية صغيرة كل من بها يعرف الأخر و كأنهم عائلة واحدة تتشارك الأفراح و الأحزان ؛ و لذلك تماما لم نجد صعوبة في الوصول لمنزل عائلة السيدة تحية ؛ فبمجرد توقف القطار كان هناك العشرات من الأشخاص الذين عرضوا المساعدة لإيصالنا ، كان اللقاء بين السيدة تحية و مريم حارا جدا ، مريم التي لم تشئ أن تصبح عبئ علي السيدة في وضع مثل ذلك لذا فقد قررت ألا نطيل البقاء لأكثر من ثلاث أيام .. لم تقصر بهم السيدة تحية في أي واجب للضيافة رغم إنشغالها ، حتي أنها إصطحبتنا في اليوم الثاني للتنزه بين الحقول و المزارع ، كان نهارا صيفي متمسك ببرودة الشتاء .. و هدوء الليل ، رغم ذلك كنت شديد السعادة بذلك الوقت الذي أقضيه بصحبة مريم و هي لي وحدي مرة أخري .. بعيدا عن أي شئ يؤذيها .. بدون أي حب يعذبها .. و حتي بدون عمل .. لا شئ كان يبعدها عني و لو للحظة .. أنا فقط محور إهتمامها و حديثها ، إلا أن ذلك الحال و تلك السعادة لم تستمر طويلا حين غرد الكرون فوق سماء الحقل فسمعته مريم لتتغير ملامحها و تصمت و تشيح بنظرها عني لتشرد بالسماء ، حينها نظرت إليها و قلت :

" هل أزعجك ذلك الصوت .. أم ذكرك بشئ مزعج ؟؟؟؟ "

إبتسمت مريم إلي و هي تقول :
" لا أعلم كيف لك أن تعرف دائما بماذا أفكر .. إلا أنك مخطئ هذه المرة ؛ فلم يعد سماع صوت ذلك الطائر ينبئني بشئ .. لا برؤيته .. و لا بلقياه ، بل و قد إكتشفت أيضا أن لا علاقة له به علي الإطلاق ؛ فهو مازال موجود يحلق حرا كل ليلة ليغرد بالسماء بصوت عذب رغم رحيله ... أنا فقط من كان يحب ربط وجوده بالأشياء العذبة الجميلة .. و لقد كنت مخطئة بذلك تماما "

إبتسمت لسماع ذلك من مريم و بعد لحظات عاد شعوري بها يدفعني للحديث قائلا :
" إذا ماذا عن الأن ؟؟؟؟ ماذا يحدث عندما يذكرك به أمرا ؟؟؟؟ "
فأجابتني :
" أحيانا و ببعض من الوقت أسير وحيدة و أدعي أنه جواري نسير بسعادة حتي الفجر تحت ظلام لا نخشاه ، و أنا أدرك أنه فقط داخل مخيلتي ، بدونه توقفت الحياة و بدوني عالمه سيستمر سعيدا كالسعادة التي لم أعرفها أبدا ، و لذا عندما أجد نفسي أتذكره التجأ إلي الله بسرعة .. أسئله أي ذنبا أفضي بحالي لهذا الحب ؟؟؟؟ و أي كفارة أمارسها لينفك قيد تلك اللعنة التي تشبه الطرد من رحمة الله ؟؟؟؟والتي وأخيرا بت أكرهها و أسعى لزوالها "
فنظرت إليها و قلت لها :
" إذا مازالت تذكرينه ، لكن ألم تقولي أنك أغرمتي من جديد؟؟!! "
فأجابتني :

" لا "

فقلت لها :

" بل .. أني أكيد من أنك سبق و أخبرتني بذلك "

فقالت :

" نعم .. لكنك الأن تسألني عن حب البشر و لم تسألني عن حب الآلهة ، فالأن لا أدين بالحب إلا له فقط "

حب الآلهة .. كان من المريح أن أعلم أن مريم توجه طاقة الحب بداخلها لله فقط دون البشر ؛ فإن تحب رجل أخر شئ لن أقوي عليه أكثر من ذلك ؛ فلقد تعبت من تجاربها و حزنها رغم أني لم أتعب من صحبتها و حبها .

عندما حان موعد رحيلنا و في طريق ذهابنا لمحطة القطار شعرنا أن بالقرية حركة غريبة فتركتنا السيدة تحية لتسأل أحد المارة عما يحدث ، لتعود بعد لحظات و هي شديدة الحزن علي شاب يدعي محمد .. و الذي كان مجند بالجيش المصري و قد إستشهد بشكل بطولي مخلفا لأهله الفخر و العزة لتضحيته من أجل الوطن لم نسمع بالقرية صوتا واحد ينوح .. بل إمتلأت بأكملها بالزغاريد .. و التجهيزات التي لم تشبه أبدا تجهيزات العزاء بل كانت أقرب للتحضير من أجل فرح ، و هذا ما لفت إنتباه مريم ، أكملنا طريقنا لمحطة القطار و ودعنا السيدة تحية و عندما إستقللنا القطار ظلت مريم شاردة تفكر بعمق شديد ، لم أشأ إختراقه فلم أنطق بكلمة حتي نظرت هي إلي و قالت :

" عندما سمعت عن هذا الشاب الذي إستشهد علمت أنني إخترت لحياتي الأشخاص الخطأ .. و تساءلت لماذا لا أعلم بوجود أشخاص مثل هذا الشخص و أمثاله و هم أحياء ؟؟!! لماذا فقط أستمع لخبر موتهم وتضحياتهم بعد أن يفارقوا هذا العالم المزري "

ثم عادت لتصمت للحظات ثم قالت :

" أتظن أنه لحظة الموت لم يكن خائفا .. فقط لأنه من أجل الوطن؟ "

فأجبتها :

" بالطبع شعر بالخوف ، فذلك الشاب في النهاية كان مجرد بشرا ، أكيدا أنه شعر بالخوف لكن ذلك لم يكن يعني له شئ .. و لم يكن يعني أيضا أنه لم يكن شجاع ، لكنه كان رجل و هذا كان كافيا ليضحي بحياته من أجل الوطن و من أجل الأخرين "

حينها نظرت إلي و إبتسمت قائلتا :

" نعم كان مجرد رجل ، و هذا كان كافيا من أجل كل شئ "

ثم عادت لشرودها و هي تفكر في معني تلك الكلمة .. رجل .. تلك الكلمة التي تطلق خطأ علي أي ذكر دون أن ينتبه الناس أو يراعوا أنها ليست وصف للنوع و إنما هي وصف لمجموعة من العظات الأخلاقية و القيم التي يحياها الإنسان و يعاشر الناس بها ، بعد قليل من الوقت غفوت أنا و أثناء ذلك بدأت مريم تتحرك في كل مكان حتي لمحة شئ يقع بين الكرسي و جدار القطار فمدت يدها لتخرجه ، فإذا به دفتر قديم بغلاف من الجلد بنى اللون ،

بعدما فتحته مريم أيقنت أنه مذكرات أحدهم و التي فقدها في القطار ، عدنا في ذلك اليوم للمنزل و مريم تحمل معها تلك المذكرات و التي رفضت رغم نصيحتي تسليمها في المحطة ، و أثرت أن تعلم بنفسها من صاحبها و تسلمها له ، كانت مريم تدرك جيدا قيمة ما يكتب المرء عن نفسه ؛ لذا لم تشئ أن تغامر بفقد تلك المذكرات إن أهملها الشخص الذي سيستلمها ؛ لذا قررت أن تصنع جميلا في شخص لا تعرف هويته بأن تعيد بنفسها المذكرات إليه ، ظلت مريم لأيام تقرأ ما كتب بتلك المذكرات بحثا عن بيانات صاحبها ، فكانت تصير كل يوما أكثر شغفا به و رغبة في مقابلته ، كانت تلك المذكرات تروى عن شخصا يدعى ((مدحت سلا)) و الذي كتب عن نفسه و عن قصة حبه لفتاة تدعى ((رقية)) و التي كان يحبها بشدة و بصدق بالغ ، إلا أنها لم تحتمل وجود شخص ثالث كعنصر أساسي في قصتهما و هي ((قمر)) ، كانت قمر هي أخت مدحت المقعدة و التي أخذ يهتم بها منذ موت والدهم فهي لا تملك غيره بتلك الحياة ، لكن رقية لم تدرك أبدا ذلك الرابط بين أخوين فأخذت ترى كل ما يقدمه مدحت لقمر هو حقها المسلوب منها .. فالإهتمام و الرعاية و الوقت و الجهد و المال .. و كذلك كل شئ كانت تشعر أنه يجب أن يكون لها ؛ لذا فلم تستطع إكمال خطبتها منه و تركته من أجل أخر ، تعاطفت مريم مع تلك القصة للغاية خاصة أنها رأت بمدحت شئ منها و من عدم قدرته علي كراهية رقية رغم ما فعلته ، لم أقرأ

تلك المذكرات لكنني عرفت ما كان بها من خلال خطابات مريم بتلك الأيام ، و كانت شديدة التأثر بذلك الوصف الذي وصف به مدحت حبيبته فكتبت في خطابها:

" و لماذا تغدر إمرأة بحب كذلك الحب ؟؟!! و لماذا تخذله ؟؟!! عندما قرأت ما وصف به حبيبته تمنيت لو أن أحدا راني كما رأها هو ، و أن أحدا وصفني كما وصفها خاصتا حين قال (إعتدت في صغري أن أراقب السماء و دون وعي كنت أظن أن القمر يتبعني حتي أمنت بأنه صديقي الوفي الذي يسوئني غيابه كل شهر فقط لعدة أيام ، فلم يمر بالعمر يوم إلا و سرنا معا نتداول أحاديث العاشقين .. أنظر إليه معلق في السماء .. و ينظر إلي عالق في الأرض .. و لم يمنعني أي سبب ذاك اللقاء ، لكنني توقفت عن النظر للسماء حين رأيتها .. و ظلت عيني معلقة حيث وجدتها .. و بهذا هجرت صديقي الوفي ، فمنذ اللحظة الأولي التي وقعت عيناي عليها لم استطع رفعها عنها أبدا ، كنت أعلم أن عيوني وقعت علي شئ ثمين .. الأثمن علي الأطلاق بالنسبة إلي ، حينها أدركت من نظرتنا الأولي أن الأمور لن تعود كما كانت .. و لن تفعل أبدا ، كل شئ منذ لقائنا الأول أخذ في التغير المستمر حتي لم يصبح شئ كما كنت أعرفه ، و ظللت أحيا حياتي علي تلك اللحظة ، ظللت سجينها و سجين حبها للنهاية .. حتي بعد رحيلها عني) أتمني لو أمكنني رؤية ذلك الشخص لأخبره أنه لم يخطئ و ليس عليه أن يشعر بالذنب لإختياره أخته ؛ فلو كان لي أخوه لاخترت

رحمي عن حبي "

تمنت مريم لو أن أحدا قد رأها بذلك الشكل .. و أحبها بذلك الشكل .. و كتب عنها بذلك الشكل ، و لم تدرك أنني كنت أراها أفضل من ذلك .. و أغرق في حبها أكثر من ذلك .. و أكتب عنها أبدع من ذلك ، بعد أن أنهت مريم قرأت تلك المفكرة كانت قد علمت كل شئ عن مدحت سلام و الذي كان ملحن معروف فلم يصعب عليها إيجاد عنوانه ، و عندما وصلت لمنزله لم يكن بالمنزل لكن قمر كانت هناك فإستضافت مريم ، و لم ترفض مريم بدورها البقاء .. بل ظلت تتحدث لقمر و تروى لها كيف وصلت تلك المذكرات إليها ، شكرت قمر مريم كثيرا من أجل تلك المفكرة فأخيها كان شديد الحزن لفقدها .. و من أجل شكرها طلبت إليها البقاء للعشاء .. لكن مريم رفضت تلك الدعوة و وعدت قمر بالعودة بيوم أخر و تركت لها عنوان جوسيان و رقم هاتفه ، بعد عدة أيام كانت مريم كعادتها تهتم بزبائن جوسيان حيث أتت قمر برفقة أخيها مدحت ليشكرها بشكل شخصي علي إعادتها تلك المذكرات ، فإستضافتهم مريم بجوسيان و قدمت لهم الحلوي و طلبت منهم البقاء حتي يغادر الزبائن و بالفعل إنتظر مدحت و قمر حتي تفرغت لهم مريم و جلست للتحدث إليهم ، كانت قمر شديدة الإعجاب بمريم و التي كانت في مثل عمرها تماما ، إلا أن إستفحال المرض العضال إغتال جسدها ليجعل منه جسد هامد مهترئ و شديد النحافة .. ينضح بالسقم داخله ، كانت قمر فتاة سمراء

بشعر أسود كالليل و عيون سوداء جاحظة بسبب المرض ، و كان ذلك علي عكس مدحت أخيها الأكبر من الأب .. فقد كان شاب في نهاية الثلاثينات .. بجسد قوى و طول متوسط .. و بشرة مائلة للإسمرار و عيون سوداء ساحرة .. و شعرا أسود ناعم و كثيف .. كان شاب هادئ و وقور ، في حين كانت قمر رغم مرضها شابة مرحة و مضحكة .. تتلوا الدعابات طيلة الوقت .. حتي أنها من شدة إشفاقها عن نفسها كانت تخبر الدعابات عن مرضها ، و ألم ذلك مريم بشدة ؛ فلقد رأت فيها إنكسار تداويه بالضحكات ، طلبت قمر من مدحت أن يشتروا حلوي ميلادها من جوسيان فوافق .. في حين رفضت مريم و قررت أن تكون تلك الحلوي هي هدية خاصة لقمر مما جعل قمر أكثر سعادة ، مر أسبوع واحد حتي أتت إلي مريم و طلبت مني الذهاب معها للتعرف علي قمر و مدحت و رغم انشغالي الشديد بالعمل قررت في اللحظة الأخيرة أن أذهب بصحبتها .. و إصطحبت مريم أمينة أيضا لتساعدها علي إعداد طاولة الحفل ، إلا أننا حين وصلنا لم يكن هناك أي حفل و إتضح بعد قليل أن حفل ميلاد قمر كان مقتصرا علي أخيها مدحت .. و لسنوات طويلة ، لذا كانت مريم هي المدعوة الوحيدة ؛ فقمر و بحكم مرضها لم تمتلك أي أصدقاء و كذلك مدحت الذي أغلق حياته علي فنه و علي أخته ، أخذت أتعرف علي مدحت و أتحدث إليه في حين كانت مريم و أمينة بصحبة قمر ؛ فمريم قررت أن ملابس قمر لا تصلح لعيد ميلادها لذا ساعدتها هي

و أمينة علي إرتداء شئ أخر ، كانت شخصية مدحت أكثر إحتراما و وقارا من معظم الشباب بسنه ..و كان شديد الإلتزام بعمله و فنه .. و بالطبع عندما علم من أكون كان شديد السعادة ؛ فلقد قرأ بجد و لهفه كل أعمالي مرارا و تكرارا ، عندما ظهرت قمر بصحبة مريم و أمينة كانت شديدة الجمال كما لم يراها أخيها من قبل ، فلأول مرة تهتم بقمر إمرأة مثلها ، كان يوما سعيدا بالنسبة لقمر كما أخبرتنا و نحن نغادر.. حتي أنها قالت لمريم أنها تمنت لو أن ذلك اليوم لا ينتهي أبدا ؛ فهو أفضل عيد ميلاد حظت به في حياتها ، و لم نستطيع أن نغادر دون أن تحصل قمر من مريم علي وعدا بأن تعود مرة أخري لزيارتها .. و بالفعل وعدتها مريم ، و التي عادت لزيارتها بعد عدة أيام ، و بعد إنقضاء فترة قصيرة أصبحت صديقة قمر المفضلة .. و كذلك إعتبرها مدحت ، أصبحت مريم مع الوقت هي الشخص الثالث في كل نزهات عائله سلام ، و في احدي النزهات بحديقة الأسماك قررت قمر أنها تحتاج لقليل من الوقت وحدها فطلبت من مريم و مدحت السير بعيدا لبعض الوقت ، و بالفعل إصطحب مدحت مريم للسير داخل الحديقة و بدأ حديثهم عن قمر و التي أخبرها مدحت أنها حدثته بكونها تتمني لو كانت مثل مريم ، حينها أجابته مريم أنها كانت تظن ألا أحد يود لو يصبح مثلها أو مكانها أبدا ، مع تطور مسار الحديث بين مريم و مدحت لم يكن من الممكن ألا يذكر مدحت رقية ليصفها لمريم حين سألت قائلا :

" مـن أحببـت كانـت مـلاك أخطـئ في ملكـوت الله ؛ فعاقبـه الله بصحبة البشر ، فإستمرت خطاياه "

وعنـدما أخبرت مـريم مـدحت أنـه يملـك إمكانيـة البـدء مـن جديد و الحب مرة أخرى قال لها :

" لقد كنت أظن دائما أن الحب خطيئة يرتكبها الإنسان في العمر مرة واحدة .. و بعدها يكمل ما بقي من عمره يتضرع لله ليغفر له ، حتي قال لي أستاذي ذات مرة أن الحب لا يتكرر في أعمارنا مرتين أبدا ؛ فالحب هـو الله مثلـه مثـل الجمـال .. الصـدق .. العـدل .. و الكثير الغير منتهي مما يخص الخالق و صفاته ، و إذا كان الحب هو الله و من الله .. و إذا كانت الروح هي الوحيدة التي تتصل بالله و تحادثه و تتلقى منه الإشارات ؛ فالحب إذا مسألة تخص الروح و تسأل عنها ، و كل ما يخص الروح لا يحدث مرتين ؛ فالروح تولد في أجسادنا مرة .. و تموت منه مرة .. و تبعث مرة و تحاسب مرة ؛ فالحب إذا مثل تلك المرات..يحدث مرة ،وأنا قد حييت ذلك لمرة "

لم يدرك أيا من مدحت أو مريم ما كانت قمر تحاول فعله ؛ فلقد أحبت مريم و أشفقت علي وحدة أخيها و التي كانت تظن أنها سببها الوحيد ، بعد فترة قصيرة قرر مدحت السفر للعمل لمدة اسبوعين .. و كالعادة مثلت هـذه الفترة القصيرة بالنسبة لقمر معضلة كبري و وحدة لا تطيقها ، حيث رحل مدحت و تركها وحيدة مع خادمتها ، بعد يومين إتصلت تلك الخادمة بمريم و طلبت إليها الإسراع للذهاب لمنزل مدحت .. و هناك كانت قمر تمر بنوبة من

اليأس و الإحباط الذي دفعها للرغبة في الموت ، لم تكن هذه هي النوبة الأولي من نوعها إلا أنها كانت الأشد .. فلم يصل الأمر لمحاولة الإنتحار سابقا ، عندما دخلت مريم لغرفة قمر كان كل شئ محطم بالأخص المرآة .. التي هشمتها أحزان قمر و حرمانها من الحياة و سجنها داخل ذلك الكرسي المدولب الذي إختصر كل حياتها داخله ، أخذت مريم تضم قمر إليها و هي تبكي بشكل هستيري و تنعي ذلك القدر الذي جعلها عائق في طريق سعادة أخيها .. و عبئ عليه .. و ألما لا ينتهي له و لها .. و كم تمنت لو حظت بتلك الحياة التي حظت بها مريم ، ثم أخذت ترمي مريم بالجهل بمشاعرها ؛ ففي رأيها مريم شابة جميلة مفعمة بالصحة و الجمال .. فكيف ستدرك إحساس الوحدة و العجز الكامن في حياتها ، بعد قليل إتصلت مريم بي و طلبت مني الذهاب إليها .. و بالفعل توجهت إليها مسرعا .. فأخبرتني بقرار أخذ قمر لتبقي معها لباقي مدة غياب مدحت ، لم أعترض علي ذلك كوني رأيت وضع قمر و حالتها ، ساعدة مريم لنقل قمر للمنزل و بعد أن إطمأنت علي نومها أتت إلي تحدثني بما دار قبل وصولي ، ثم أخذت تقول لي :

" كم كنت أظن أن حياتي صعبة ، و أني كثيرا أشعر بالوحدة و الحرمان .. الحرمان من الأهل .. و الأصدقاء .. الحب .. و السعادة ، كنت أظن ألا أحد أشد حرمان مني .. و اليوم فقط أدركت أن بهذه الحياة من يتمني حياتي ..... تلك التي أبغضها أنا "

أخيرا أدركت تلك الشابة التي عاشت حياتها و لا أحلام

بقلبها إلا عن الحب أنه ليس المأساة الكبري .. بل أن العجز الذي ملكته قمر كان مأساة كبري .. ألا أمل في غدا يأتي كان مأساة كبري ، في حين ترفع مريم يدها بكأس ماء لفمها دون أن تسقطه فهي في نعيم ، و حين تسير لتلقي كل مساء بخطاها للمجهول فهي في نعيم ، نعيم إفتقدته قمر و إحتاجت إليه .. إلا أنه لا سبيل ، شعرت مريم بالحرج من نفسها .. و من كل تلك الآلام التي عانتها بسبب حبها لمن لا يستحق .. في حين تحارب قمر الآلام قدر يجب أن تحيا به للنهاية ، حاولت مريم طول مدة بقاء قمر بمنزلها و بمساعدة أمينة و خادمة قمر و حتي أنا .. أن تجعل من كل لحظة لها في المنزل أو في جوسيان سعادة و أمل .. و شعورا يعوض شعور النقص داخلها ، بل إنها جعلتها تشعر بالإكتمال حين قررت أن توكل إليها حسابات جوسيان لأسبوع كامل ، كنت أعلم أنها تراجع تلك الحسابات بنفسها مرة أخرى .. و ربما بدلت كل شئ ، لكنها كانت تدرك أن تلك المشاعر التي إستمدتها قمر بفضل ذلك العمل حسن حالتها النفسية كثيرا ، عندما عاد مدحت و رأي حالة قمر المتحسنة أخذ يشكر مريم علي ما فعلته من أجل أخته قائلا :

" شكرا لأنك حملتي همي و همها ، هم غرباء الصدفة ، شكرا لمساندتك "

حين شكرها مدحت غضبة و لم تدرك أنها كانت بالنسبة إليه المرأة الغريبة التي حملت له السعادة التي إنتزعها أحبته في قسوة ، المرأة التي حكمت عليه قبل حتي أن تراه و دون أن تستمع

لموسيقاه قدرته و ساندته في رحمة لم يهبها له من عاشروه ؛ فحملت هم الغرباء الذين وجدوا في حياتها علي سبيل الصدفة ، بصعوبة شديدة عادة قمر للمنزل بصحبة مدحت ؛ فالحياة مع مريم كما قالت حياة حقيقية ، أخذت قمر بعد ذلك الوقت تقرب مدحت لمريم و تدفعهما لعلاقة غرامية لم يكن أيا منهما طرفا فيها ، إلا أن مدحت كان سعيدا من أجل أخته و سعادتها و شديد الإعجاب بمريم و شخصيتها ، و كذلك مريم ربما لم تحب مدحت لكنها كانت شديدة الإعجاب بهذا الشاب الخلوق المهذب و الفنان و أنا مثلها بذلك .. حتي تمنيت أنا أيضا أن يتم الأمر و يتحابان ؛ فتجد مريم لنفسها بر ترسي عليه أشرعتها و تستكين به بعد طول الترحال .. حتي و إن عنى ذلك نهاية قصتي معها ، كنت أخشي الوقت و كنت أخشي أن يأتي ذلك اليوم الذي تصبح به مريم وحيدة بحق ؛ و لذا دفعتها دون وعي منها لحياة مدحت ، إستمر الأمر علي ذلك حتي إنقضت بضع شهورا إعتنت فيها مريم بقمر بشكل جيدا كصديقة مخلصة ، و هنا قررت قمر التحدث لمدحت حول زواجه بمريم لتفاجئ أن تلك الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهنه أيضا ؛ فمريم كانت هي المكان الذي يبحث عنه مدحت ليلقي بنفسه إليه . . و بالفعل لم تمر إلا أيام حتي قرر مدحت التحدث مع مريم بخصوص ذلك ، في ذلك اليوم إصطحب مدحت قمر و مريم لنزهة ساحلية بالإسكندرية لمدة يوما واحدا و بعد قليل طلبت قمر من مدحت أن يصطحب مريم ليشتروا الطعام من أحد

المطـاعم البحريـة المعروفـة و بالفعـل ذهبـا ، و في الطريـق أخـذ مـدحت يحـدث مـريم عـن حياتهـا فلـم يخلـو الحـوار مـن ذكـر هـؤلاء الـذين عبروا في ماضيها ، فـأراد مـدحت أن يسـتمع لتلـك القصـص لكن مريم ظنت أن لا أحد يود الإستماع لمثل تلك الأحداث حقا ، لكن و وسط إصرار مدحت روت مريم ما كان لكنها لم تستطع مع كل شئ تذكرته و ذكرته ألا تغرق نفسها في التبرير السـاذج لوضـع رؤوف و أفعاله معها و حتي في كلماته القاسية لها فقالت :

" ربما كنت أقوى مما يجب أن تكون عليه المرأة حتي سلبني ذلك أنوثتي .. كما ظن هو "

فنظر مدحت لمريم قائلا :

" لا أملك أي فكرة أن بهذا العالم إمرأة قوية .. لكنني متأكد أن هناك إمرأة تقابل رجالا ضعفاء أكثر مما يجب "

ثم دار حوار أخر بين مدحت و مريم راح يلمح فيه و يشير لمريم بإعجابه الشديد بها حتي أنه قال لها :

" كثيرا ما أفكر هل كنت أنت من وجدني أم أنه قدري قد صار بي إليك "

لم يطل الحديث حتي طلب مدحت من مريم الزواج لكنها لم تجب . . بل لم تنطق بكلمة واحدة ، ثم قررت ترك مدحت و قمر و العـودة للقـاهرة وحـدها و بسـرعة و قبل حتي الوصـول لمنتصـف اليوم ، عندما عادت مريم شعرت بالقلق فذهبت إليها فروت لي ما كان صمت للحظات ثم قلت لها و أنا متقطع الأنفاس :

" و لما لا . . فمدحت شاب مهذب و محترم . . و إن كنت سأختار لك الزواج من أحدهم لا أعتقد أنني سأختار شخص أفضل منه "

لم يستمر حوارنا أكثر من ذلك و رحلت مريم بعد أن وعدتني بالتفكير، و بعد عدت أيام حضر مدحت إلي وحدثني بخصوص مريم و أعطاني دعوتين لحضور حفل له في لبنان .. و أخبرني أنه ينتظر وجودنا إن أرادت مريم ذلك ثم غادر متوجها للمطار، عندما أخبرت مريم عن ما حدث مع مدحت و اريتها تلك الدعوات أخبرتني أن عليها فعل شئ قبل أن تصدر أي قرار، عدت للدار و أخذت أفكر في أمر مريم فشردة فقط للحظات أنهاها صوت المطر، طللت من النافذة أرقب الطريق و المارة تحت تلك السماء الممطرة و سريعا رأيت مريم تغادر جوسيان رغم الطقس السيئ و المطر الشديد ، لم استطع منع نفسي من اللحاق بها و لم أتفاجئ حين أوصلني ذلك اللحاق لمنزل رؤوف ، كانت تقف هناك بلا حراك تشاهد منزله تحت المطر حتي ظهر و هو يحاول حماية زوجته الحامل لتصل للسيارة ، لم تنظر مريم لرؤوف و زوجته بنظرة حسد أو حقد .. و إنما نظرة حسرة و ندم ، في حين نظرة أنا له و أنا شديد العجب . . كيف تحب إمرأة كمريم رجل بهذا القبح ، نعم كان قبيح كالخطايا .. منفرا في كل شئ بإستثناء حبها له ، بعد أن غادرت سيارة رؤوف مالت مريم لتنحني علي نفسها بألم و هي ترتكن لأحد الأعمدة بالطريق فجذبتها بسرعة فكادت تصرخ إلا أنني سارعت بوضع يدي علي فمها حتي أدركت أنه أنا فإنفجرت في

البكاء . . ضممتها سريعا و أنا لا أجد منها بتلك اللحظة سوي أطرافها الباردة و ملامحها الشاحبة و عيونها الذابلة .. و قلبا تجمد من شدة القسوة التي لم يدرك و هو راحل أنه سيخلفها وراءه ، كنت أدرك أن قلبها المتجمد لا يحتاج سوى للحب ليعود نبضه من جديد فتحظى تلك الشابة الجميلة بالدفئ و تعود ملامحها لتنير عتمة أيام عجوزا مثلي ، أعدت مريم للمنزل و أنا أعلم أن حب ذلك الشخص لم ينتهي من داخلها .. لكنني لم أعلم أبدا الدافع خلف ذهابها لمنزله بذلك اليوم ، في ذلك المساء جلست أنبش السطور بحثا عن لحظة سعادة تذكرها مريم بخطابتها لاكتشف بعد كل هذه السنوات أنها لم تذكر في أي من خطابتها السعادة كما لم تذكرني و لو مرة ، و أخذت أتساءل ما سر ذلك بعد كل هذا العمر معها .. لماذا لم تذكرني لأي غريب ؟؟!! لماذا لم تحكي عني أبدا ؟؟!! ثم جلست أذكر نفسي أني أيضا بكل تلك السنوات كنت أشاهد عمرها ينقضى و أحلامها تبتعد ؛ و خشيت الوقت لم أفعل شئ ، ثم سقطت عيني علي نافذتها لأجدها تبكي بحرقة شديدة يومها و هي ما زالت بعد كل ذلك الوقت لا تدرك أن أحدا يراقبها من بعيد ، ألمها ذكرها به بعد غياب طويل .. و ألمني حزنها الذي لا ينقضي مهما طال وقت الرحيل ، كنت أظنها حين توقفت عن حبه ستستريح و أني سأري سعادتها بعد ذلك الوقت الطويل .. حتي حين قررت أن تحاول من جديد و تهب لنفسها فرصه حب أخري .. كنت أراقبها و أدعو الله أن تحب و إن كان الحب ليس لي و إن

كنت سأعاني بعدها الجديد ، عدت لأراقب نافذتها التي لا تغلق .. و ضوء غرفتها الذي لا ينطفئ .. و عيونها التي تجافي النوم ، كنت أرجو لها أمل جديد و خفت أن يضيع ذكره أملي الجديد في بعدها و حبها و سعادتها من جديد ، و لأول مرة أخذت أدعو الله بحرقة للإنتقام من شخص فقط من أجلها ، بعد قليل ذهبت مريم و ألقت خطابها فهممت بإحضاره كعادتي إلا أنني و بمجرد أن غادرت مكاني شعرت بدوار شديد فخانتني قدماي ليغشي علي وأتوه للحظات عن الحياة ، كنت رجلا هرم و كنت أدرك ذلك جيدا لكنني كنت أتمنى ألا أفارق ذلك العالم إلا بعد الإطمئنان عليها ، ولذلك إهتممت بشدة بعلاج نفسي و زيارة الطبيب في اليوم التالي .

لم يكن ما حدث لي بالأمر الهام إلا أنه كان السنين و أثرها علي جسدي فطلب مني الطبيب الراحة ، عدت بسرعة و حظيت بقدر من الراحة بصحبة مريم ، و في منتصف تلك الليلة أحضرت لبيتي خطابين خطاب هذا اليوم و اليوم الذي سبقه ، و لم يجذبني منهم سوي مقطعين الأول قالت به :

" و يحيرني أمر إختفاء تلك المرأة الهرمة الغامضة .. تلك الملتفحة بمعطف أسود أنيق و عريق ، و التي لطالما تسألت عن الدافع خلف مجيئها لجوسيان كل يوم لتجلس وحيدة ساكنة دون أن تزعزعها ضوضاء مرتادي المكان ، كانت تستوقفني ملامحها الرزينة الشامخة و عينيها القانعتين اللتان تزهدا عمدا كل مسرات الحياة .. و تغريني لأظل أراقبها و أتفحصها فاستشعر بكينونتي عبر أيامها

الغابرة ؛ لتبرز لدي رغبة ملحة لأبذل كل جهد لأوطد معرفتي بها .. لكن دون جدوي ، و كأنها لا تود أن تلوث نفسها بمعاشرة البشر ، و هذا ما دفع حفنة من تصوراتي و شطحات خيالي لتخيل سيل من الفظائع قد حدثت لها و هي وحيدة "

كانت مريم نخشي أن تصبح صورة من تلك المرأة العجوز صاحبة الوجه الطاعن .. التي تجئ كل ليلة عابرتا لتحظي بتذوق الحلوي مع الحليب و بحوزتها مصحف قدي تحيط به بين يديها بورع دائم لتتل منه .. و دون ذلك تظل وسط الحضور صامتتا تطلب كل يوما ذات الحلوي و تجلس لنفس الساعات التي تقضيها بنفس الزاوية ، لا يعلم أحدا عنها سوي رقم الطاولة التي تجلس عليها منذ سنوات ، و مهما حاول المحيطون التحدث إليها تظل شاردة ، لطالما ظننت أنها ربما تحضر لجوسيان فقط خشيت أن تموت وحيدة ؛ فكانت تغادر منزلها كل مساء لتستقر أمام عيون مريم .. فتذكرها بمصير تسعي إليه دونما وعي و لا إختيار ، تلك التي لم تأتي لأيام دون أن يذاع عنها أمر و دون أن تعود مجددا ، فهي أخيرا و مما حاولت ألا تختتم حياتها وحيدة فعلت ؛ فلقد تم العثور عليها و قد ظهرت علي جسدها بداية أثار الإنتفاخ مما نم علي موتها منذ فترة دون أن يجدها أحد ، لكني لم أقوي علي إخبار مريم فبرأيي كان من الممكن أن يدمرها ذلك ، أما فيما يخص المقطع الثاني فلقد كنت أشد غضبا بخصوصه حين قالت :

" و فجأة شعرت بالخيانة تسري داخلي مسري الدم ، في كل نظرة

أنظرها لغيره .. أو كل كلمة أصغيها لغيره .. و تحتبس أنفاسي كلما إبتسمت لغيره ، وكأني أخون قلبي بخيانته .. لكن هل يمكن أن تخان الأطياف ؟؟!! الأفكار و الذكريات المؤلمة من ماضينا ؟؟!! هل يمكن أن أخون طيف الماضي الذي هجرني ؟؟!! هل تسمي الكلمة خيانة لغائب قد نسيناه و نسينا ؟؟!! هل لتلك النغمات الهائمة ليلا وسط صوت المطر أن يسمعها كلينا .. حين هو يعشق أخرى .. و حين أنا قد بدأت رحلة جديدة "

لا ليس صحيحا فليس هناك مكان لمشاعر هائمتا كتلك ، لم أكن سعيدا لقرأت ذلك المقطع فعن أي خيانة تتحدث مريم .. خيانة من خانها .. أم خيانة حب خذلها و خلفها وراءه سقيمة ، حينها قررت ألا أترك مريم دون أن أنقذها من كل تلك المشاعر و أن أدفعها للموافقة علي الزواج من مدحت دفع قوى شديد ؛ لذا ذهبت إليها في صباح اليوم التالي و بدأت بالتحدث إليها ، لم تنطق مريم بكلمة لكن النظرات الحزينة في عينيها كانت أشد وقعا من أي كلمات و أكثر وضوحا من أي ألفاظ فتوقفت عن الحديث للحظات أنظر إليها بها ثم عدت لأقول :

" مريم عزيزتي ربما ما يحزنك اليوم سيكون هو ذاته سر سعادتك غدا .. فقط أنت بحاجة لفرصة .. و أرجوك أن تهبيها لنفسك ، حقا أنت في حاجة للبداية من جديد "

لم يكن ذاك الجزء من الكلام يغري مريم فهو شيئا مكرر يتألف مع كل ماضيها و يحتل معظم مرات تحاورنا ؛ و لذا تنهدت

مريم و هزت رأسها لتلتفت و تبعد وجهها عني فمددت يدي لأجذب عيونها لعيوني و أقول :

" لا يمكن للقلب يا حبيبتي أن يصبح وعاء فارغ .. هو لم يخلق لذلك"

فأجابتني بحسرة قائلتا :

" و كيف أملئه و هو بالفعل ملئان "

أخذت أنظر إليها بحزن و إشفاق علي موتها إشتياقا لمن لا يستحق ثم قلت لها :

" كنت أود أن أكون سعيد لسماع ذلك ، لكن أرجوك أطلب إليك فقط أن تتئدي و تتخيري ما تملئ به أعزوعاء "

ثم صمت لعدت لحظات تلت ذلك ثم عدت للحديث قائلا :

" ربما أطلقتي علي ذلك الماضي حبا، لكن الحب يا عزيزتي مجرد كلمة سهلة النطق و يظل كذلك حتي يأتي من يعطيه معني حقيقي ، و لم يكن بماضيك أحدا فعل ذلك .. ربما مدحت .. لا أعرف ماذا علي أن أقول لك لكن أظن أن بقاءك بصحبته ستكون مثل الماء بالنسبة إليك .. ربما لا طعم له أو رائحة أو لون .. و لا سبب مميزا لتحبيه إن لم تفعلي .. و لكن يمكن حقا أن يكمن به سر الحياة لك و لقلبك ، أعتقد أنك بحاجة إليه فصحبته ستقي قلبك الوحدة و نيرانها ، أنا يا عزيزتي أتمني أن أشعر بالأمان و الطمأنينة تجاهك و تجاه مستقبلك ؛ لذا فذلك رجاء رجل هرم .. فلتفكري بالأمر و لو لمرة واحدة أخري .. و اسمحي لنفسك

بخوض تلك التجربة ؛ فربما لا يتغير شئ بها سوي حقيقة الوقت "
و هنا نظرت إلي مريم بحيرة و هي تقول :
"و أنا كذلك سأتغير ..... "

لكن لم يكن ذلك ممكن أبدا ، فرفعت عيني لوجه مريم و قلت لها :
" الوقت ربما .. أما أنت فلا أظن ؛ فأنت لا تشبهين شئ سوي العشق يا محبوبتي الجميلة و العشق لا يتغير حتي مع الوقت و مع التجارب ؛ لذا فأنا لست خائفا عليك من خوض تلك التجربة و إنما من شرك عدم خوضها "

و مضطرا أخبرت مريم بأمر تلك السيدة التي كانت تتساءل عنها ، و كما توقعت قد صدمها ذاك المصير الذي أتاها بغته ، بعد يوما واحد من هذا الحديث أتت إلي مريم و سألتني إن كانت تلك الدعوات لازالت بحوذتي ، سعدت كثيرا كونى علمت أن ذلك يعنى موافقة مريم علي الخطبة ، بذلك اليوم و رغم حزن خطابها إلا أنني كنت لا أزل سعيدا بقرارها ؛ فأخيرا قررت أنها إفترقت عن رؤوف و للأبد حين قالت :
" أتدري متي إفترقنا ؟؟؟؟ ليس يوم رحيلك .. إنما اليوم .. اليوم حين قررت تجربة الحياة بدونك ، حين أردت أن أحيا من جديد ، اليوم حين أشرت إليك في الحديث بكلمة كان ، حين نظرت للقمر و لم أذكرك ، و لم أشتهي أيام الحمي بصحبتك ، و حين أنشد في الحي كروان بصوت جريح ليعلن بداية عهدا جديد فيه غيرك ..

ليس مثلك و ليس حبي له كحبك ، لكنني قررت أن أحيا أخيرا ، اليوم إفترقنا لأن الوقت مر بعد شهور صرخ بها طالبا عودتك ، إفترقنا ليس لأنك أحببت أخري أو أنا أحببت ؛ لكن لأن إشتياقي إليك اليوم صرع قلبي و إنتهي ، و لأني اليوم ذبحت الحنين إليك ، لأني بعد مرور الوقت أراك بكل عين و كل رجل و لست منهم ، و لأن الحب دائما ما يقف عاجز أمام حضرت الوقت ، و لأني مازلت أحبك و لا أملك المزيد من الوقت "

و بالفعل سافرنا للبنان لحضور الحفل و مقابلة مدحت ، الذي أسعده قرار مريم و كذلك قمر التي كان يصطحبها معه لحضور الحفل ، و الذي كان موعده باليوم التالي لوصولنا ، لكنني لم استطع أن أنهض هذه المرة من الفراش ، كنت أشعر بالمرض و السنين تدفعه لداخلي و تسري به في كل لحظة لكل جزء بي ، حتي شعرت و كأنه ملئني و أحاط بي من كل إتجاه ، و عندما أتت إلي مريم لتستعجلني إدعيت أن أمرا طارئا حدث بالدار لذا فعلي أن أظل لأتلقى خط إتصال بالقاهرة ، كنت أعلم أن تلك الخدعة لم تنطلي علي مريم .. و لم يقنعها كذبي الضعيف .. لكنني أصريت علي إدعائي فرحلت مريم ، و كنت أشعر أني أود إخبارها بشئ لكن فقط الملائكة إطلعت عليه ؛ ليسقطوا في غرامها و يعادوني فأزداد مرضا ، و لم يسعني سوي أن شيعتها بعيون مرتعشة من الخوف .. أن تصبح هذه المرة هي الاخيرة ، و كنت سعيدا عندما إنتهت الحفل و عادت مريم لأتأكد أنها لم تكن هذه

المرة ، كان من المفترض أن نغادر بعد الحفل مباشرا إلا أن مدحت أخبرنا بأن السيدة فيروز ستحي حفل بعد عدة أيام و قد قرر إصطحابنا إليه ؛ إحتفالا بموافقة مريم علي الخطبة ، ثم حان موعد الحفل جلست مريم جواري و جلسنا في إنتظار ظهور السيدة فيروز بصوتها الملائكي ، ثم إنتبهت لمريم تنظر إلي بنظرة شديدة القرب والتأمل و برفق مدة يدها لتمسك بيدي وهي تقول :

" شكرا لك "

فإبتسمت لها و سألتها :

" شكرا !!!! .. علي ماذا تشكريني ؟؟!! "

فقالت إلي هامستا و هي تتأمل وجهي من جديد و تربت علي يدي بحنو و حب لم أكن أدرك أنها تملكهم لي :

" ممتنة و شاكرة لأنك هنا .. لأنك الوحيد الذي لم يتركني وحيدة ، شكرا من أجل تلك النظرة الهائمة في اللامكان لترشدني ، من أجل صوتك الهادئ المرصع بوقارك الكبير .. مما لا يدوم معه خوفي ، من أجل ثورتك من أجلي ، و من أجل أنك وحدك تصنع من اللاشئ الكثير ، من أجل إبتسامتك الشفافة و غموضك القديم ، و أنك أنت أنت مهما تغيرت و مهما إختلفت ملامحك .. مهما أضاف عليها الزمان من تجاعيد ، و التي مهما جفت أو لأنت ستبقي ملامح روحك كما كانت منذ اللحظة الأولي ، بإختصار صريح من أجل رجولتك حين تسير .. و حين تجلس .. و حين تتكلم .. و حين تفكر ، ستظل أنت هو الوحيد الـ..... "

ثم قاطعت قمر همس مريم إلي تتساءل عن أي أمر نتحدث ، ثم بدأت إشارات بدء الحفل فصمت الجميع لتطل علينا السيدة فيروز لتشدوا بأدائها المذهل أعذب الألحان تلك التي شابهت مريم في رقتها و حسنها و ملائكيتها ، لم استطع أن أشيح بنظري عنها و إن حاولت ، أخذت أراقبها و هي تدندن في سعادة كلمات و الحان أغانيها المفضلة ، حتي بدأت ملامحها في التغير بشكل تدريجي حين بدأت السيدة فيروز تردد أكثر و أشد أغانيها ألما و حزنا :

(قديش كان في ناس علي المفرق تنطر ناس .. و تشتي الدنيا و يحملوا شمسيه .. و أنا بأيام الصحو ما حدا نطرني)

حينها رأيت بعيون مريم أول لقاءا لنا حين كانت أكبر أمانيها أن ينتظرها أحدهم عند هذا المفرق ، و كنت أدرك أنها مثلي تفكر بألم ألا أحد إنتظرها ، دون أن تعلم أنني كنت هنالك سجين لذلك المفرق لسنوات من حبي لها ، ثم رددت السيدة فيروز:

(صار لي شئ مية سنة مشلوحة بها الدكان .. ضجرت مني الحيطان .. و مستحية تقول ، و أنا عيني علي الحلي و الحلي علي الطرقات .. غنيلو غنيات و هو بحاله مشغول ، نطرت مواعيد الأرض و ما حدا نطرني)

أخذت يد مريم تشتد قوة و عيونها تتلألأ من الدموع و هي تذكر كيف كان هؤلاء الذين مروا بحياتها ، فرأيت في عيونها ذلك اليوم حين غادرها رشدي فأخذت تصفع جوسيان و تلقي بكل ما به للحوائط .. التي لم تدجر منها كما ظنت مريم ، و حين سقطت

أرضا لتعتذر من جوسيان ، و عندما أتى لها طاهر ليطلب مباغتة الزواج منها ليغطي علي جريمته في حق أخري ، و ذلك اليوم حين أتي لها حبها الوحيد ليطلب منها بقسوة أن تنساه .. رؤوف ذلك الذي لم تستطع مع ذكراه سجن دموعها أكثر فسقطت دمعة مددت يدي لأمسحها فإنتبهت لي مريم ، و حينها رددت السيدة فيروز المقطع التالي بالأغنية لتقول :

(صار لي شئ ميه سنه عم ألف عناوين .. مش معروفه لمين .. و أوديلون أخبار ، بكرا لابد السما لتشتيلي عالبال شمسيات و أحباب يخدوني بشئ نهار .. و إلي ذكر كل الناس بالأخر ذكرني)

حينها أخذت تبتسم إبتسامة ممتزجة بدموعها حول هذا المجهول الذي يقرأ في صمت ألمها حين تلقي بخطابها كل مساء بصندوق البريد ، ثم نظرت إلي مريم و أخذت تربت علي يدي أكثر من مرة لأمد يدي لوجنتها فألمسها و أبتسم لها لأطمئنها أنني لم أنساها أبدا .. و لن أفعل يوما ، و وسط كل ذلك الحزن بداخلها تحرك المرض بداخلي فضعفت يدي فجأة لتسقط عن وجنتها لتنتبه مريم لذلك فتتلقاها ، لم أشعر بشئ بعد تلك اللحظة سوي بمريم و هي تجلس جواري بالمشفي و تتحدث إلي و تطلب مني أن أفيق لأجلها ، إعتنت بي مريم لمدة أسبوع قضيناه بمشفي في بيروت ، ثم إستعدت قوتي فعدنا لمصر جميعا ، حين وصلنا كانت هناك مفاجأة كبري تنتظرنا و هي عودة السيدة تحية للمنزل بعد أن إستعاد أخيها عافيته ، سعدت السيدة بخبر زواج مريم

و تعرفت لمدحت و قمر و كانت شديدة الإعجاب بكلاهما ، لكنها لم تطمئن لأمر ذلك الزواج إلا حين تحدثت إلي .. فأخذت أخبرها عن مدحت و خلقه و ظني أنه جدير بمريم و أنها ستكون بمأمن في صحبته ، بعد ذلك الحوار بدأت السيدة تحية مسرعة في تحضيرات الزفاف خضوعا لطلبي ، و كذلك بدأت مريم تتهيأ لذلك اليوم بقرار مني ؛ فلقد كنت أتمني لو استطيع رؤية مريم بذلك الثوب الأبيض سريعا و قبل أن يباغتني الموت ؛ فعندما غادرت المشفي ببيروت لم أكن قد تعافيت حقا و إنما كان ذلك إدعائي من أجل عودتنا للقاهرة ، و كذلك كونى بخير كان مجرد إدعاء ؛ فأنا أشعر بالمرض و التعب و قد سادا في كل جزء مني و بلغوا أشدهم .. لكنني لم أشأ لمريم أن تنشغل بذلك ، فعدت للعمل سريعا و لحياتي التقليدية معها ، إنتشر خبر زواج مريم و مدحت في كل مكان فأخذت التهاني و البرقيات السعيدة و الإتصالات تنهال علي جوسيان ، و كنت سعيدا كوني أراها سعيدة مرة أخري ، لم تكن مريم تلازم مدحت كما كانت تلازم أي ممن كانوا بماضيها .. ربما تعلمت أخيرا أن تولي الأهمية لنفسها .. أو أنها مازالت عالقة مع قلبها الذي لم يسقط في حب مدحت بعد .. رغم ذلك فقد كانت تلازم قمر و تدعمها و تشاركها الكثير ، لم يمر وقت طويل حتي إقترب موعد زفاف مريم فقررت أن أهديها شئ مميز ، و لقد كان رداء أبيض طويل مفتوح الصدر .. يشبه ذلك الذي إرتدته والدتها يوم زفافها و الذي مزقه نجيب حين ماتت ، لكنني شعرت

أن مـريم ربمـا كانـت تتمني أن ترتـدى رداء يشـبه ذلـك الخـاص بوالـدتها ، فأوصيت بتفصيله بـذلك الشكل .. تماما كما أذكره ، سـعدت مـريم بـه كثيرا و أخـذت تعـانقني و تقبـل وجنتي ، و قبـل موعـد الزفـاف بعـدة أيام ذهبت مريم لحضـور أخر حفـل لمدحت قبل الزفـاف و بعـد أن إنتهي الحفـل توجهت مريم لغرفـة مـدحت للقاءه فوجدته بصحبة إمرأة ما .. كان مدحت شـديد الغضـب حتي أنه كان يحاول طرد تلك المرأة .. و التي كانت تتأسـف و تتندم علي أمرا لم تكن مريم علي علم به ، لكن مدحت لم يهتم أو يستمع لكل ذلك الآسف فلم يولي أي إهتمام سوي بطردها حتي شعرت تلك المرأة بالخـذي و نظرت لـلأرض و أخـذت تتبعهـا للخـارج و هي تبكى بمرارة راقبتها مريم ، ثم عادت لغرفة مدحت ، التي ظلت للحظات خارجهـا و هي تبتسـم في شـرود ثـم تنهـدت بقـوة لحـال تلـك المـرأة لتـدخل للغرفـة .. و هنـا إسـتقبلها مـدحت بإبتسـامة عريضـة لكنهـا مزيفة ؛ فهو أيضا كان شديد الحزن ، فنظرت إليه مريم و قالت :

" لماذا لا تسامحها "

فسألها مدحت ماذا تقصد فعادت لتقول :

" بعد كل ما مررت به استطيع أخيرا أن أميز نظرة الحب حتي و إن إختلطت بالغضب الشديد ، أنت مازلت تحبها صحيح "

فقال لها مدحت :

" مريم أنا .... "

فقاطعته مريم قائلتا :

" لو أن من أحببت أتي إلي بدمعة واحدة لسامحته .. و خلفت ورائى كل العالم و لإتبعه فقط .. هي بالفعل نادمة علي ما كان .. رأيت ذلك و هي تغادر ، أعتقد أنني لا يجب أن أقول ذلك لكن بالفعل عليك مسامحتها "

فقال لها مدحت بتعجب شديد :

" و أنت !!!! "

فأجابته مريم :

" أنا سبق و سامحت كل من كان ، و أعتقد أن زواجي بك كان من أجل شخص أخر طلب إلي ذلك .. و لن يكون ذلك صحيح ، ربما يمكن أن نحتفظ بصداقتنا علي الأقل من أجل قمر .. فبعد رؤيتي لحبيبتك لا أظن أن أيا منا سيكون سعيد بهذا الزواج "

غادرت مريم بعد أن أنهت زواجها بنفسها إلا أن مدحت لم يقتنع بما طلبته مريم و أتي إلي يحدثني بما كان ، و رفضت مريم كل محاولات مني و منه و من السيدة تحية و قمر للتحدث في الأمر ، حتي أتي يوما إستدعت به مريم مدحت لجوسيان و كانت قد أعدت له مفاجئة كبري و هي رقية ، التي بحثت مريم عنها بضراوة حتي وصلت لها ، بذلك اليوم أعادت مريم مدحت لحبيبته و إحتفظت بإحترامه و صداقته ، و رغم غضب الكل من فعلها إلا أن تصرفها جعلني أتذكر جيدا لماذا أحببتها من البداية ؛ فهي بفعل ذلك تكون مجرد هي فقط .. مريم التي أحببتها ، بعد عدة أيام حضر رؤوف لجوسيان ليشترى منه الحلوى من أجل ولادة

التؤام كانت مريم سعيدة من أجله و كان هو فخورا بذاته ، غادر دون أن ينظر لمريم نظرة واحدة تخبر أنه كان يعرفها سابقا ، إبتسمت مريم لذلك و هي تودع أخر علاقه لها بالماضي حين غادر رؤوف جوسيان .. لتقف أخيرا علي قارعة الطريق و هي لا تنتظر رجوعه .. بعد أن ظلت لشهورا عالقة في ذلك الإنتظار.. و أخيرا نظرت أمامها و لم تنظر للخلف إلا لتطمئن ألا أحد سيطعنها غدرا ، أخيرا لم تبكى ليعود بل بكت لإنهاكها من طول التعب ، أخيرا أرهقها طول الإنتظار.. و أخيرا قررت نسيانه و العودة لتحيا قدرها بدونه و بدون ذكري تجمعها به قررت أن تكون هي سعادتها و أن تكون هي حزنها .. أن تملك قلبها و تسترد عقلها .. أن ترتكب الذنوب بنفسها و أن تلوم فقط نفسها ، أخيرا خلفته ورائها دون ندم .. دون رجوع .. و دون حب ، و ذلك ما كان بخطابها ذلك اليوم حين قالت:

" أدركت اليوم أنني لم أهتم به أبدا بالفترة الأخيرة ، بل كل ما إهتممت به كان الشخص الجديد بحياتي ، الشخص الذي كنت أفكر به كل لحظة و رغم ذلك لم استطع أن أحبه أبدا .. و لم أعرف السبب خلف ذلك رغم ظني أنه الوحيد ممن قابلت بماضي و الذي إستحق الحب ، أما عن حبي عمري الماضي .. فحين رأيته لم أكف عن التفكير بنفسي حين كنت أقضي ليالي طوال أتساءل عن الثمن الذي يجب أن أدفع للحصول عليه .. و أي تضحية .. و أي فقد يجب أن أحيا بهم ، و تلك الشهور الطويلة التي أخذت

أسـال الله بها كـم علي أن أدفـع ليعيـده إلي ، حتي جـاءت تلـك اللحظة التي إستدعاني بها الله في الليل ، كانت عيني غارقة أكثر مـن أي وقـت في ظـلام حالـك .. و عقلي غـافـل عـن كـل حقيقـة واضحة ، كنت جاهلة و صغيرة ، فعجزت عـن الحياة بدونه ، لم يكن شئ يشبه رحيله .. و لم أكن قد عشت قبله شئ بمثل قسوته ، في تلـك الليلـة جلسـت أمـام الله صـامته لا أملـك شـئ لأقـولـه أو أدعـو بـه .. و هـو لـم يخبر قلبي بشئ .. لـم يسـمع قلبي منـه كلمـة .. و لم يرسل إلي أي إشارة ، و فجأة رفعت يدي للسماء ليدعو القلب أن يرحل كل شئ ليعود الغائب من جديد ، حينها أخبر الله قلبي أن سـعادتي كانـت في ذلـك الرحيـل ، و ظللـت لشـهور بعـد تللـك الحقيقـة أخشـي إسـتجابة دعـوتي ، أخشـي عـل أهلي و أصـدقائي و أحلامي حمق دعـواي ، في حين كان يحمل لي الله حكمـة أكبر من كل حمق لدي ... و أكبر من كل فقد و ألم ، حتي أنها أكبر مما أدرك عقلي أو قلبي يوما ، و بعد كل ذلك الوقت أشكره أنه لم يستجيب لدعوي قلبي الأحمق بذلك اليوم "

كنـت سـعيد لمعرفتي أنهـا تخلصـت مـن حـب رؤوف للأبـد ، و رغم حزني لما حدث بزواجها من مدحت إلا أنني أدركت أنه أبدا لن تعود الأمور كما كانت مهما حدث .. خاصتا بعد هذه اللحظة .. و للأبـد ؛ لـذا فـأنـا لـم أهـتم أنـا أيضـا و رغـم إحترامي لمـدحت لمـا سيحدث لـه .. إنمـا همني مـاذا سـيحدث لهـا هي ، و لـم أهـتم بمـا سيؤذيه أو يـؤذي العـالم .. لكنني إهتممت بمـا سـيؤذيها ، و لـم يكن

مهما أبدا ما ستؤل له كل حياة البشر بعد أيام أو بعد شهور أو حتي سنين لكن الأهم كان ما ستؤل له حياة مريم بعد أيام و شهور أو سنين ، في صباح اليوم التالي أتت إلي مريم و جلست أمام مكتبي بالدار.. فقط جلست تنظر إلي و عندما سألتها عما حدث أجابتني قائلتا :

" لا شئ فقط أود أن أنظر اليك .. و أن املئ عيني منك ؛ لذا فقط أكتب و أنا سأشاهد "

لكنها لم تستطيع أن تظل صامته لوقت طويل ، وكنت سعيدا لذلك فتلك هي مريم كما قابلتها منذ أربعة عشر عاما ، نظرت إلي مريم و قالت :

" عن ماذا تكتب ؟؟؟؟ "

فأجبتها :

" الحب "

فأخذت تضحك في تعجب و هي تمد يدها لتضعها فوق الأوراق و تقول ممازحة :

" تعلم أتساءل كثيرا أين ما ترويه الجدات عن الحب ..وتكتبه أنت عنه..لماذا لم يكن أحد يشبه أبطال قصصك الرومانسية ؟؟!!".

فأجبتها و أنا أشعر لأول مرة انى سأكون كاذب جيد :

" كل قصص الحب مزيفة .. و أبطالها وهميين ، فلا تحزني ليس خطائك أنك لم تقابليهم .. بل خطئي و خطأ كل القصاصين و الكتاب أنهم كتبوا عن أشخاص لن يقابلهم أحدا " .

إبتسمت مريم لي ثم أسقطت عيونها للأوراق و هي تقول :
" لكنني قابلت " .
فسألتها في إستنكار قائلا :
" قابلت .. من ؟؟!! " .
فعادت لتبتسم قائلتا :
" أنت " .

ثم غادرت مريم و خلفتني بأكثر لحظة سعادة عشتها بعمري ؛ فرغم كل ما فات و رغم كراهية البشر و زيفهم .. إستطاعت مريم بإيمان قوي أن تدير ظهرها لكل الأكاذيب ، و أن تبعث في نفوس أحبتها الأمل كما كانت دائما ، إستطاعت أن تخبر العديد من الأقاصيص للمجهول .. أن تدرك أن الموت طريق .. أن تحلم بالمستقبل .. و أن تحرق ماضي أرهقها و أذل كبريائها الرقيق ، إستطاعت أن تجعل مني عاشق ؛ فأنا أصبحت عاشق بسببها .. فقدت كل شئ .. و أصبحت فقط مجرد عاشق صنع لنفسه قصة منسوجة من عيونها الغارقتين في ظلام الحزن ، رغم أنه ليس مقدرا لها و لي إلا أن تكون المرأة التي أكتب عنها رواية ، و حينئذ أخذت أتذكر يوم لقاءنا الأول ، حين رأيتها أول مرة فأدركت أنني رأيت المرأة التي ستغير رواياتي للأبد ؛ و حين تبينت أنها تليق بأن تكون بطلة يغرم بها الجميع ، كانت أشد جمالا من بطلاتي السابقات .. و أكثر رقة من كل زهرة وضعتها بكتاباتي ، كان بإستطاعتها أن تصبح جميلة كما يمكن لكل نساء الكون أن يكن

و كما يمكن لكل رجل أن يدرك ، لكنها إختارت أن تكون جميلة بشكل أخر لا يمكن للكثيرون إدراكه ، فأصبحت تليق بكونها بطلتي المثالية لقصص الحب ، و رغم أن قصتها لم تكن تلك القصة التي كنت أبحث عنها لأعيد مجد رواياتي ، و إنما قصة الوقت الذي قضيته أحبها عبر نافذتي التي شاهدت منها سنوات عمرها تسرق دون رحمة .. حين رأيتها تكبر بدون قصة حب حقيقي .. و دون أن تدري بحبي .. تبحث كل صباح عمن ينتظرها علي مفارق الطريق دون أن تراني أو تلمح تلك اللمعة المنكسرة في عيني ، بكل يوم كانت تقترب مني لتلقي السلام .. دون أن تدرك أنها هي سلامي و سكينة روحي ، و دون أن تعلم أنني أنتظرها بصحبة ذاك الطريق كل صباح و كل مساء لتطل علي و هي تبحث في وجوه المارة عن أخر لن يأتي أبدا .. و لن يرحم إنتظارها الذي طال و هي تتعطش للحب الأبدي الذي حظت بدلا عنه بالإنتظار الأبدي ، نعم إنتظرت للأبد .. لكن لم تنتظر وحدها .. بل إنتظرت أنا أيضا .. و بلا أملا عشت أحترق بنيران ذلك الإنتظار ، مدون كل قصة تحياها لتصير إنعكاس لحياوات الأخرين .. مبادئهم .. أفكارهم .. و أخلاقهم ، و لتعكس دون علم أصناف ثقافية متعددة و هويات بشرية مختلفة و غير نمطية بكل جزء منهم .. ضعفهم و قوتهم ، في حين كان ضعفها لا يشبه ضعفهم .. و قوتها لا تشبه قوتهم ، تلك القوة التي دفعتها لتكون الراوي الأمين المحايد لقصص كل من مروا بها .. ترويها و تقطر ألما معها في كل لحظة ، في حين كنت أنا القارئ

المجهول لروايتها و الذي لم تخمن أبدا أنه سيصبح أنا بيوما ما ، وكنت كذلك أنا الراوي لكل قصة عاشتها و روتها .. وكل حب لم تحياه بماضيها ، و ربما لم أكن منصفا في روايتي تلك و ربما كنت متحيزا .. لكنني كتبتها كما أذكرها .. وكما رأيت أحداثها و ما أحاط بها من مشاعر وقت حدوثها ، ربما تجنبت ذكر عيوب مريم و أخطائها .. و ربما بالغت في إظهار هؤلاء الرجال كالشياطين ، لكنني فعلت ذلك بدافع من الحب .. فتلك القصة رويت من وجهة نظر محب .. و بذلك كان حالي ككل المحبين لا يري أحد منهم بمحبوبته عيبا ، تلك المحبوبة التي لم أكتب قصتها ليقرأها الناس ، بل فقط لأربط إسمي بإسمها برباط أبدي يبقي ما بقيت الحياة ، و لم أفكر بنشرها لأنني لم أرغب أن يحكم الناس عليها ؛ فمهما ألقوا من أحكام لن تكون عادلة و لن تكون بقدر ألمها ؛ و لذا فليس لأحدا حتي أنا أن يحكم علي سذاجتها أو برائتها أو حتي حمقها ، و رغم أني لم يكن لي أن أفارق تلك الحياة شاعرا بالحسرة أو بالشفقة علي موتي ؛ فلم أكن علي إستعداد للبقاء بها أكثر من ذلك .. إلا أن أشد ما كان يؤلمني أنني كنت أدرك أني سأموت دون أن تعلم أن هناك من كان ينتظرها علي مفرق الطريق كل ليلة كما تمنت تماما ، ينتظرها في حين تمطر السماء .. و تطفئ الأضواء .. و يختفي المارة من الطريق .. كنت أنا من ينتظرها ، وكنت أنا من ترتعش عظامه المسنة من البرد كل مساء ، رغم ذلك ظللت أنتظر لا أبرح مكاني ؛ فقط ليكون هناك من إنتظرها علي

مفارق الطريق ، في حين كنت غارقا في فكري حول تلك اللحظة المناسبه للإقتراب أكثر.. حيث لم أكن أعلم أن البعد إلينا أقرب و حين كنت غارق في حبها الأشبه بإدمان لوعت الإنتظار الأبدي....}.

لكنني علمت .. علمت أنه كان ينتظرني عند هذا المفرق ليفي بكل العهود حتي تلك التي لم يقطعها يوما ، و حتي تلك العهود التي لم يفي بها الأخرين إلي ؛ لأدرك أن لحظاتي مع أي مخلوق لم تكن تشبه تلك التي عشتها بصحبته ؛ فلم أكن أدرك كم كنت أحتاج لحبه حتي أتعلم إلا حين غادر.. يومها أراني الله مرارة الهجر فيه و في قلبي ؛ ليردني إليه ؛ لأدرك أني ليس لي سواه ، و بعد سنوات لازلت أظن أنه لم يخلق لك بديل فقط خلقك ليعلم بك قلبي و يختبر إيماني ؛ و لأعلم بعد سنوات أنها لم تكن قصة حب ناقصة .. بل علم و إختبار يدخلني جنتي أو ناري ، أنت هو أنت .. و أنا لست أنا بعد كل تلك السنين من رحيلك ، نعم رحل .. رحيل يشبه رحيل روحي إليه رغما عني ، فبعد ذلك اليوم الذي ذهبت إليه و هو يكتب لم أراه ينتظر عند المفرق مرة أخرى ، و لم يأتي لجوسيان أو لدار النشر ؛ فلقد أصبح مريضا لحد عدم القدرة علي مغادرة الفراش حتي طلب الطبيب نقله للمشفي ، حاولت أن أرعاه كما عاش سنين عمره يرعاني .. لكنني كنت عاجزتا بدونه ، ظللنا لشهر كامل بالمشفي طلب به مني أن أحضر له بعض الأوراق و الأقلام .. و بالفعل أحضرتهم ، كان يخفي عني ما يكتب .. حتي غفي بأحد الأيام و هو يمسك بالأوراق ، لم أقصد حينها قرائتها

لكنها كانت بين يدي .. لأقرأ به قوله :
" و لا أعلم ما الذي سيحل بها ، و أظن أنها ستبقى وحيدة للأبد بسبب كل ما كان ، سأتركها وحيدة كما إلتقيتها وحيدة ... تمنيت لو ينصهر رمادي برمادها بعد الموت .. لكن حتي أشد أمنياتي إتشاحا بالسواد مستحيلة " .
كنت أتساءل عن تلك المرأة التي يكتب عنها حتي عدت لأقرأ قوله :
" لم تكن تنتظر يوما أن يعود شخص ودعها دون أن ينظر خلفه .. دون أن يهتم بمن تركهم ورائه وحيدين ، لكنها إنتظرت لسنوات تلك اللمسة الساحرة التي يتركها الحب علينا حين يزورنا .. و حين يتركنا مكللين بالأمنيات التي يحرقها الإنتظار لشئ لا يأتي أبدا ، يقولون حين تنكسر الأحلام يسمع صداها بالسماء .. و الأحلام التي يصنعها الحب هي أحلام عظيمة يسمع صداها خالق السماء الذي فطر البشر علي الحب ، فرغم أن الإنسان يأنس وحدته إلا أنه يظل يشتاق لوليف ؛ فحين إحتاج آدم لصحبة لم يغني وجوده بالجنة .. و لم يكفيه صحبة الملائكة .. و لم يخلق له الله ألف صديق .. و لم يجعل له أب أو أم أو أخ ، بل خلق له وليف واحد من جنسا أخر غير جنسه و وضع به له المودة و الرحمة و السكنة و الألفة و الصحبة .. خلقه ليحبه و لينتمي إليه ، و هذه هي جبلتنا الإنسانية التي جلبنا عليها ؛ فلا يكفينا النعيم .. و لا يغنينا صحبة الملائكة .. و لا الأهل .. و لا ألف صديق .. فقط شخص واحد و هو أنت ، فقط أنت كل ما خلقه الله من المودة و الرحمة و السكنة ،

أنت هي جبلتي الإنسانية .. أنت يامريم "

حينما قرأت إسمي لم استطيع أن أدرك ما يحيط بي .. و لم يكن مني غير أن أسرعت لمنزله ، كنت أبحث بين الأحرف و خلف السطور ؛ علي أجد ما كانت تعنيها تلك الكلمات ، و بدلا عن ذلك وجدت كل خطاباتي داخل أدراج مكتبه ، و روايته موضوعة علي المكتب ، علمت من سطورها الأولي عن أي شخص حكت تلك الرواية ، فحملتها و هممت بالرحيل لكن و قبل أن أغادر الغرفة .. إنتبهت لنافذتي و كيف كان يستطيع كشف غرفتي من نافذته و كذلك جوسيان .

عدت للمشفي لاستغرق بقراءة تلك الرواية و باسبوع واحد أدركت كل شئ .. اسبوع كنت أنظر به إليه خائر القوي لا يدرك حتي أنني حصلت علي روايته ، عندما أنهيت القراءة لم أكن أفكر في أمرا سوي تلك الجملة التي وصف بها حبه لي حين قال :

" حبي لها طاهر طهر الصلاة .. مقدس كقبلتها .. نقي من كل إثم .. برئ من أي نزق ، فحبها عبادتي و ذكر إسمها صلاتي "

حينها لم استطع أن أحدث نفسي بشئ إلا عن حكايتي معه ، و إنها كانت حكايتي الوحيدة الخالية من الإثم و الذنب و النزق .. حكايتي المقدسة الطاهرة و النقية .. الممتلئة بالحب رغم كل تلك الأمور التي لم نتشاطرها معا ، حكايتي التي تحققت بها كل أحلامي معه رغم أنني لم أكن جزء منها .. و لم أشاركه بها ، فكالكلمات التي ينقصها الكثير من الحروف كتب قصتي ، بعد أيام قرر أن

يعود للمنزل و رغم رفض الأطباء و رفضنا جميعا إلا أنه أصر .. و أصر كذلك أن ننقله لغرفة المكتب حيث نافذته التي تطل علي نافذتي و هو لا يعلم أنني قررت ملازمته للأبد .. فإنتقلت للبقاء في غرفته ، و باليوم التالي حاول التحرك من فراشه للبحث عن الرواية و الخطابات و حينها أدرك أن كل شئ قد تم فقده .. و قبل التفكير بفعل أي شئ فقد وعيه ، عندما إستعاد وعيه كنت أنا أول وجه يراه ، نظرت إليه بلهفة و خوف و أنا أقول :

" كيف حالك ؟؟؟؟ "

فأجابني :

" أنا أحتضر ، و ما عدا ذلك .. فأنا بخير "

إبتسمت لتلك الإجابة التي مزقت كل أمل داخلي ثم سقطت دمعة مد يده ليمسحها فتذكرت أن كل تلك الدموع التي زرفتها طوال عمري لم يتحمل أحدا عناء مد يديه لمسحها .. تلك الدموع التي سببوها .. في حين مسح هو عني الدموع التي رماني بها غيره ، ثم تنهد و إستند ليجلس بفراشه ثم قال لي :

" و لماذا الحزن ؟؟!! "

فأجبته :

" لا أود أن أستمع حتي لدعابتك عن الموت "

فقال لي :

" تريدينني حيا ؟؟؟؟ إذا هل تحييني إذا مت "

فإستغرقت بدموعي و أنا أقول له :

" و هل استطيع ؟؟؟؟ "

فقال لي و هو يربط علي يدي و يبتسم :

" لا أحد بعد الله غيرك يستطيع "

حينها ألقيت بنفسي داخل أحضانه .. لكن هذه المرة لم أدخل لأحضان الرجل الذي إعتبرته لسنوات بديل لوالدي .. و إنما لأحضان الرجل الذي إكتشفت أخيرا أنه كان أعظم و أهم ذكري أملكها عن حياتي ، أخذت أطالع وجهه و أقول له :

" لم أذكرك في خطاباتي للمجهولين لأنني لم أكن أود أن أذكرك إلا لله ؛ فأنت لا تستحق أن أحدث عنك لا البشر و لا حتي الملائكة ؛ ففقط الله وحده يعلم قدر ما خلق بك .. ياحبيبي "

ثم أخذت أبكي بمرارة حارقة فعتني للسعال بشدة فنظر إلي وقال :

" ليتني استطيع أخذ كل ما يؤلمك من جراح لأشفيك "

حينها نظرت إليه و قلت له :

" كيف سأطلب منك شفاء جراحي في حين أمددتك طوال صحبتي بك بالكثير منها و من الألم "

و حينها نظر إلي و مد يده ليدي و قال :

" أخيرا تحقق حلمي "

فسألته :

" و ما هو حلمك ؟؟؟؟ "

فأجابني بإبتسامة صادقة و محبة :

" أنت هي كل أحلامي "

ثم نظرت إليه و هو يرمقني بنظرة شغف شديد و قلت له :
" فاليسامحني الله علي ما سأفعل "

ثم طبعت علي شفاهه قبلة واحدة .. قوية مليئة بالحب .. خالية من الشهوة .. بعيدة عن الخطايا ، كانت قبلتي الأولي التي لم أتخيل أن تكون معه .. و لا أدرك إن كانت ستصبح هي ذاتها قبلتي الأخيرة ، في تلك اللحظة نظر إلي و قال :
" كنت دائما حزين كوني أعلم أني مع الوقت سأكون الشخص الوحيد الذي أعرفه مع شعر أبيض .. و جسد يتداعي .. و ذكريات لا أذكر معظمها من الأساس ، لكنني سعيدا و ممتن لبقائي علي قيد الحياة حتي الأن ..لأحيا كل ذلك قبل موتي ، لا أعلم إن كان يجب أن أخبرك بذلك .. لكنك أنت هي حب حياتي الذي لطالما تمنيت إفناء نفسي فيه "

مددت يدي لوجهه و أخذت أتحسسه برفق و أشعر و كأنني أراه
لأول مرة ثم أخذت أقول له :
" و أنا أيضا ، كم كنت أتمني لو كنت أنت هو الأول و الأخير بحياتي ، فلو كنت لما أثقلتك بكل هذا الكم من الظلام داخلي .. و هذا القدر من الخذلان بحياتي ، حتي استطيع أن أحبك بصدق .. و أن أحياك بصدق "
إبتسم لي و وضع يده علي يدي التي تلمس وجهه و هو يقول :
" و أنا كذلك ، أعتقد أنني لو قابلتك بزمن غير ذلك الزمان و ظرف

مختلف و كيان أخر .. لم أكن لأحب غيرك .. و لم أكن لأصمت عن ذلك الحب داخلي أبدا ، فكم تمنيت أن تتلاشي المسافات بيننا "

حينها غضبت بشدة و قلت له بنبرة شديدة و عالية لحد الإزعاج :

" لماذا ظللت تحيا بذلك الصمت ؟؟!! لماذا أغرقت نفسك و أغرقتني به ؟؟!! ألم يكن من الممكن لك أن تدرك و لو للحظة أن تلك التجاعيد علي وجهك هي السنين بيننا ، هي أيام حبك لي و حبي لك ، هي الوقت الذي قضيناه معا ، و هي إمتناني علي كل شئ ؟؟!! الأن فقط أدركت أنها كلما كانت تزيد كان حبي لك يزيد .. و إشتياقي لصحبتك يزيد ، ربما لا أملك من تلك التجاعيد بحكم السن لكنني تمنيت لو كنت أملك تلك العلامات التي تقول لك في كل لحظة و كل مرة ... أحبك "

نظر إلي و قال و هو يضحك بصعوبة شديدة :

" ليس عليك الغضب بهذا الشكل "

إبتسمت له و أنا أتنهد من الحزن و أقول :

" عليك أن تسامحني أحيانا ؛ فأنا لم يسبق أن احبني أحد من قبل"

فقال لي :

" بل عليك أنت أن تسامحيني علي كل شئ مضي "

فقلت له و أنا أضع رأسي علي صدره :

" لا تتأسف ، كيف يمكن أن أصف لك قسوة تلك الحياة التي كان يمكن أن أحياها بدونك ؟!!! كل شئ حولي كانت يبدوا مفتقدا

للحب و الأمل قبلك "
فرفع وجهي لوجهه و هو يقول :
" كان علي فعل الكثير لك لكنني لم أملك ما أهبك "
فأعدت رأسي لصدره و عانقته بيدي و أنا أقول :
" أعطيتني ما لم يعطيني العالم أجمع ، أعطيتني الرحمة و السعادة و الحب ، في حين لا أملك شئ يمكنني أن أعوضك به عن كل ما كان "
فضمني بشدة و هو يقول :
" كنت أخشي أن ينتهي بي الحال أتربص ريب المنون وحيدا بدونك .... عديني أنك لن تنسي أبدا ما الذي جعلك مختلفة من البداية ، ثم دعيني أموت بين ذراعيك ذلك يعوضني "
غفوت تلك الليلة فوق صدره و حين إستفقت وجدته يحتضنني بقوة .. و يحتضن معي أوراقه و أقلامه و قد كتب بها :
" و كأن روحي حين تغادر جسدي بين أحضانها تعود من حيث كانت لحيث تنتمي ، و كأنها حين تكون أخر ما أري فإن عيني تري ملائكة النعيم حولها ، و كأن الموت في حضورها حياة أبدية بحبي لها ، و أنني حين يزوغ البصر و تغيب الروح و يخفيني الثري أولد من جديد من بين دموعها ، و كأنني أحببت الموت من أجلها من أجل .. أن أقضيه بها "
لم أفترق عنه بعد تلك اللحظة حتي النهاية ، قضيت معه أسعد أيامي و هو يخبرني كل يوما أنه إن سمح له العمر لإنتظرني

عند المفرق لخمسة عشر عام اخري حتي إن لم آتي إليه ، و أنه لم يكن يطمع سوي بالحياة و الموت معي و هذا ما أصبح له أخيرا .

سلبني الموت حبي ليكون بعيدا حيث أصبح قريبا من قلبي للأبد ؛ فلقد كان هو الرجل الذي لم أنساه و لن أفعل .. ربما لو كنت أدرك أنه كان وداعنا الأخير و أنه الرحيل لإختلف الوداع ليلتها ، عندما دخل حياتي لم أكن أدرك أن لحظة معه تساوي الأبدية مع غيره .. و أن كل ذلك الوقت معه كان قيم لا يقدر بثمن ؛ لأنه أبدا لن يعود مهما تضرعت لله أن يعيده ، فقبل لقياه كنت أصلي كل يوما لتحدث معجزة فإلتقينا ، رجل .. لا يمكن أن أسميه رجل .. ليس مجرد رجل ، فقد كان لا يشبه شئ علي هذه الأرض إلا الرؤي ، و كأن الملائكة كانت تحيا و تتحدث من خلاله ، حين وجدني كنت غارقة في أحزان لم أخترها .. و خطايا لم أرتكبها .. و مأساة لا أدري نهايتها ، حتي إلتقينا .. لقاء إمتد ليصلح ما أفسده المارة بطريقي ، كان محتوما لقاؤنا و محفور بلوح القدر ، أن نلتقي لنفترق ، حين إنتهي أروع ما إنتهت عليه الحكايا القديمة ، و حين إرتسم أفضل ما إنقضي ، حين غادر و تركني وحيدة لم يكن موته ملئ بالضوضاء .. بل كان هادئ و مريح ، و ما هون ذلك الأمر علي قلبي أنه مات بين يدي و داخل أحضاني كما أراد ، و كنت أعلل النفس و أصبرها بأن أذكرها دائما أني كنت محظوظة بأن حظيت ببعض الوقت بصحبته من الأساس .. في حين تركته يموت وحيدا وسط حب لا مفاد منه ، بعد فترة حضر إلي محاميه

الخاص ليخبرني أنه كتب كل شئ بإسمي و هو علي فراش الموت .. كل شئ الدار.. المنزل .. و الأموال .. كل شئ ملكه إلا قلبي أحتفظ به علي إسمه ، قررت نشر الرواية و التي لم يكن لها عنوان فإخترت لها العنوان المناسب ((الإنتظار للأبد)) ، إنتظاره لي و إنتظاري له ، وضعت ببداية الرواية إهداء خاص قلت به :

" لكل من سيقرأ تلك الرواية ... لقد أحبك عوض عن هؤلاء الذين أغرقوك أحزانا "

لاقت الرواية نجاح باهر أعاد له إسمه و شهرته ، دون أن يدرك قراءها أنها كانت القصة التي أدمت كاتبها حزنا لكل كلمة حقيقية دونت بها ، و بدون أن يدركوا أنها قصته هو ذاته و قصتي معه ، ظللت لسنوات أضع خطاباتي في صندوق البريد ؛ ظنا مني أنه سيأتي يوما ليأخذها من جديد ، و أنتظر كل صباح و كل مساء عند المفرق .. و أنا أتساءل متي سيأتي إلي .. و حتي و إن لم يفعل كنت أنتظر ، كنت أنتظر و أنا أعلم أنه لن يعود .. و لن يفي بوعد لم يقطعه .. لكن قطعته أمانينا و أوهامي ، إنتظرت طويلا دون أن يأتي .. و لا يهم فقبله وعد الكثيرون و لم يفوا .. و قبلي إنتظر هو و لم أتي إليه ، قريبا سيبدا الشتاء من جديد .. و سيبدا معه موسم الخوف ، و حين أقول أني لست خائفة فعادتا ما أكون مرعوبة ، لكنني لست خائفة هذه المرة من الشتاء أو البرد ، بل خفت فقط حين تذكرت أن هذا الشتاء أيضا لن يأتي إلي به ؛ لذا فلن أطمئن هذا الشتاء أيضا .. و لا لأي شتاء سيليه .

كانت روحي تشتاق إليه حتي خيل إلي أن يوما سينتهي الفراق ، و أن ألقاه يوما هناك عند مفرق الطرقات محاط بضوء النهار المنبعث من دفئ قلبه و هو يتوق إلي ، كنت ألومه ليس لأنه أضاع عمرا يراقبني أحترق بوحدتي .. و إنما لمته لأنه أعجب بفكرة الفراق ، فلم يصارع الموت من أجلي و لم يقتل قبل رحيله وحدتي .. و الالآم الإفتراق ، لم تكن تلك الذاكرة المعذبة هي فقط ذاكرة تحتفظ بذكري حبه الذي مضي .. و إنما هي تلك التي إحتفظت بذكري كل مساء و كل صباح مر دون أمل .. دون ذكر، هي ذاكرة الأماكن المهجورة بدونه .. و الأعوام الضائعة بعده ، الأحلام التي لا تتحقق .. و الدعوات التي أهدرناها من أجل ما لا يستحق ، هي ذاكرة الأمنيات التي لا تظل للأبد .. و الغد الذي لا يأتي للأبد .. و الغد الذي يأتي بدونه ، ذاكرة مخاوفنا و كراهيتنا ، ذاكرة ما لا ندرك .. و حتي ذاكرة الأسئلة الخاطئة ، تلك كانت هي ذاكرتي التي تمنيت أن أنساها بكل لحظة أحياها ، تلك هي ذاكرتي عنه و عن حياتي في بعده ، و حين أخذت أبحث عنه في كل وجه أطل به أترقب شئ يشبهه .. أبحث عن تلك التجاعيد بوجهه ، لأنظر لعيون الماره في الطرقات علي ألمح نظرة تشبه نظرته .. و حنين يشبه حنينه .. و ذلك الإضطراب في ملامحه حين ألمسه .. و تلك الثورة داخله حين رفض الإستسلام لسنوات طويلة ، كنت أبحث في كل رجل أقابله عن كلماته حين ينطق .. و خطواته حين يسير .. و حتي تلك الأنفاس التي كان يلتقطها بصعوبة حين تلتقي عينانا ، كنت

أبحث عنه في كل شئ فلا أجده يشبه شئ سواي ، بحثت في كل مكان و لم أدرك أنه هنا سجين قلبي للأبد ، و كأنني لا أفكر إلا به .. و كأن عقارب الزمن توقفت يوم موته لأظل سجينة ذلك الوقت بصحبته للأبد ، و كأنه محور الكون و أساسه ، و أن سمائي ترفض الإشراق بدونه ، الوقت بعده لم يمر و لن يمر ، مازال الوعد الذي لم يقطعه قائما بظني ، و مازلت أنتظر إنقضاء الحياة .. تلك التي تفصل بيننا ياحبيبي ، إن كان وقتا أو مسافة سيقضيها الله بعد حين .. و بعد مرور الوقت سينتهي البعد بيننا بلقاء ، و لعل الله يبعدني عن كل ما يأنس قلبي إلا هو حتي ينقضي ذلك العمر و يفصل هو بذاته في الأمر ، عشت أنتظرك .. أنتظر وعد الله أصدقه و أثق به ، و ها أنا أبدأ من جديد بعد نهاية آلمتني و مزقت ضلوعي و أهانت كرامتي ، ها أنا أبدأ وحيدة من جديد لأنهي قصة قديمة بنفس الطريقة التي لطالما إنتهت بها حكاياتي .. فراق و ألم ، مجبرتا أتقبل بعدك و مازلت أشتاق بدايتي الجديدة .. و أنا أحترق بنار فراقك ، لأكتب بشجن عن الألفة التي فقدتها معك ، و أتخيل قلبي يسكن أحضان حفظتني لأستيقظ كل يوما لأجدد أحلامي و أسير بطريق تحقيقها .. و أعود كل مساء لأراقب نافذتك .. أبيت أمامها وحيدة بين أحضان الماضي أعد نفسي للغد .. في حين أتذكر خلسة كل من جرحوني و تركوني لوليفتي الوحدة ، و أتذكر حين تركتك أنا وحيدا تنتظر للأبد ، في حين إنشغلت بهؤلاء الذين لم يروني معهم سوي الأكاذيب التي وفرها لي الزمان علي مدار سنوات

، مما حميتني منه لسنين عمري من الخديعة .. رغم أنك لم تستطع أن تحميني من حقيقة البشر المؤلمة ، أكاذيب لمجرد الخداع .. إساءات بدافع الإفتخار .. وكيد للتبجح فقط ، هؤلاء كانوا البشر بحياتي .. البشر الذين دفعوني لطرق الأبواب المغلقة .. الأبواب التي لم أتفاجئ من طرقي لها و لا قدرتي علي الإستمرار بذلك .. و إنما فأجئني الأبد ، فأجئني أن هناك أشياء تحيا للأبد خلف تلك الأبواب المغلقة .. خلف الإستمرار و رفض اليأس ، هناك مستحيل يحيا للأبد ، هناك أنت .. و هناك أنا .. و ما بيننا أميال من المستحيل الأبدي خلف إنتظاري لك .. كليلي و شتائي الأبدي ، هناك من سواك .. هناك الكثيرون ، لكن دائما خلف أبواب القلب المغلقة ليس هنالك سوي ظلالك .. و إنعكاسك داخل عيوني .. هنالك إسمك في كل صلاة .. هنالك أنت بكل حلم .. و غيابك بكل كابوس .. هنالك ملايين الأبواب المغلقة التي أطرقها بحثا عنك ،و الملايين من اللقاءات التي طال بها لك الإنتظار للأبد .

كلمة للختام

كل ليلة تهرب الكلمات من زنازين الوحدة ؛ لترسم بجدارة روايات عن الغد ، تستقيها من ذكريات ماضي المنسي ؛ لتذكرني بحزن بكل من نسيتهم ، و تشعل بحذر كل من أطفأت نار الشوق نحوهم ، و دون أن أدرك تحمل إلي أطواق من الجمر .. تظنها براءة أحلامي أطواق الزهور ، لأهديها لأبطال روايتي عن الماضي .. أملتا أن أنهي بذلك تلك الرواية ؛ و لأبدا من جديد .. روايتي الجديدة عن المستقبل .. روايتي عن الآتي .....

المؤلفة